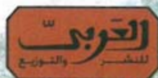
قصص من الأدب السلوفاكي



خلف طاحونة الجبل

ترجمة: د.خالد البلتاجي



خلف طاحونة الجبل

قصص من الأدب السلوفاكي

ترجمة: د/ خالد البلتاجي

2013



60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة
ت: 27921943 - 27954529 / فاكس: 27947566
sherifbakr@yahoo.com

خلف طاحونة الجبل

قصص من الأدب السلوفاكي

ترجمة: د/ خالد البلتاجي

الطبعة الأولى 2013

رقم الإيداع 2012/9786

ISBN : 978-977-319-157-8

This book was published with a financial support from
SLOLIA, Centre for Information on Literature in Bratislava.

يوميات شابة

تيمرافا

جئت إلى القرية كغيري من الذين فروا من المدن وكأنهم يهربون من داء حل بها. غرضي من الزيارة هو العثور على شاب ريفي ليكون رفيقًا لي بعد أن فشلْت في العثور عليه رغم كثرة المغازلين.

لقد نفذ صبري بعد أن بلغت سن الخامسة العشرين. من أجل هذا أحاول أن أقتنص هذه الفرصة الأخيرة اليائسة بكل ما أتيت من قوة.

كان عمي وهو كاهن في الكنيسة يدعوني كل عام لقضاء الصيف عندهم لكني كنت دائما أرفض مستنكرة: ماذا سأفعل في قريتكم؟ – لا يوجد فيها شخص واحد أنيق يستحق النظر إليه. الآن وبعد أن خاب أملي في الشباب المتأنقين الذين لا يفعلون سوى التودد والمغازلة بدأت أبحث بين شباب القرية الذين وإن كانوا لا يغازلون ولا يعرفون قواعد اللياقة ولا الغرام لكنهم يفكرون في الزواج.

لاحظت أن عمي لم يكن مسرورًا عندما رآني في بيته، وهز رأسه قائلًا: أخشى من أنك لن تكوني سعيدة هنا. كل المتنورين هنا عبارة عن أربعة أشخاص، أنا، ومدرسان، ورجل يهودي يبيع المجوهرات، ستهربين على الفور!

عمتي تريزا وهي أخته التي قامت على رعايته منذ البداية – فعمي لم يكن متزوجًا رغم كبر سنه – أدخلت السرور إلى قلبي عندما قالت لي أن هذين المدرسين مازالوا شبابًا، ويمكن أن أسمح لهم بمغازلتي، ربما حالفني الحظ. قلت: كيف! مغازلة وتودد من جديد! لقد سئمت هذا. أريد أن أتزوج، أريد أن أرتدي طرحة العروس، أين هي، أين هي؟ أسعدني ما قالته عمتي، وعلى الفور بدأت أتصور أحدهما بوجه البريء النحيل، تصورته ساذجًا – أما الآخر فهو غريب الأطوار، عصبي، وفوق هذا قليل الخبرة.

في المساء عندما اصطحبتني عمتي إلى الحجرة التي خصصوها لي، كتبت رسالة لأسرتي أسألهم: هل توافقوا على زواجي من مدرس ريفي أم لا؟

قدّمني عمي اليوم إلى المدرسَين. جاءا كلاهما في وقت واحد للعب الورق، فقد تعودا على ذلك كل يوم بعد الظهيرة. انحنيا لي تحية بعد أن قدمني لهم عمي، ثم جلسوا جميعًا حول الطاولة. أما أنا فجلست في فناء المنزل في ظل إحدى الأشجار ومن حولي طيور عمتي. أخذت أقرأ رواية – كان عندي متسع من الوقت أتأمل فيه هذين المدرسين. كان أحدهما واسمه رودلف ميشوف طويلًا، نحيف الجسم، شعره أسود يتدلى علي جبينه، تبدوا نظراته حادة ومضطربة، أخرج من جيوب معطفه زجاجات البيرة – كان قليل الكلام والتزم الجدية معظم الوقت – يعمل مدرسًا.

الثاني واسمه صامويل بوت كان شابًا سمينًا، مستدير الجسم، حسن الوجه، لكنه غير جذاب. في جسمه انحناءة وكأنه يحمل على ظهره حقيبة ثقيلة منذ صغره. تناول طبق اللبن الرائب الذي أحضره عمي. أخذ يتكلم بلا توقف، كان حديثه متقطعًا وكأنه ينزع الكلمات من بعضها وهو يحكي عن جارته، زوجة القس، وكيف أنها تضرب زوجها، وعن جاره الآخر، اليهودي الذي طرد الحداد من سرداب منزله لتطاوله على النبي هارون والنبي موسي. على الرغم من أنه ثرثر كثيرًا فقد أكل وشرب أكثر من الباقين. أما عمي والمدرس فلم يكن لديهما سوى متابعته والضحك على تعليقاته. كان يبدو أن الرجال الثلاثة على انسجام كامل. لعبوا لمدة ثلاث ساعات تقريبًا. ثم انصرف بوت دون أن يوجه كلامه نحوي – ربما لم يرد أن يزعجني وأنا أقرأ - فوضعت الكتاب جانبًا على أمل أن يخاطبني ميشوف. وفي الواقع وبعد لحظات سألني إلى متى أبقى في القرية. قلت له وأنا أتقدم لأجلس بجواره:

سأبقي هنا طالما أعجبتني قريتكم.

رد عمي وهو يزفر أنفاسه: لن يستمر هذا طويلًا. ثم أسند ذقنه الممتلئ علي راحتيه، وأخذ ينظر صوب الفناء يراقب البط والفراخ. فاجئني رده. لكنها كانت أمسية طيبة. كانت العصافير تحوم حولنا وهي تزقزق سعيدة. انتابتني رغبة في التسابق معها، فأخذت أغني حتى يري ميشوف أن فتيات المدينة لطيفات، ولكي ألفت انتباهه إليّ. من وقت لآخر كنت أنظر في عينيه مباشرة، وانتظر متى يغض هو نظره عني. لكنه لم يفعل. ورغم أنه

يرقبني فقد كان يجلس هادئًا، صامتًا، يتأمل وجهي. وكلما صار كلامي أكثر طرافة وأنا أتبادل مع عمي الطرائف حول الأدباء المعروفين والموسيقي، كلما كانت نظراته أكثر استنكارًا. في النهاية شعرت أنه ليس معجبًا بي، بل ينظر إليّ وكأنه يستنكر طبيعتي المتعجرفة وثقتي بنفسي. إنه ينهرني بنظراته، ينتظر أن أخفض بصري قبله!

لن أقبل هذا! لن أخضع! لن يتفوق علي نَفسِيًا هذا المدرس القروي. واصلت متجهمة حديثي عن روايات فيكتور هوجو، بل وعن أعمال جميع فناني العالم وأنا أري سعادة عمي وهو يفخر لمستوي تعليمي. بعد ساعة تقريبًا انصرف ميشوف. ثابرت ببسالة حتى النهاية، فلم يخفض كلانا بصره عن الآخر. لكني لم أكن راضية عن نفسي، قلت لنفسي: أخرتها، أخضع لامتحان أما هذا المدرس. لقد كدت أن أخفض عيني قبله.

أيقظت عمي الذي كان غارقا في النوم بجواري وسألته: من هؤلاء المدرسون؟ – تثاءب ثم فرك في عينيه ورفع ذراعيه ثم أرخاهما وقال: بوت مدرس صغير – كان في البداية يعمل صانع أحذية، ثم اخترناه للعمل معنا لعدم وجود بديل آخر. بوت مدرس جيد، فضلًا عن أنه يصلح لنا الأحذية حتى لا نضطر إلى إرسالها إلى المدينة. وفي الصيف يذاكر باجتهاد لأداء الامتحان من أجل الحصول على الشهادة.

وماذا عن ميشوف؟

كان أبيه جارنا يعمل مدرسًا. أراد ميشوف أن يصبح طبيبًا، لكن عجزه عن سداد نفقات الدراسة منعه من ذلك، وقامت الدولة على

إعداده مدرسًا، لكنه مازال يحلم أن يكون طبيبًا. يدرس للأطفال في الشتاء، وفي الصيف يجمع الأعشاب من الحقول ويصنع منها المراهم لعلاج أهل القرية. الناس هنا تعتبرونه معالجًا. ولا ترضى عنه بديلًا. ثلاث مرات استدعوه للعمل في مكان آخر. ثلاث مرات رفعوا راتبه، وقريبًا سيكون أعلى من راتبي. هكذا هو حال الناس، يحبون من يساعدهم.

الناس! – لكنه يجعل من نفسه أضحوكة أما العالم المتحضر – ألا يزعجه هذا؟

سألني عمي وهو ينظر إليّ في الظلام.

أيّ عالم متحضر تقصدين؟ هذا العالم المتحضر هو أنا وأنا أدعمه. ما رأيك أنت؟

أنا! هذا الأمر لا يعنيني بالمرة.

قلت هذا بدون أيّ حرج.

الحياة هنا هادئة ووديعة، الأيام مثل بعضها، ليلها كنهارها، اليوم كالأمس. عمي قبل الظهيرة يرعى خلية النحل التي يمتلكها، ثم يضع الملكة في الكوب، ولا يسمح لها بأن تطير علي الشجرة حتى لا يضطر إلى تسلق الشجرة، ويرهق جسمه الثمين لإحضارها. عمتي لا تبرح المطبخ، فهى تطبخ طوال اليوم وتخبز وتتعارك مع الخادمات. ميشوف يسير في الحقول يحمل مطرقة خشبية، ويجمع الأعشاب ليصنع منها الأدوية والمراهم. بوت يصنع الأحذية لمعارفه من المثقفين. وسيحضران بعد الظهيرة للعب الورق، وقد انضممت

إليهم أنا الأخرى. لا أحد منهم يغازلني. ربما كان بوت يريد ذلك، لكنه لا يعرف كيف، فكل ما يفعله هو سرد حكاياته مع جيرانه. أما ميشوف فربما أجاد المغازلة، لكنه لا يريد. فهو جاد أكثر من اللازم، قليل الحديث – ويسعى جاهدًا أن يبدوا غير مبال. يرفع رأسه عاليًا، ويشد جسمه كما لو كان قصيرًا!

– لم يكن يروق لي هذا. مر ما يقرب من أسبوعين ونحن نتقابل كل يوم دون أي جديد. لو كان هذا في المدينة لكانوا صارحوني بحبهم منذ زمن وتوسلوا إلي

– وربما أيضًا هجروني!

مر أسبوعان آخران. بدأت أشعر بميل تجاه هذين المدرسين. كلٌّ منهم يحبني! ميشوف يجمع الأعشاب وبدأ يقوي أعمدة منزله الرمادية وهو يوجه نظره صوب منزل القس. بدأ بوت يخجل من صناعة وإصلاح الأحذية، وبدلا من ذلك يسير قبل الظهيرة في الحديقة، ويسترق النظر من وقت لآخر صوب غرفتي. وبعد الظهير، وما أكاد أنهض من علي المائدة حتى يأتي كلاهما ويبقيا حتى المساء. في البداية نذهب سويا لرؤية خلايا النحل إلى أن تهدأ حرارة الشمس ثم نتسامر. عمتي تعد الطاولة بينما أنا أضع لعمي التبغ في الغليون، ثم يبدأ اللعب وكل منا ينظر في عيني الآخر. عمتي سعيد بأنه سيكون لديها أسرة في القرية عندما أتزوج من أحد هذين المدرسين. عمي يلومني لأنني أنعتهما بالأبلهان رغم أنه مسرور لذلك في سره. فاجئني اليوم في غرفتي عندما نهضت وسط اللعب وبدأت أتفحص سرًا من الغرفة كل ما يقع خلف النافذة الجنوبية المطلة علي حديقة بوتو وكل ما هو واقع جهة الغرب، تجاه المدرسة التي يعمل بها ميشوف.

منذ ذلك الوقت كف عن تعنيفي ولومي. وفي المساء وأثناء سيرنا معا بدأ يحكي عن شبابه الذي انقضى، والجمال الذي فاته، وعن الحب الذي تخطاه. وبينما هو يتحدث شغلتني فكرة . من أختاره من هذين المدرسين؟

وبعد مرور ثلاثة أسابيع من التفكير بهذا الأمر قررت أنني سأتزوج من الرجل الذي يحبني أكثر من غيره. ولكي أحسم الأمر قررت أن أستنهض فيهم الغيرة. بدأت تنفيذ خطتي بعد الظهيرة مباشرة عندما جاء ميشوف. كان من المفترض أن نذهب لحضور مأتم تلقى فيه خطب العزاء . وأحضر لي باقة زهور كبيرة من زهور الغابة. وضعت الباقة عند النافذة صوب حديقة بوتو بحيث يمكن رؤيتها. جلس ميشوف بعيدًا عني – فهو لم يجلس بجواري أبدأ على كل حال . رأيت كيف أنه لاحظ سلوكي الطائش، لكنه لم يعطي للأمر اهتمامًا. لكن عندما أظهرت لا مبالاة بأسئلته، نهض وجاء من خلفي ونظر من النافذة قائلًا:

صامويل بوت

ثم رجع إلي مكانه...

هنا سأله عمي:

أهو قادم إلى هنا؟

لا، هو يمر في الحديقة.

هكذا رد ميشوف، ثم سأل عمي عن أمور تخص المأتم. اعتقدت أنه سينصرف على الفور، لكن هذا المدرس بقي في مكانه، ولم تظهر على

وجهه أية علامة علي الغضب. وبدون قصد سقطت مني باقة الظهور من النافذة، ثم دستها بقدمي. نظرت إليها ثم تساءلت: ما هذا؟ – وأبعدتها برأس حذائي جانبًا ثم قلت لنفسي: الآن سوف يغضب.

خسارة! – هكذا علق على ما حدث متجهمًا، وطلب مني أن أذهب إلى الكنيسة لسماع خطبته معللًا: . علي الأقل ليسمع خطبتي، فضلًا عن القس، أذن عاقلة واحدة على الأقل. ثم تثاءب مرة بعد أخرى كما لو أنه قد أصابه الملل. سألته وأنا متأثرة بحالة اللامبالاة التي أصابته: - هل كتبت الخطبة في الليل؟

- لا، لقد أعددتها منذ وقت طويل. لقد كتبها أبي منذ ثلاثين عامًا.

أجاب ثم واصل تثاؤبه.

ضحك عمي، رغم ما بالخطبة من أفكار دينية، وأخذ يقرأ في الإنجيل. أما أنا فلم أستطيع أمنع نفسي من الضحك. لكنه ظل جادًا، وأخذ يتثاءب سرًا ليتجنب علامات الدهشة على وجهي. ولم تبدو عليه أية علامة علي الرقة.

ذهبت إلى الكنيسة لسماع الخطبة. لم تعجبني. غضبت منه لأنه لم يتأثر عندما قللت من شأنه، ولأنه لم يتلعثم لمرة وهو يلقي خطبته ويرى أنني أراقبه. بل رد النظرة بنظرة هادئة وكأنه لا يعرفني.

منذ ذلك الحين بدأت أتشكك في حبه لي وأنا أنتظر بلهفة بعد الظهيرة حين يأتي بوت ويبعث في السرور في نفسي.

حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر جاء بوت يدعوني للعب الورق. وعلي عمد هممت بالدخول غرفتي، وأنا على يقين بأنهم سيرسلونه خلفي. وقبل أن أذهب رحت أمدح خطبة ميشوف وباقة الزهور التي أعطاني إياها، ثم عرضت على بوت باقة الزهور النادرة هذه وأنا أنظر في عينيه بفضول.

أنا أعرف بأمر هذه الباقة، وأنك وقعت في حبه.

قال هذا بنغمة واحدة باهته.

نعم، هذه حقيقة:

أكدت مقولته بسعادة، وسألته عن رأيه. بدت على وجهه علامات الرضا ذاتها. لم يثور غضبًا، ولم تبدوا عليه ملامح الغيرة.

إنهما لا يغاران، لا أحد منهم يحبني!

قلت هذا لنفسي وأنا يائسة. لاحظت ونحن لعب الورق أن الأصدقاء المقربين وزملاء العمل الذين يعيشون في تناغم تام تغير حالهم. صار كل منهما لا يطيق الآخر. ثار كل منهما على الآخر لأتفه الأسباب. وكثيرًا ما خاطبني بوت قائلًا: ألست على حق؟!

ميشوف لم ينظر جهتي مطلقًا، بل هم بالانصراف قبل موعده متحججًا، وقال لعمي:

سأذهب لإلقاء النظر على القمح!

تقصد على الأعشاب وليس على القمح؟!

علق بوت مازحًا عند خروج ميشوف من البيت بأن الأعشاب نفذت من عنده وليس لديه ما يصنع منه المراهم. بعد لحظة انتبه إلى أنه هو الآخر يصنع الأحذية. انصرفت إلى غرفتي لكي ألقي عليه نظرة من وراء النافذة. وهناك عند ناصية الشارع وقف ينتظر بوتو.

قال ميشوف:

اسمعني! لا يمكن أن نتخاصم بسبب فتاة! ما هي إلا شابة جاءت وستنصرف. ولن يبقى لنا سوي أن نتحسر عليها. هل يستحق هذا أن نضحي بصداقتنا؟ تعقل يا بوت، اتركها!.

اتركها أنت!

نظر ميشوف إليه مستغربًا، ثم هم بالانصراف وهو يصفر بفمه وانصرف عبر القرية صوب المدرسة.

جاء عمي يدعوني للتمشية. أخذ يصف كيف أنا صامتة، فربما أنني أتحسر على فراق المدرسين الذين انصرفوا، أو أن هؤلاء من جيل غير جيلنا وأنهما ليسا بهذه السذاجة بأن تتلاعب بهما شابة ما. سمعته وأنا أدعي طول البال، وبمجرد أن وصلنا إلى البيت أسرعت إلى غرفتي صوب النافذة. كاد الظلام يملأ القرية ورغم ذلك رأيت بوتو يتجول في الحديقة مع كلبه، أما ميشوف فكان يقف متكأ على أحد الأعمدة، ولا ينظر ناحية النافذة، بل يتجه برأسه في الناحية الأخرى، يتأمل السماء التي تضئ خلف مرتفعات القرية. راقبته لفترة طويلة وهو متسمرًا في مكانه ينظر إلى

السماء. ألقيت في الشارع باقة الورود من النافذة غضبًا مما أرى، ثم جلست على كنبة في ركن الحجرة أحلم بالشباب الأنيق في المدينة، وهنا سمعت صوت أقدام، وفي لحظة كنت خلف النافذة. جاء ميشوف من جهة وبوت من جهة أخرى، والتقيا تحت النافذة.

إلى أين تذهب؟

سأل ميشو أثناء سيره، ثم توقف أمام بوت الذي أظهر دهشته ثم لطمه على قفاه. أعاد ميشوف الضربة اثنين، ثم وضع يديه في جيوب سرواله وواصل سيرة وهو يصفر بفمه وكأن شيء لم يكن. وقف بوت لحظة وهو يتحسس وجنتيه، ثم رفع قبضة يده مهددًا: صبرا يا صانع المراهم! ستقع تحت قبضتي يومًا ما ثم انصرف إلى بيته. صفقت من السعادة.

- ثنائي قروي! إنهما يغاران. لكن من منهم يحبني أكثر؟ لا أعرف حتى الآن. يجب أن أجد طريقة أخرى للتحقق من هذا!!

عند تناول العشاء رأيت عمتي تربط عنقها، كانت أسنانها تؤلمها. وهنا خطرت لي فكرة جيدة وهي أن أدعي المرض.

منذ ذلك اليوم توقفت زيارات المدرسين. وعبثا أهتم بنفسي. تملكني حزن خفيّ، لا شيء يعيد لي أملي الأخير، هذا الأمر جعلني عصبية جدًا. واصلت لعب الورق مع عمي. إنه شخص لطيف، لديه كل ما يتمناه – لكن الملل أصابني. لاحظ عمي هذا فبدأ يتحدث عن تفاهة الشباب الصغار وسعيهم

وراء المتعة والتسلية، وأن هذين المدرسين لا يختلفان عن غيرهم، ولا تكفهما جلسات اللهو عند عمي، بل يترددون على الهودي أيضا للتسلية، حيث يوجد الكثير من الشراب والكثير من الهود والهوديات.

فسألته وأنا أضمر في نفسي غضبًا:

كلاهما؟

رأيت هناك ميشوف بالأمس.

فقلت في نفسي: ولماذا ميشوف؟ لما لا يكون بوت. لم يعد يفيد الكتمان. فقد علق صانع المراهم بذهني. قررت أن أذهب إليه قبل أن يأتي هو إلينا. منذ ذلك الحين وكل نفس أتنفسه يصيح قائلًا: تعالا! تعالا! تعالا! اليوم امتلكتني رغبة شديدة. بعد الظهيرة وأثناء لعب الورق وما كاد يملأني اليأس حتى ظهر بوت، بعده مباشرة جاء ميشوف بحجة أنه في نزهة ورآنا نجلس بجوار المنزل فجاء للتحية. وبدا وكأنه كان ليدخل إلى البيت إن لم يرانا في الخارج. جلست مدعية المرض ومتعبة عند الطاولة، وقد أسندت رأسي علي راحتي يدي وكأن بها ألم لا يحتمل وأنا أنظر بملل، بلا هدف كمن أصابه إغماء – قلت لنفسي: إن صورتي هذه من شأنها أن تلين الصخر. وبالفعل جاء بوت وسألني:

آنسة! هل أنتِ مريضة؟

علي الفور جاء جوابي عصبيًا علي طريقة المرضي:

نعم

أما ميشوف فلم يلاحظ أنني مريضة، إلا أن عمي ربما قد أخبره أن حالتي الصحية غير جيدة منذ أسبوع.

تبدين مريضة بالفعل، ربما أن جو القرية لا يناسبك! من الأفضل أن تعودي إلى المدينة.

اندهشت كثيرًا من هذه الكلمات الجافة وحزنت. إذن هو يريدني أن أرحل من القرية. وأنا كنت أعتقد أنه يجبني! أومأت برأسي وأنا بالفعل متذمرة، لكن دون أن يلاحظ أحد ذلك. استردت عافيتي مؤكدة أنني أيضًا لا أحب صانع المراهم هذا، ليكن بوت إذن. وبرغم نيتي هذه بمجرد أن انصرفا انهمرت في البكاء كالطفل الصغير، خزيًا من سن الخامسة والعشرين الذي بلغته. أسرع عمي نحوي خائفًا ليرى ماذا أصابني.

همست بصوت مسموع: أنا مريضة. قلتها وأنا خائفة من كذبي هذا.

قال عمي بصوت واثق حنون:

أنتي مريضة بالفعل، درجة حرارة رأسك ويديك مرتفعة. إن حالتك الصحية سيئة يا لويزا.

ثم نادي علي أخته:

تيريزا! احضري الماء بسرعة! يجب أن نضع كمادات على جبينها.

بالفعل وضعوا كمادات مبللة على جسمي دون يهتموا لما أقول. أغضبني هذا في البداية، ثم سرعان ما أعجبني. وبدأت أضحك في سري

لحالهم؛ وهم يحاولون المساعدة ويعصرون الكمادات. عمي بالتبادل مع عمتي حتى منتصف الليل. بفضل ذلك بردت رأسي وقلبي معًا – نعم وقلبي أيضاً. فلم يضايقني أن عمتي أرسلت في طلب ميشوف لكي يحضر ويجلب معه الأعشاب، وأنه أبلغها أنه لن يأتي، وقال أن الآنسة لا تعاني من أي شيء – لقد رأيتها بنفسي، وحضوري عديم الجدوى.

برد بالفعل جسمي كله بفضل كمادات عمتي وعمتي. أصبت بالسعال، وجش صوتي، والتهب حلقي فلم استطع تحريك رأسي. قام عمي بعلاجي على طريقة ميشوف؛ بواسطة مشروبات من زهرة الليلك الزيزفون، وقد نسي أمر خلايا النحل ولم يتركني إلا للضرورة. أما عمتي فكانت أحيانًا تترك مطبخها وتساعده – كانت دائمًا تنظر إلى، ثم تنصحني بأن أرحل لأن تورم الحلق يعتبر أمرًا خطيرًا. لكن عمي رفض هذا الأمر تماما وقال بحماس شديد: لقد مرضت هنا وسوف تعالج هنا. لكن عمتي هزت رأسها ولم تعلق. أيضًا أظهر بوت حزنًا لمرضي، ولم يكف عن التردد علي قبل الظهير وبعد الظهيرة ليسأل: كيف حال مريضتنا. انزعج عمي من كلمة مريضتنا بشكل كبير، وبدأ يظهر كراهية له، ثم أعلن أن هذا الشخص ليس به أية ميزة على الإطلاق، وأن صانع الأحذية سيبقي صانع أحذية إلى الأبد. ثم اقترح عليَّ أن أذهب إلى غرفتي عندما يأتي، مدعيا أن كلامه بالتأكيد يزعجني وهو يحكي عمن طرده اليهودي اليوم، وكيف تعارك راعي البقر مع زوجته.

لا، أنا لا أنزعج من كلامه، على الأقل هو يسليني.

قال عمي متعجبًا:

لكن هذه تفاهات، يمكن أن أقرأ لك شيئًا إذا أردتِ.

وبالفعل هم بالانصراف ليحضر كتابًا ما. أما عمتي التي كانت تقف جانبًا، وهي تضع يديها في خصرها – هكذا كانت تقف دائمًا- فقد أخذت تنظر إليه وهي تهز رأسها غير راضية. تكاد تشعر أن شيئًا ما غير مألوفا يحدث لأخيها، وأن خطرا ما يهدد مقاطعته – بيته. لم تنبث بكلمة عند عودته وهو يحمل كتابًا، لكنها أخذت كرسيًا من أمام بوابة البيت، وخرجت إلى الفناء، ثم بدأت تغزل جورب لعمي.

أما هو فقد أخذ يتحسس ذقنه السمين الأجرد، ثم بدأ يقرأ لي رواية لروبينسون. كان هذا بمثابة تعذيب لي. فلقد قرأتها عشرة مرات، فضلًا عن الألم الشديد في حلقي سبب لي إرهاق شديد ورغبة في النوم. تمنيت لو أن عمي قرأ لي بفمه الممتلئ من هذا الكتاب: ميشوف يحبك، يحبك، يحبك. وأخيرًا قطع قدوم بوت القراءة. ألقى التحية بطريقة أهل الريف، أي رفع قبعته من على رأسه دون أن ينحني، وسأل إن كانت صحة مريضتنا قد تحسنت.

سقطت شفه عمي الغليظة دون أن ينبث بكلمة، ثم التفت ناحية بوت ولم يستطع مواصلة القراءة. فمن حسن حظي أن مزاجه السيئ منعه من ذلك.

رددت بعدم اهتمام علي سؤال بوت قائلة:

نعم، لقد تحسنت حالتي كثيرًا وغدًا سأتعافى تمامًا.

نظر بوت حوله يبحث عن ميشوف، في حين سقطت شفاه عمي الغليظة أكثر فأكثر ثم قال:

لكنة لن يأتي، فهو يقول أن الآنسة لا تعاني من شيء، وتتدل فقط كعادة النساء وأنه ليس طبيبًا.

فقلت في نفسي: عمتي هذه غريبة. كل يوم ترسل في طلبه، وهو يرد بنفس الإجابة! إنها تشوه صورتي أمامه. وهنا تصاعد غضبي، وأسفت لعدم وجودها فلم أكن أود أن أهاجمها في غيابها. – نعم، لقد اتضح لى الأمر الآن، إنها تخاف على ممتلكاتها، و تريدني أن أتزوج عمي.

وبينما أنا أفكر في هذا دخلت عمتي إلى الفناء وهي تغمرها السعادة. فبجوارها يسير ميشوف، يحمل عصاه وحزمة من الأعشاب تحت إبطه. بالتأكيد هى التي استدعته للمجئ معها. وهنا قفز كلب بوت عليه، فلم يكاد يعرفه مثل صاحبه، فضربه ميشوف على رأسه بعصاه حتى جعله يدور برأسه على الفور.

وما أن رأى بوت المدرس يدخل إلى الفناء حتى أمسك بالجريدة وكأنه يقرأ فيها. وعندما نبح الكلب قبض يديه مهمهمًا: صانع المراهم!

دخل ميشوف الفناء، ثم صافح عمي الذي مده له يده متثاقلًا وباردًا، ثم صافحني وهو ينظر في ما وراء رأسي بلا هدف. وبدا وكأنه لا يرى بوت، وأدار له ظهره.

قالت له عمتي وهي تشير إليّ:

أي نوع من الجيران أنت؟ إنك قد تتسبب في موتنا!

انظري! إن المدرس يسعده رؤية شال المريض

أجابها وهو بنظر نحوي لأول مرة، ثم يحول نظره عني، ويغاود النظر إليّ من جديد، ثم ينظر مرة أخرى بلا هدف.

فسألته عمتي:

أين كنت طوال الأسبوع؟! لقد اختفيت.

كنت عند كاتب العدل

رد بوت بصوت متقطع قائلًا:

هذا الرجل نصاب! كل ما يفعله هو لعب الورق والشرب وزوجته تبكي في البيت! وأي إنسان عاقل لا يجب أن يتحدث معه.

التفت ميشوف نحوه وكأنه لم يراه من قبل – كان مقتنعًا أنه يستحق هذا التجاهل- ونظر في عينيه مبتسمًا ولم يعلق. بدلًا منه بدأ عمي الحديث قائلًا:

هذا هو حال الشباب عندنا، يهملون بيوتهم وزوجاتهم من أجل الترفيه. وكل من تتزوج من شاب صغير تجعل من نفسها ضحية له. أما الرجال الكبار فهم أكثر تعقلًا، ويجدون سعادتهم الكبرى في أسرتهم.

أصابتنا كلمات عمي هذه الجميع بالدهشة. بوت بالتأكيد شعر بالإهانة، فأشعل غليونه. أما ميشوف فقد ركز نظرة على عمي وهو يتكلم. وبعد أن انتهى عمي من حديثه نظر إلىّ بطريقة جعلت وجهي يتورد خجلًا. كانت عمتي تقف بجواري، رفعت إحدى يديها من على خصرها وكحت فيها. لقد كشف سعالها الحقيقي عن زيف حالتي المرضية. وكرد فعل على الحديث عن الشباب تقدم عمي صوبي مسرعًا، ثم وضع يدي في راحتيه الغليظتين، ثم تحسس جبيني ليتأكد من حرارتي، ثم وضع عليه قبلة ممتلئة بحنان الرجل الناضج. وعندما أدركت أن ميشوف ينظر إلىّ، تظاهرت وكأن الحرارة في جسمي كله حتى أسترعى اهتمامه. أسعدني أنهم أرسلوا في طلب عمي في آخر البلدة ليعترف له شخص هناك. انصرف، وبدأ غير ممتنًا – ربما لأول مرة في حياته. نظر خلفه هو يخرج من بوابة البيت ثلاث مرات.

ولكي أكون مع ميشوف بمفردي جذبت عمتي بوت وطلبت منه أن يساعدها في أخذ مقاس حذائها. رغم أن حذائها كان جديدًا إلا أنها ادعت أنه ضيق عليها. عبثا حاول الإفلات منها مدعيا أنه لم يعد بصنع الأحذية، إلا أنها جذبته من يده حتى اضطر إلى الانصراف معها.

عندما رأيت هذا ذهب أنا الأخرى إلي حجرتي، وتركت المدرس يقرأ الجريدة، وقلت أنني سأكتب رسالة لأسرتي أسألهم فيها: هل توافقون على زواجي من عمي أم لا؟

لكن عمتها لم تعطها فرصة، فبعد دقائق رأت ميشوف يقف عند الباب. وبدون أن أرد على تحيته عقدت حاجبي على أنني غاضبة، ثم طلبت منه أن ينصرف قائلة:

أنا لست في حاجة إلى طبيب، فأنا لست مريضة

حقًا؟ لكن أنا مريض.

عندك المزيد من الأعشاب، فاذهب وعالج نفسك.

لكن مرضي نفسي وليس عضوي.

إذن اذهب إلى عمي، فهو طبيب نفسي

مرضي لن يشفيه أحد غيرك! لا تعذبيني أرجوكي!

وبدلا من أن يجثو على ركبتيه أمسك بيدي، لا لكي يقبلها بل أخذها بين راحتيه وراح يضغط عليها ويملس عليها. كدت ألقي بنفسي بين ذراعيه لكني لحسن الحظ تذكرت ما قاله لعمتي. فقمت عنوة بسحب يدي، ثم صرخت فيه مشيرة بإصبعي صوب الباب: انصرف!

نظر مشوف إلى إصبعي ولم يتحرك من مكانه. كان يعرف من أجل من كانوا يرسلون في طلبه طوال الأسبوع، ولم يكن ما فعله في الواقع مناسبًا. مال برأسه عليّ، أما أنا فَرحت بسرعة أكتب رِسالة: هل تقبلوا زواجي من عمي أم لا؟

ثم قلت له باستخفاف موبخة: صانع المراهم!

وعلى الفور رفع رأسه، ثم مسح بيديه علي جبينه وبهدوء وأدب خرج من الغرفة.

تملكني الخوف وأنا أري ما يحدث، وأنه لن يعود مرة أخرى.

انخرطت في بكاء حار بصوت عالي وأنا أندب حظي، وأضرب بكفي حسرة على هذه الخسارة الكبيرة وسخرية من قوة النساء والكرامة. أما هو فظل واقفًا عند الباب الذي كان مفتوحًا. وقف هناك طويلًا يصارع نفسه. هل سينتصر؟ اهتز جسمي كورقة على الشجرة، خوفًا من أن يتركني ويرحل هكذا. لا - هو أيضًا جعل كرامة الرجال في الحضيض. وبعد لحظات استردت قوتي وأخذت أصرخ يائسة:

حلقي! يا جماعة! ساعدوني! أتريدونني أن أموت؟

في هذه الأزمة أسرع عمي نحونا تتبعه عمتي وهي تبتسم. بدا الغضب الشديد علي وجهه، وأخذ يبحث عن العصا ليضرب ميشوف.

أخذت أهز يدي مذعورة

يا إلهي، عمي! عمي! عمي! أنا أحب هذا الرجل.

فسألني وهو يثور من الغضب ثم أعطي العصا لأخته وقال:

تحبينه؟ فعلًا تحبين صانع المراهم هذا؟ فليكن، فليكن - لقد صرت عجوزًا أنتظر الموت.

في هذه الليلة كتبت مرة أخرى لأسرتي خطابًا أسألهم:

سأتزوجه سواء وافقتم أم لا توافقوا على زواجي منه.

وفي اليوم الثالث حضر والداي وأعجبهم ميشوف. على الفور اتفقوا على موعد الزواج بعد ستة أسابيع. واصلت إلحاحي على ميشوف حتى وعدني بأن يكف عن جمع الأعشاب وصنع المراهم.

مرت ستة أشهر. صرت فيها زوجة لميشوف. قبل الظهيرة أعد له طعام الغذاء، وبعد الظهر نذهب إلى الكنيسة، ثم نتوقف عند اليهودي ثم عند البقال لشراء زجاجتين من البيرة أضعهما في جيب معطف زوجي. أنادي علي بوت من النافذة، ثم نذهب معا لزيارة عمي الذي ينتظرنا وقد أعد لنا اللبن الرائب. بوت يتناوله أكثر من غيره وهو يروي حكايات عن جيرانه طوال الوقت. بعد ذلك تعد عمتي الطاولة وأنا أضع الدخان لعمي ولزوجي في الغليون. يستمر لعب الورق حتى الساعة السادسة مساء. ثم أستند على أعمدة المدرسة الباهتة، أنظر إلى التلال خلف القرية، أترقب عودة زوجي ومعه الأعشاب. وهكذا عاد الجميع إلى حياته المعتادة، عمي يرعى خلايا النحل وهو سعيد، بوت يصنع الأحذية أما عمتي فلا تبرح المطبخ. وعشنا جميعا في وئام تام.

تيمرافا (1867 – 1951)

اسمها الحقيقي بوجينا سلانتشيكوفا. هي رائدة مذهب الواقعية في الأدب السلوفاكي بلا منافس وتتصدر قائمة أفضل الأدباء السلوفاك في العصر الحديث. عالجت في قصصها بطريقة جديدة العلاقات الاجتماعية المختلفة على خلفية المتغيرات في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

ولدت في مدينة بوليخنو عام 1867. يعد أبوها أحد مؤسسين المؤسسة الثقافية السلوفاكية ماتيتسا سلوفاكيا. درست لمدة عامين في المدرسة الشعبية في مدينة بوليخنو ثم أكملت تعليمها علي يد أبيها. بقيت في مسقط رأسها حتى وفاة والدها عام 19. 9 ثم انتقلت مع أمها لتعيش مع أخيها في مدينة أبيلوفا. عملت منذ عام 1918 مدرسة في مدينة أبيلوفا التي عاشت بها حتى عام 1945 انتقلت بعد عام 1945 للعيش في مدينة لتشينتسا وحتى وفاتها عام 1951.

أصدرت لمدة عشرة أعوام منذ عام 1886 مع أختها ايرينا مجلة أدبية باسم راتوليست حيث كتبت مقالات نقدية عن الأغاني الشعبية وكتبت الأشعار ونشرت فيها بعض القصص القصيرة.

صدرت أولى قصصها القصيرة والتي نشرت في جريدة الأخبار السلوفاكية عام 1893 بعنوان يوميات شابة. ركزت فيها الأضواء على العلاقة بين الرجل والمرأة (وهو من الموضوعات التي اتسمت بالجرأة حسب المعايير الأدبية في وقتها). تعالج في هذه القصة موضوع اختيار شرك الحياة المناسب ورفض الصورة التقليدية للفتاة الساذجة العاجزة عن

التأقلم. هذا الموضوع اعتبر أساس للعديد من القصص التي كتبتها فيما بعد وتعالج المشكلات الاجتماعية المختلفة. استوحت موضوعات قصصها الأولى من بيئتها وحياتها الخاصة. ومنذ عام 1896 وحتى 1900 بدأت تعالج في قصصها المشكلات النفسية لأبطال قصصها وهو اتجاه لم يكن مطروقا في الأدب حتى ذلك الوقت. حاولت في قصصها إيجاد لغة جديدة مختلفة عن تلك اللغة الرتيبة السائدة عند معالجة القضايا الاجتماعية والنفسية والأخلاقية في ذلك الوقت.

النائم

مارتن كوكوتشين

1

استلقى راعي الإوز أوندراش ماخولا على الأرض، ليس لأنه قتيل أو جريح، بل يسترخي في أحد المروج. فليس لديه ما يفعله. يبدو كجثة هامدة. تشير قدماه اللاتي ثناهما ويحركهما من وقت لآخر على أنه مازال حيًا. لا يهتم حتى لأمر الذباب الذي يطن ويتطاير على وجهه. استعذب النوم تحت لهيب الشمس الحارقة. إنه لا يبرح مكانه هذا، ولا يتنازل عن راحته حتى لو أعطوه نصف قرية لينوفتسا. إنه لا ينام، بل يتمرغ في كسل معسول. يرى أما عينيه المغلقتين نقطة صغيرة سوداء، تتسع ثم تتلون وتنتشر في كل اتجاه. يكفيه حركة واحدة بعينيه كي يبدد ما يرد على مخيلته ثم يظهر من جديد ثم يتلاشى - إنه يحلم. كل من يراه يحسده على ما هو فيه. فهو لا يعيل زوجة ولا أطفالًا، لا يملك بيتًا أو حقلًا أو بلدة لكي يهتم بشئونها. فهو لا يملك شيئًا. يشعر وكأنه في الجنة.

مهنته هي رعاية الإوز. لا يملك حصانًا يرعى إوزه عليه، ولا يملك زيا يغطى به العيوب التي ابتلى بها. بدلًا من هذا كله تنتشر حوله الإوز في

أسراب كبيرة وصغيرة. حتى مملكة الإوز لا تعترف به ملكًا عليها إلا عند الضرورة. وهو الآخر لا يفكر بهذا مطلقًا، ولا يرغب في معارضتها، فهذا الأمر يتطلب منه جهدًا كبيرًا بلا طائل. فالإوز المنشق بعد قليل سينفض من حوله، وعليه عنها أن يبحث عنه.

هو سعيد وهو يتمرغ هكذا على الأرض. هذه هي الفضيلة الوحيد التي يتمتع بها. فهو ينتقل بين البيوت هنا وهناك – أما الآن وهو في الحقل فليرتاح قليلًا على الأقل. فهم في القرية يطردونه من كل ركن فيها – فهو عالة عليهم. علي الأقل هنا في الحقل لا يضايق أحد. ربما يضايق الأعشاب التي ينام عليها، ويمنع عنها ضوء الشمس؟! يا ربي – فلتنتظر! في الخريف يمكنها أن تعوض ما فاتها.

أوندراش ماخولا من مخلوقات الله التعيسة. فهو يثير شفقة كل من ينظر إليه. يبدوا وكأن الخالق أراد أن يضع فيه كل عيوب البشر ليكون عبرة لهم. رأسه كبيرة، يغطيها شعر حاد لا يمكن تصفيفه ويصلح أن يكون لحيوان. جبهته قصيرة وعيناه صغيرتان بشكل لافت، تبرز عظام وجنتيه من تحت جلده. أنفه عريض وفمه كبير، أما جسمه فهو ضئيل وقد توقف عن النمو، ظهره أحدب. تتدلى يداه وهو يمشي كمطرقة القمح. لا يكاد يشبه إنسانًا في خلقته. الناس ينظرون إليه بحزن، يتعاملون معه بحذر كبير وكأنه طفل صغير ضعيف. لكنه لا يعتبر نفسه مسخ، فهو راض عن نفسه، ولم يحدث أن ثار على قدره أو فقره. بل يرى نفسه جميلًا، فغالبًا ما يقف على حافة بركة ماء سعيًا في أن يرى نفسه

على سطح مائها العكر. لدية تذوق للأشياء، يفرق بين الحسن والقبيح، لكنه يحكم على نفسه بشيء من التحيز- أوليس إنسانًا؟

كانا والداه من أفضل سكان قرية لينوفتسا. كانوا الجميع يعتبرونهما مثالًا لحسن المعاملة وتحمل الآخرين. لا يذكرهما أهل القرية إلا بالخير. تعاطفوا جميعًا معهما عندما ولد أوندراش. بدأ بعض سكان القرية يطلقون الأقاويل بأن العرافة قد أبدلت طفلهم الجميل المعاق بهذا المسخ. والبعض الآخر اتهم أمه بأنها كانت تتوحم على قرد رأته في السوق.

أصاب أبيه ماخولا اليأس، أما أمه فكانت لتدفع بحياتها مقابل نظرة على طفلها. أذعنت لقضاء الله وأعطت كل ما يحمله قلبها من حب لطفلها هذا، كانت تحبه كأنه هو الطفل الذي كانت تتمناه طول عمرها.

كان أباه ينفر منه، فلم يكن يستطيع النظر إليه. وأغلق قلبه عنه تمامًا، وغرق في حزن عميق. كان دائمًا يجلس غارقا في أفكاره عند الطاولة وهو يضع رأسه بين راحتيه، وتجول بها أفكار كئيبة، وعلى وجهه علامات اليأس. لم تكن تجرأ زوجته أن تسأله عما به، فقد كانت تعرف جيدا مصدر ألمه وحزنه. تجرأت مرة وقالت له:

لا تحزن يا يانو، هذه إرادة الله.

لكنه نظر إليها ببلادةن ثم صاح وقد اختلط صوته بألم دفين وغضب لم تعهده فيه من قبل:

كيف لا أحزن وطفلي هذا ليس إنسان بل... آه!

ثم هز يده وقال: - هذا ليس طفلًا. الكل يشير إليّ وهو يسخر مني. أرى في عيونهم السعادة مما ابتليت به. يكاد الدم ينفجر في عروقي. إنهم يتهامسون عليّ من وراء ظهري ويعتقدون أنني لا أسمعهم.

لا أحد يسخر منك! إنهم ليسوا كفرة إلى هذا الحد حتى يتلهوا من بلواك.

انفجر يانو في الضحك المملوء باليأس:

لا يسخروا مِنيّ! من السهل أن تقولي أنهم لا يسخروا مني، فأنت لا تختلطين بهم – لا يسخروا مني! اذهبي إلى الحقل أو إلى الحداد حتى تري بنفسك كيف أنهم لا يسخروا مني! وكيف لا يسخر أب رزق بطفل جميل معافى من أب رزق بطفل كطفلنا هذا! يا إلهي! ليتني رزقت بطفل كما تمنيت! آه!

هزت كلماته الحزينة كيانها. جمعت قواها ثم تقدمت منه. فقد عرفته دائما إنسانا طيبا رقيق القلب، يستمع دائما لصوت العقل والكلمة الحنونة ثم قالت:

أترى! رغم ذلك فأنا أحبه، فهو من خلق الله. وستعتاد عليه، فقط خذه بين ذراعيك، يانو! حاول ذلك، فأنت أبوه...

لا، لا يا سوزي، لا! انصرفي! لا أستطيع! لا يمكنني. فمجرد أن أفكر فيه يكاد الدم يقفز من عروقي. فكيف لي أن أحمله بين يدي؟! ليته لم يولد بالمرة.

تسمرت سوزي في مكانها وقلبها يعتصر حزنًا. ثم قالت بصوت متحمس وقوي:

لا تكفر بالله يا يانو، فدائمًا ما رزقنا بل ما هو طيب – ولنقمة واحدة حلت بنا نكفر به؟ لا، فهو قضاء الله وسوف نرضى بما قدره لنا.

كل ما رزقنا به من نعم لا أريده مئة مرة لو أن ما حدث لم يحدث. ماذا أخذت من أن عندي كل شيء وليس لدي ولد أتركه له.

نحن البشر لن نرضى أبدًا، لو تحققت أمنيتك هذه الآن وأخذ منك الله كل ما رزقك به من بيت وأموال وأطيان ومروج وجاه وصحة، ومقابل الطفل الذي تريده لن يبقك لك شيء من هذا ألن تكفر به؟ أنا متأكدة بأنك كنت ستتمنى لو يعيد لك ما أخذه وليكن ابنك كما هو اليوم. الناس تنظر دائمًا لما هو ليس في أيديهم، لا يضعون وزنا لما رزقهم الله به.

أسقط في يد يانو ولم ينبث بكلمة. كان على يقين بأن زوجته تقول الحقيقة، وأنها قرأت ما يدور في خاطره. لكنها أغضبته بكلماتها هذه. لم يتحمل أن تقوم امرأة يتلقينه درسًا في هذا الأمر بالذات. لقد هزت كبرياءه، فضلًا عن ما يجيش في نفسه من حزن. راح ينظر في أرجاء الغرفة بارتياب، ثم ظهرت على وجهه علامات القسوة فضرب الباب بعنف ورحل وهو ثائر وغاضب.

هناك في الحانة وجد ضالته – لأول مرة في حياته. لم يرجع إلى البيت إلا في ساعة متأخرة من الليل. لم تصدق زوجته عينيها – هل هذا ممكن! إنه ليس زوجها التي عرفته، ليس هو زوجها يانو. أخذت تتابع خطواته وهي تقبض أنفاسها. لكنه لم يعرها اهتمامًا، فلم يكن يهتم لأمر أحد. ألقى بجسده على مقعد عند الطاولة متعبًا، ثم بدأ يدمدم بكلام مبهم

وغامض. سقط في مكانه لكن لم يغلبه النعاس. تحرك الطفل في مهده وبدأ يبكي. أسرعت أمه نحوه وأخذت تغني له حتى يهدأ.

لماذا لا تنام؟ اسكت ونم! اتركيه يصرخ كما يشاء، حتى الصباح إذا أراد!

نم أنت يا يانو! لقد حل الليل.

أنا؟ أنا لا أرغب في النوم بعد. فأنا بخير، دعيني وشأني، وشأني...

واستمر يتحدث وهو بين اليقظة والنوم. أحد قدماه في عالم الحقيقة والأخرى تسير في عالم الخيال المليء بأحلام اليقظة. بدت وكأنها تسخر منه وهي تمتلئ غضبًا مما حل بالأسرة من لعنة وما آل إليه حال زوجها، ودوامه على تناول الكحول، فتركته يغرق في أوهامه التي يغيب فيها عقله.

أيقظه من أحلامه الجميلة صراخ الطفل الذي لم ينم اليوم جيدًا. هب يانو واقفا على قدميه، ثم توجه نحو زوجته وهمس في أذنيها بأمر مخيف، فصرخت فيه بذهول قائلة: أعوذ بالله – يانو! انصرف! انصرف! إياك أن تلمس الرضيع بيديك!

أخذ يانو الطفل من مهده وحمله بين زراعيه. أخذ ينظر إلية نظرة مليئة بالكراهية والقسوة والألم وكأنها سم قاتل. شعرت زوجته بالخطر، فهبت تنتزع الطفل من بين زراعيه. دار على قدميه حتى الطاولة وهو ينظر إليها نظرة كلها كراهية. أما هي فقد حملت الطفل وذهبت عند أختها وهي حافية القدمين وشعرها مكشوف.

أخذ يانو يتقلب على السرير ونام حتى الصباح. وعندما استيقظ لم يتذكر شيئًا مما حدث، لكن غياب زوجته والمهد الخالي الملقى على الأرض أعاد له ذاكرته. حزن لغياب زوجته والطفل، وانخرط في البكاء ينعى حظه. أسف على ما حدث، لكنه لم يذهب لإحضارها. هو نفسه لا يعرف ما الذي منعه من ذلك. ظل وحيدًا بدون شخص يرعاه، يطهو له الطعام ويحيك له الملابس. حزن شديد أصابه في وحدته هذه. فأغلق الباب وانصرف إلى حيث كان بالأمس، ينشد البهجة.

بقي على حاله هذا عام أو عامين. ثم اعتاد يانو هذه الحياة. يقضى معظم وقته في الحانة. بدد الكثير مما تركه له أبيه. لم يعد يهتم بمن يرثه بعد موته. لم يعد لديه أحد في القرية يشكو له حاله. قصد قبل دخول الشتاء قبوا لصنع الكحول. هناك أشبع حاجته كما شاء، وفي الشتاء اختفي من القبو، وانقطعت أخباره. ظهر في مدينة بست يسير هائمًا على وجهه حتى قضى نحبه من تناول الكحول.

أقامت سوزي عند أختها ترعى طفلها وتتكسب عيشها. صارت حياتها كأم وزوجة مُرّة. كانت تتجنب لقاء الناس بقدر ما تستطيع. ترى المهانة في كل مكان تذهب إليه. ولم ينقذها من عذابها سوى الموت. وبقى الطفل في رعاية خالته.

كانت خالته ميسورة الحال. قامت على رعايته كأمه، أدخلته المدرسة حيث تلقى الصبي تعليمه. بدا رغم جسد القبيح يمتلك كباقي الخلق روحًا مثلهم. كان هذا مصدر سعادة لخالته التي اهتمت به ومكافأة لها عن ما تقوم به.

2

بلغ أوندراش سن العشرين، بل تجاوزه قليلًا. لم يتحقق ما كانت تأمله خالته منذ صغره بأن يكتمل نموه مع مرور الزمن ويعوض ما فقده عند مولده. فعيوبه لم تتضاءل، بل أخذت تزداد عاما بعد عام، وتبرز أكثر فأكثر. كان جسمه شديد الضعف، هزيلًا. فلم يكد يتحمل عملًا أكثر من رعاية الإوز. كان عقله ينمو أبطأ من جسمه. لكن خياله كان واسعًا علي حساب عقله الطبيعي. كان يعالج كل الأمور كالأطفال. وكل ما يفعله يبدو كفعل الصغار. وحتى الآن كثير من الناس يعاملونه معاملة الأطفال. يعيش وحيدًا دون قلب يفهمه. قرنائه يتجنبوه منذ الصغر. أكثر أصدقاءه من الأطفال. فهو يشعر بالراحة بينهم لأنهم يفهمونه. يذهبون غالبًا وراءه وهو يرعى الإوز، ويلعبون معه عند جدول الماء، يضع الماء في تجاويف مصنوعة من لحاء الشجر متصلة بعصا من شجر الصفصاف، في طرفها شبكة من العصي الصغيرة. ثم تدور الطاحونة. وما أن ينجحوا في ذلك حتى يصفق ويقفز في الهواء معهم. يعرف الكثير من الحكايات المسلية. الأطفال يستمعون إليه بإنصات وانتباه وهذا ما يربطه بهم. هو سعيد بمملكته التي يحكمها. وكلما حكى لهم مزيد من حكاياته المسلية كلما ذاد حبهم له.

اليوم أعطي لنفسه راحة من اللعب. إنه وحيد، هذه التسلية مع الأطفال لا تسعده هو نفسه. هو سعيد وهو يستلقي هكذا على الحشائش الخضراء هائما بأفكاره بعيدًا. يرى نفسه مرتديًا ذي الفوارس، ويسير نحو قلعة وكأنه غراب. ينتصر على التنين، وتتحول القطة - الساكن الوحيد

للقلعة - إلى أميرة. أميرة، ترتمي في أحضانه وتعترف له بحب أبدي. إنه يبتسم، ولم لا؟ لماذا لا يمكنه أن يتطلع كغيرة إلى النعيم؟ إنه يبتسم. لا، هذه ليست ابتسامة، بل تكشيرة تزيد وجهه قبحًا. وقفت على وجهه ذبابة. ورغم أنه يشعر بها وهي تجوب وجهه. لا يطردها. يعتقد أنه يكفي أن يطوي جبينه ويرخيه. تتحرك الذبابة قليلًا، ثم تعود من جديد لتزعجه. أوندراش لا يشعر بشيء بل يواصل حلمه.

وقفت الذبابة على وجنته، وما أن شعر بها وهى تطن في شعره المتناثر على ذقنه ثارت ثائرته. فخبط براحة يده على وجنته ليغطيها. لكنه لم يمسك بالذبابة، بل طارت على الفور. أوندراش يحلم ويحلم ويغرق في أحلامه..

لا يعرف كم من الوقت يستلقي هكذا ويحلم. وفجأة استرعاه صوت خطوات خفيفة – لا تكاد تطأ الحشائش. أراد أوندراش أن يلقي نظرة ليرى من هذا، لكنه لا يريد أن يرفع رأسه. ربما يكون صبيا ما جاء ليلعب معه. كان يجب أن يبقى اليوم بالمنزل. أوندراش لن يلعب اليوم حتى لو كان هذا ابن العمدة. فالأميرة تبتسم له ابتسامه عذبة! وماذا يساوى اللعب أما هذه الابتسامة.

تقترب الأقدام منه شيئًا فشيئًا. فتح أوندراش عيناه قليلًا، وتظاهر بأنه ينام. رأى عبر فتحة عينيه الضيقة بمقدار خيط ملامح غير واضحة لجسم أكبر قليلًا من جسم الأطفال. مال عليه ونادى بصوت ناعم رقيق:

أوندراش – أوندراش!

فتح عينيه وأخذ يحملق. يا له من صوت - يا له من صوت! إنه لا يشبه حتى صوت الأميرة!

هل أنت سوزكا؟

أومأت برأسها - إنه رأس سوزكا بيجانوفا. رمش أوندراش بعينيه - بهره جمالها. فوجهها يشع نورا، بشرتها حمراء كالوردة على غصنها. عيناها زرقاوان وكأنهما قطعة من السماء، تنظران بشغف إليه. شفتاها الحمراوات تكشفان عن صفين من اللؤلؤ الأبيض. مرة أخرى خطرت على بال أوندراش صورة الأميرة. لكنها لم تكن أجمل منها، لا فرق بينهما سوى تلك النجوم المتناثرة على فستانها. وحتى هذا الفستان لا يختلف كثيرا عن فستان سوزكا. تزيد من سحرها تلك الخيوط المتدلية من منديل أحمر على رقبتها وأكمامها البيضاء المحلاة عند كتفها بمسند بارز. وزراعها الملفوف وكأنه ينبت من ثنيات أكمامها البيضاء.

نظر أوندراش إليها وعيناه جاحظتان وهو يعتقد أنه يقف عند قصر الغربان.

تجاهلت سوزكا ما تراه ثم قالت له برقة: انهض بسرعة وتناول طعامك!

نعم، نعم! الآن فقط أدرك أنها ليست الأميرة ولكنها سوزكا. جاءت، لا لكي ترتمي بين أحضانه وتصحبه إلى قلعة الغربان، بل لتحضر له الطعام. كان قد اتفق على أجر قرش واحد مقابل كل إوزة، وقرشان مقابل كل إوزة عجوز، على أن يتولى كل بيت بالتناوب إرسال الطعام له. إحضار الطعام اليوم من مسئولية عائلة بيجانوف. وها هي سوزكا جاءت لتحضر له الطعام.

هو جوعان على كل حال. انطفأ تألق وجه وهدأ، وصار كالقمر الذي غطته سحابة خفيفة. التقط الطبق وهو يتفحص ما به. لم يعجبه كثيرًا ما رآه. لماذا لم تأتي سوزكا فارغة اليدين وتفتح له ذراعيها كالأميرة؟ لماذا؟

ثم نظر إليها نظرة باهتة وقال بصوت بارد:

لما هذه العجلة؟

رفعت سوزكا معول حديدي في يدها وقالت:

أترى لماذا؟

أها! أنت ذاهبة... وهو كذلك

أخذ يتناول ملعقة وراء الأخرى، حتى صار الطبق فارغًا تمامًا. ركز كل اهتمامه على الطعام. لم ينظر إليها ولو مرة واحدة. كان من الواضح أنه كان لا يأكل بشكل طبيعي، بل بنهم شديد. ثم وضع الطبق الفارغ في الحقيبة وأعطاه إياه.

تفضلي! ها هو الطبق فارغ – ويمكن أن تنصرفِ الآن!

ثم مسح فمه في كمه.

لاحظت سوزكا تغييرا في سلوكه لم تستطيع تفسيره. فهو ينظر إليها ببرود، رغم أنها منذ قليل كادت تنصهر من حرارة نظرته. فأرادت أن تحل هذا اللغز. فدارت على كعبيها وقالت:

هل أنت غاضب مني؟ إن كان الطعام لم يعجبك فيجب أن تتسامح خاصة الآن ونحن في أوقات العمل.

الطعام! لقد أكلت حتى صل الطعام إلى هنا. ثم وضع إصبعه على حلقه.

كان من الواضح أنه لم يهتم لنوعية الطعام بل بكميته.

لكنك مازلت غاضبًا قليلًا.

أنا؟ إطلاقا – أنا لست غاضبًا

كان يبدوا أنه تردد قليلًا قبل أن يقول لها هذا.

شيء ما دفعها لمتابعة الحوار، فلم تكن راضية عما يحدث. لم تعرف السبب الذي جعله يغير من سلوكه. لم يعجبها أن هذا السافل لا يظهر لها الاحترام الكافي، بل يتجنبها ويتجاهلها.

حسنا! أنا سعيدة بأنك لست غاضبًا، فأنا لا أحب الشخص المتكبر الذي يمشي متجهما كالبرميل.

غضب أوندراش من كلامها هذا. فهي ليس أميرة. هي لا شيء. فرد على كلامها سريعا:

لا تنظرين إذن! أنا لا يعنيني هذا الأمر بالمرة. ولك أن تحبي ما تشائين.

زفرت سوزكا أنفاسها بصورة مصطنعة، وأخذت تنظر بعينيها الجميلتين إلى الأرض وهي ترسم بقدمها على التراب ثم قالت:

أنا أعرف ذلك – أنا أعرف. أنت مغرور كثيرًا – أنت حتى لا تنظر إليّ. لا أعرف السبب. أنت حتى لا تنظر إلى أحد وأنت عندنا في ساحة البيت تأخذ الإوز. لا أعرف...

بدأ أوندراش يفكر في كلامها وقال لنفسه: إنها هي الأميرة، نعم! هي الأميرة. ثم اقترب منها قائلًا:

هل يزعجك هذا الأمر؟ أيزعجك حقًا؟ ربما تنزعجين أكثر إذا تجاهلك يانو دوبرافوفي.

تطايرت من عينيها شرارة كراهية لراعي الإوز. ثم قالت بصوت حاد مختلط برعشة:

يانو؟ فليتجاهلني كما يشاء – فأنا لا أهتم لهذا الأمر على الإطلاق.

قال راعي الإوز بنصف فمه وهو يترقب رد فعلها:

هل تشاجرتما؟

حاولت سوزكا عبثًا أن ترد بصوت حاد، فقالت بصوت منخفض يملأه الحزن:

لقد انفصلنا عن بعضنا والى الأبد.

تنهدت بحزن خفي. لا حظ أوندراش هذا، فبدأت تدب في نفسه سعادة بأن الفتاة بدأت تفتح له قلبها شيئًا فشيئًا. فأخذ يتفحص وجهها ببراءة ثم قال:

دعكي منه! فهو لا يستحقك. ولن يجد مثلك طوال حياته حتى لو جاب العالم كله.

كان لكلامه ومديحه لها وقعا طيبًا في نفسها، ورغم أنه جاء من فم راعي الإوز. أيا كان القائل فالمهم هو ما يقوله. ليمتدحني من يشاء، المهم هو أن أسمع هذا المديح وهذا الثناء. أرادت أن يواصل ثناءه عليها وقالت:

أنت تقول هذا لأنني أقف أمامك الآن. وما أن أنصرف! هو أيضًا كان يقول لي هذا الكلام المعسول...

ثم تنهدت وعادت نغمة صوتها حزينة مرة أخرى.

لاحظ أوندراش أن قلبها جريح فرق لحالها:

أنت تتعذبين من أجله، دعكي منه!

أصاب بكلامه الجرح الذي بدأ يدمي:

كيف لا أتعذب وهو هجرني من أجل فتاة أخرى؟

احمرت وجنتاه. لقد وقع في شباكها. صاح قائلًا:

لا تخافي – أنا لن أترك! ألا تعرفين أنني ساعدتك أكثر من مرة في المدرسة عندما كنت لا تعرفين الإجابة؟ أنت الوحيدة التي ساعدتها. لذلك كنت أحسن طالبة في الفصل وكنت أحب دائمًا أن أراكي. وذات مرة تعرضت للضرب بسبب ذلك.

شعر أوندراش بنبضات قلبه تدق أسرع من أي وقت آخر. وشعر وكأن الشمس تصدر لهيبها عليه. أخذت الفتاة تبتسم له ابتسامة فاتنة أحدثت في جسده رعشة.

ألا تذكرين هذا؟ بعد ذلك بدأت تسلكين طريقًا آخر، وتتجاهلينني وكأنك لا تعرفينني. حزنت كثيرًا عندما بدأت ترافقين يانو دوبرافوفي. لكن الأمور أفضل الآن.

حققت سوزكا غرضها. لقد خضع راعي الاوز لإرادتها. لكنها أرادت أن تبتهج لانتصارها فواصلت الحديث وقالت:

وماذا سنفعل الآن؟

أندهش أوندراش لسؤالها، وكيف أنها لم تفهم ما يعنيه.

الآن؟ بعد أنتهي من رعاية الإوز سوف نتزوج. سنذهب إلى الكنيسة، ثم نعلن زواجنا. لا تشغلي بالك بمراسم الزواج. سوف أتكفل بكل شيء، وسيحسدنا الجميع على زواجنا هذا.

مرة أخرى غمرتها السعادة، واعتدل مزاجها من جديد. ظن أوندراش أن كلامه أعجبها. أما هى فأرادت أن تواصل عبثها معه فقالت:

وماذا عن الطعام؟ ماذا سنأكل؟

الطعام؟ سأقوم برعاية الإوز وسيكون عندنا ما يكفينا.

لكنك جنيت الكثير من رعاية الإوز. كم إوزة تخلفت اليوم؟

قال ثم وضع يده على صدره:

ولا واحدة، تخيلي! ولا واحدة.

وماذا عن إوزة عائلة فيالوفي؟ أين اختفت؟ فهم يتهمونك بأنك أضعتها وكذلك عائلة روبال تشكو منك.

استمع أوندراش لكلامها دون أن يعلق، ثم ابتسم ابتسامه خفيفة وقال:

إوزة عائلة فيلوفي! ذهبت إلى الجبل، وما كان يجب أن تفعل ذلك! كان يجب أن تتعقل! أما إوزة عائلة روبال فقد عادت إلى البيت. أنا متأكد من هذا. لقد رأيتها تزحف إلى هناك. ربما اختفت من ساحتهم. فهي كانت دائمة متمردة. بالتأكيد دخلت أحد البساتين وأصيبت هناك بالتسمم. والآن يلقون عليّ اللوم.

على كل حال سنجد شيء نأكله، لكن أين سنسكن؟

بالتأكيد عند خالتي، عندها حجرة كبيرة، سوف تعجبك بالتأكيد.

لكن – لكني لا أريد أن أسكن في بيوت الغرباء. أريد مسكنًا خاصًا بي.

حسنًا! سأبني.. بيتا صغيرًا لنا.

وماذا ستلبس في حفل الزواج.

ماذا سألبس؟ عندي شيئًا ألبسه.

ثم أخذ رعي الإوز يتأمل ملابسه القديمة التي لم تشبه حتى وهى جديدة ما يلبسه أهل القرية. بل كانت تشبه تلك التي يرتديها الصبية في سن العشرة سنوات. الأكثر من ذلك أن ألوانها مزركشة وبالية عند ركبتيه.

يجب أن ترتدي ملابس مثل باقي الشباب.

سوف تحيك لي خالتي ثيابًا بعد أنتهي من رعاية الإوز. فقد قالت لي أنها أيضا سوف تشتري لي معطف من الفرو.

لكن يجب أن يكون عندك أموال للتجارة، هأ، هأ، هأ!!!

ضحكت سوزكا من تردده وإرباكه بأسئلتها، ثم انصرفت.

سوزكا! انتظري! بعد غد السبت سأحضر لأخذ ريشة الفرح.

لا! بعد غد لا! سوف أقول لك متى فيما بعد. فالوقت ليس مناسبًا الآن.

رد عليها أوندراش وهو راضيًا:

حسنًا! حسنًا!

انصرفت سوزكا مسرعة يتابعها أوندراش بنظراته. أعجبته كثيرًا: ستصبح امرأة! وستكون سيدة بيت صالحة. لها مشية أفضل من الجندي. سنكون ثنائي جيد. أما دوبرافوفي فهو لا يستحقها. ستعلن موافقتها على الزواج مني.

لم يفكر طوال اليوم وحتى المساء سوى في الأميرة الحقيقية التي وجدها. لم يعد يفكر في القصر الغربان، لم تعد هناك حاجة إلى أن يذهب إليه.

3

كانت خالة راعي الإوز تسكن بيتًا صغيرًا وجميلًا في وسط القرية. كانت أرملة متدينة. تذهب بانتظام إلى الكنيسة كل أحد. أعطاها هذا مكانة عظيمة بين أهل القرية. كانت لا تقول ولا تفعل إلا كل ما هو صالح. كانت تساعد كل محتاج حتى من قوت يومها. كانت تتفحص كل شحاذ، فإذا رأت أنه قادر على العمل لا تعطيه شيئًا، بل تعنفه حتى ينصرف مهرولًا من ساحة بيتها. كانت سيدة ذات مبادئ. احتلت مكانة مرموقة بين كل نساء القرية. اعترف لها أهل القرية بالسلطة، وكانوا ويعملون لكلامها ألف حساب. أحترمها أهل القرية جميعًا، وأطلقوا عليها لقب الخالة.

غير أنها في بيتها لم تكن تستطيع أن تفعل ما تفعله في مكان آخر. كان أوندراش هدفًا للسانها الحاد. فكل ما تقوله له يذهب أدراج الرياح، عبثًا، وكأنها تحدث نفسها. فلم يذعن لها مطلقًا. فحالة اللامبالاة التي أصابته لم يؤثر فيها شيء على الإطلاق، لا الكلمة الطيبة أو لا الرديئة. لو كانت امرأة غيرها لكفت عن ذلك منذ زمن. لكن طبيعتها المثابرة جعلتها تقاوم وتحاول مرة بعد أخرى.

إن محاولة تغيير أوندراش عمل لا طائل منه، هو كمن من ينفخ في قربة مقطوعة. أوندراش ماخولا سيظل كما هو أوندراش ماخولا، لن يتغير حتى لو انطبقت السماء على الأرض.

لقد عادت الخالة لتوها من جمع الحصاد، فاستلقت من التعب تستريح عند الحائط. وهنا دخل أوندراش إلي ساحة المنزل تعلو وجهه ابتسامة عريضة. تبدو عليه ملامح الفقر والحرمان- حتى هذه الابتسامة لا تليق به. نظرت خالته إليه بفضول وهي تشعر أنه يحمل خبرًا سارًا:

آه لو تعرفي يا خالتي!

لو كنت أعرف، لما انتظرتك تخبرني.

نعم! سأخبركي.

استحثته قائلة:

نعم!

لف أوندراش يديه حول عنقها ثم حضنها كالأطفال. هنا ثارت مشاعرها، وفاض قلبها بحنان الأم ليدفئه. وبينما هو في أحضانها تذكرت أختها المسكينة التي أوصتها وهى في فراش الموت بابنها الوحيد المسكين... ترقرقت عيناها بالدموع، وأخذت تمرر يدها بلطف على شعره الغليظ. ومن جديد استحثته ليتحدث قائلة:

احكي إذن لي إذا كانت أخبارك جيدة.

بالتأكيد هى جيدة! سوف أتزوج.

ماذا دهاك من جديد؟ تتـ..زوج؟

أجابها مؤكدًا وكله ثقة:

نعم، أتزوج.

تتزوج من أيها الحزين؟

سوزكا بيجانوفيا

ماذا تقول؟ هل جننت؟ سوزكا بيجانوفيا؟ هكذا ببساطة: سوزكا بيجانوفيا؟ يا ابني إن الغجرية لا يمكن أن ترضى بك زوجًا، فما بال سوزكا بيجانوفيا. أم أنك أوهمت نفسك بهذا وأنت ترعى الإوز؟ لقد قلت لك ألا تنام هناك، ومن الأفضل أن تقرأ شيئًا من الإنجيل. سوزكا بيجانوفيا؟!

وهنا تغير حالها واختفت الرقة من كلامها. لكن أوندراش كرر كلامه مرة أخرى وقال:

اسمعي! سوزكا قالت أنها ستتزوجني.

لا يمكن أن تتزوجك إلا إذا كانت أصيبت بالجنون.

لقد قالت لي أننا سنتزوج، وبعد أن أنتهي من رعاية الإوز سيكون حفل الزواج.

نعم سيزوجها لك أبوها. أنا سأقتلك! لا تقل هذا الكلام لأحد في القرية، فلو عرف أحد بهذا الأمر لقطعوا لسانك على الفور

لكن سوزكا تريد...

لقد أصيب بالجنون لا شك في ذلك، فكر في الأمر مليا!: كيف تتزوج بك سوزكا بيجانوفيا؟ ابنة العائلة تتزوج من متسول، أجمل شابة في القرية تتزوج من شبح! انظر إلى نفسك! إن المتسولين أفضل منك.

لكني سأتغير. منذ اليوم!

ألا تعرف ممن ستتزوج؟ إنها مخطوبة لـ يانو دوبرافوفي، كان يساعدهم في الحصاد في الربيع الماضي وهو الآن يحصد معهم في الأرض. هل ستترك دوبرافوفي وتتزوجك أنت؟!

لقد انفصلا عن بعضهما، وقالت أنها لم تعد تحبه.

من قال لك هذه التفاهات؟ قل لي الحقيقة!

هي قالت لي هذا وهي تحضر لي الطعام في المرعى.

حقًا؟ كان من الأفضل أن تقول لك أن تخيط ملابسك الممزقة هذه، أيها الشاب. أعوز بالله، ألا تستحي وأنت ترتدي هذه الملابس. انظر إلى نفسك لترى كيف تبدو، من الأفضل لك أن تهتم بنفسك مثل باقي البشر.

انظري! سوف أشتري سروالاً وقميصًا جديدين. وستشترين لي في العيد قبعة، ثم...

اذهب إلى الغابة واصنع من لحاء الشجر نقودًا خشبية لتدفعها مقابل حياكة سروال وقميص جديدين، اتفقنا؟

لكنهم لن يقبلوا بهذه النقود، بل بتلك التي أجنيها من رعاية الإوز.

أنت؟ مستحيل أن تجني ولا مليمًا واحدًا من هذا العمل، لقد أنفقت كل ما جنيته. أما أنا، المخلوقة الشريرة، عليّ أن أكسو وأصنع الأحذية للشتاء.

سيكون عندي ملابس. سيحيكونها لي. لم أفقد يوما إوزة واحدة، إنهم يتهمونني ظلمًا.

لنفترض! أين ستعيشان؟ هل تتوهم أنك ستنتقل للعيش معها في بيتها ويدوسك بقدميه كل منهم هناك.

أبوها سيعطينا أرض أبني عليها بيت.

تبنيه من الطين أو الطمي.

لا، من الخشب، سيكون من الخشب.

أنت تعيش في الأوهام. ترعى الإوز وتحيك الملابس وتتزوج وتبني بيت. لو كنت تجيد العمل بيديك كما تجيد الكلام لكان كل هذا ممكنًا.

اشتري لي فقط الصوف لصناعة الملابس. وأنا سوف أغزله حتى الخريف إلى أن يحين الموعد.

يا ابني! حتى يحين هذا الموعد سيكون الصوف قد نما على الأغنام عشرة مرات، لا تقلق نفسك بهذا الأمر! لكن لا هزل في أمور كالزواج. لو سمعك أبوها سيقتلك في الحال. وحتى الشاب دوبرافوفي سيكسر عنقك.

أنا لا أمزح ولن أمزح في هذا الأمر. لقد قالت لي وسوف نتزوج.

اخرس يا قليل الدين! لا تجعل من نفسك أضحوكة. يكفي أنك تجعل من الآخرين أضحوكة. ادع ربك أن يرزقك العقل ويهديك للصواب.

تراجع أوندراش أمام خالته التي ذهبت على الفور إلى عائلة بيجانوف لتتحقق من الأمر.

حدقت السيدة بيجانوفا عينيها وهي ترى الخالة عندهم في المنزل:

يا للمفاجئة! لم تراك عندنا منذ زمن طويل! يجب أن نذبح ذبيحة. ما الذي جعلك تأتي لزيارتنا؟

هذا الصبي وما خطر على رأسه. إنه يريد أن يتزوج.

خبطت السيدة بيجانوفا بيدها على مئزرها من الدهشة وقالت:

آه، أحقا؟

واصلت الخالة حديثها قائلة:

وهذا المخلوق يدعي أنه سيتزوج من ابنتكم.

رفعت السيدة بيجانوفا يدها اليمنى، وخبطت بها على الخالة من دهشتها ثم قالت:

لا، غير معقول!

كما أقول لك! لقد كاد قلبي يتوقف أنا الأخرى. لم يتحدث قبل اليوم عن الزواج مطلقًا.

ربما أصيب بشيء. إن عقله ليس طبيعي، إنه مثل الأطفال.

صحيح، إنه لا يفكر بشكل طبيعي. لكن أحد ما أوقعه في هذا الشرك يقول أن ابنتك قالت له هذا.

هل هذا معقول؟

نعم، يقول أنها وعدته بالزواج وهي تعطيه الطعام وأن الفرح سيكون في الخريف.

ضحكت السيدة بيجانوفا ضحكة عالية وقالت:

ربما! ربما تفكر هي الأخرى في شيء، ربما!

رجاء أخبريها أن تتركه في حاله. فلن من أجني من هذا الأمر سوى المتاعب.

هذا صحيح، معك حق، إنه صغير ويهذي بكلام الأطفال، ويتخبط بدون وعي. أما ابنتي فهي تحب المزاح. إنها منذ صغرها لطيفة وفضولية. لن أسمح لها – لا سمح الله – أن تحرق نفسها بالنار. سوف أخبرها ألا تربك رأس هذا المسكين.

نعم، أرجوك! قولي لها هذا. ومن الأفضل ألا تلتقي به وسينسى هو الأمر.

ولم لا؟ بالتأكيد سينساه.

انصرفت كل منهما وهما على اتفاق تام. أخذ تثني كل منهما على الأخرى كيف أنها امرأة طيبة وعاقلة. والواقع أنهما كانتا كذلك.

4

أتخذ أوندراش ماخولا خطوات جادة نحو الزواج. في مساء نفس اليوم رتق الشق الموجود على ركبتيه حتى لا يكون لدى خالته ما تلومه عليه في اليوم التالي. أراد أن يأخذ الإوز في الميعاد المحدد من ساحات البيوت ويذهب به إلى المراعي. تناول طعامه عند العائلة التالية لعائلة بيجانوف. تعجبت النساء من دخوله البيت في الموعد. فغالبًا ما كان يأتي متأخرًا وقد برد الطعام. أما اليوم فلم يكد الطعام يطيب بعد.

ماذا دهاك يا ولدي؟ تبدو وكأن استيقظت اليوم في موعدك. تبدو وكأنك لم تتناول عشاؤك بالأمس. من المؤكد أنك خجلت أن تأكل كثيرا أمام سوزكا.

ابتسم لها أوندراش عريضة تكشف عما في قلبه ومعدته. وأسعده كثيرا عندما قالت له:

يا أوندراش آن الأوان أن تبحث لك عن زوجة، العمر يمر، فافعل شيء وأنت مازالت صغيرا. وحان الوقت لتحمل المسؤولية.

رد عليها بحماس كبير:

عندك حق، عندك حق، بالفعل بدأت خطوات في هذا الأمر.

معقول! أنت تمزح! وستدعوني لحضور الفرح بالتأكيد، أريد أن أشاركك الفرحة.

لكن أوندراش لم يعدها بشيء. فلو قبل دعوه كل من يريد الحضور لأصبح عددهم كبير جدًا. نظر إلى المطبخ ثم ظهرت على وجهه علامات الغضب. فقد رأى هناك حلة البطاطس وهي على وشك أن تفور وبدأت زبدها يظهر.

أليس لديك شيء أتناوله؟

ولم العجلة؟ مازال أمامك ساعتان. فها هو الزبد بدأ يظهر، فانتظر حتى يكتمل نضجها.

ألم يتبق عندكم شيئًا من طعام الأمس؟ فأنا سآكله حتى ولو بارد.

آه، حتى تذهب وتقول أننا قدمنا لك طعامًا باردًا! أنا لا أعرف ما الذي حدث لك اليوم حتى تتعجل إلى هذه الدرجة.

أريد أن أذهب لرعاية الإوز في المرعى.

الوقت مازال مبكرًا، حتى العجول لم تخرج إلى المرعى بعد. أم أنك تريد أن تذهب إلى المرعى قبلها؟

جلس أوندراش ينتظر على أحر من الجمر. بعد لحظات - بدأ يتخيل نفسه بعد عام – أحضروا له البطاطس باللبن. وهو الطعام المفضل لديه. لكنه لا يعجبه كثيرًا الآن. فأخذ يقذف الطعام في فمه على عجلة بكميات كبيرة، ثم انصرف ليرعى الإوز هو مازال يكمل طعامه.

إن رعاية الإوز في المرعى ليست أمرًا سهلًا. فهذا العمل يتطلب نشاطًا كبيرًا، تمامًا مثل قيادة الجيش. يعرف أوندراش جميع حيل وخبايا مهنته. فهو على دراية بكل ما يدور في عقل الإوز. يعلق قبعته على عصا طويل تجعل له في نفوس الإوز مهابة. لحسن الحظ هذه الخدعة تدخل عليهم، وإلا لما استطاع أحد السيطرة عليهم. فرغم خوفهم من قبعة أوندراش فإن صراخهم لا ينتهي. فهذه الإوزة العجوز تزعق وتنادي على صغارها الذين اختفوا في هذا الهرج والمرج. وهناك هؤلاء الصغار يبكون وهم يشعرون بأنهم أيتام بين باقي الإوز الغريب. على جانب آخر تضرب إحدى الإوزات العجوز الأخرى لأنها اقتربت من سرب غير سربها. وهكذا يستمر الحال. ينتقل صراخ الإوز في كل أنحاء القرية. تظهر عربة ما وعليه أن يوقفها، لأن الإوز لا يتراجع وقد ينتهي به الحال تحت عجلاتها. في هذه الحالة يقوم أوندراش بحثهم على الصياح: بط بط بط! هاو هاو هاو! مااااء! وهو يقلد جميع أصوات الحيوانات. ثم يسير خلفهم وهو يصفر بفمه...

لكن تأثير هذه الأصوات ينحصر على مسافة قصيرة أمام راعي الإوز حيث تهرول الإوزات أمامه، أما تلك التي على جانب السرب فتكاد تقف، وما أن يسرع إليها حتى تقف المجموعة الأخرى وقد شعرت بغيابه، ثم تبدأ في العراك، فينتقل من يمين السرب إلى شماله وهكذا يستمر بلا نهاية.

إن اختلاط أصوات الإوز بأصوات البشر يثير أعصابه. فما أن يمر السرب بجوار شخص ما حتى يجن جنونه، ويشعر بطنين في أذنيه. إلا أن هذا لا يوهن من عزيمته. فيفعل ما في وسعه حتى يقودهم عبر البساتين

والممرات. وعندما يشعر الإوز باقترابه من سور الساحة يحاول الاختباء حتى لا تراه صاحبته.

فهم حتى لا يتحسسون رائحة المكان، ويتظاهرون بغير طبيعتهم. وما أن يمر بالسرب وقد ساد الهدوء حتى يخرجون بحذر من مسكنهم ثم يذهبون إلى مكان يختبئون فيه. من الواضح أنهم لا يحبون عصا أوندراش.

وصل سرب الإوز بيت عائلة بيجانوف. أخذ أوندراش ينتظر من سيحضر له الإوز. لكنه لا يرى أحدًا، ولا يرى الإوز. فدخل إلى ساحة البيت وهو يتفحص أرجاءها. الساحة خالية إلا من صاحبة المنزل التي تبحث في كل مكان.

اللعنه! لا خبر لهم في البيت.

أين يختبئون!

بدأ أوندراش يساعدها في البحث عنهم. نظر في الحظيرة فلم يجدهم. فدخل إليها وأخذ ينظر في أحد أركانها حتى وجدهم مختبئين هناك في إحدى الأقفاص الصغيرة.

بط بط بط!!!!

خرجت الإوز من مخبأها، وانطلقت عبر الحظيرة هى تصدر ضجيجًا عاليًا. وعقابًا على ما فعلوه اصطدمت كل منهم وهى تقفز بعتبة الحظيرة في عنقها، ولم يتمكنوا من الطيران في الهواء لهوًا ومرحًا.

في طريقه كان أوندراش لديه ما يفعله حتى يجمع سرب الإوز المتبعثر هنا وهناك. لم يألو جهدًا في المرج ولم يهدأ. وبينما كان الإوز يرعى ذهب أوندراش إلى جبل قريب يبحث عن بعض الأغصان الجافة. وجد هناك أيكة وعديد من شجيرات التنوب الجافة. سحب سكين من معطفه كان معلقًا في حبل معقود في فتحه زر من أزرار المعطف، ثم مرر إبهامه عدة مرات على نصله. ظهرت على وجهه علامات القسوة. يبدوا راضيًا عن حدة السكين. أخذ يكشط الغصن بهمة ويهذبه. وسرعان ما تجمعت أمامه كومة كبيرة من هذه الأغصان. نزع عنها اللحاء، وصار الغصن الجاف مهذبًا وصالحًا لأن يكون عصًا للطهي.

هكذا مر الوقت والعرق يتصبب من جبينه على هيئة قطرات، تتساقط وتسيل على وجنتيه حتى تصل إلى شعر ذقنه المتناثر. لكنه لم يهتم للأمر. واصل عمله جاهدًا حتى يحقق ما خطط له في الليل وهو على فراشه. ولم يشعر حتى بالمرأة وهي تقف خلفه وتحمل له الطعام.

لا تكاد تراني من كثرة إنشغالك. ماذا تصنع؟

أنا...

لم يرد أن يفصح عن سره.

يا إلهي!! كل هذه العصي! من أين لك بهذا كله؟! أنا في حاجة إلى واحدة منها وستعطيني واحدة بالتأكيد.

تفضلي!!

كم هي فعلًا عصى حقيقية. انظر كيف هذبها وأعدها على نحو جيد!

ثم أخذتها المرأة بيدها وبدأت تضرب بها في الهواء.

ماذا تطلب مقابل هذه العصا؟ أنت لست في حاجة إلى الدقيق طالما تأكل في البيوت.

أعطيني بعض الصوف، الكثير من الصوف، بل كل ما تستطيعين.

وماذا ستفعل به؟

ماذا سأفعل به؟ سأصنع سروالاً.

آها! أتريد كسوة جديدة. أنا موافقة. لتحضر في المساء وسأعطيك ما تريد.

في المساء، وما أن بلغ منتصف القرية حتى وزع كل ما لديه من عصي. كان يتأبط بدلًا منها حزمة كبيرة من الصوف الأبيض التي أعطتها له سيدات البيوت. كانت النساء سعيدة وهي تراه يجمع شيئًا ذو فائدة. بقيت لديه عصا واحدة لم يرد أن يعطيها لأحد. ألح الجميع في طلبها، لكنه كان يرفض بإصرار. ووعدهم بأن يحمل لهم في الغد الكثير منها، فكفوا عنه.

كانت هذه العصا الأخيرة أجملهم على الإطلاق. قام أوندراش بتزيينها على أكمل وجه. وعندما وصل إلى بيت آل بيجانوف دخل عندهم.

ابتسمت لهم السيدة – حماته المقبلة وقالت:

ماذا تحمل لنا؟ ما هذا؟

عصا للطهي، قد لاحظت أنكم تحتاجون إليها... أليس كذلك؟

بالتأكيد! أنا في حاجة اليها. حسنًا! ماذا تريد مقابلها؟

لا شيء.

دعك من هذا! فنحن نصلى لله وننتظر الأجر.

أسرعت داخل المستودع لتحضر له قطعة كبيرة من الحم المملح. وعندما خرجت من المستودع لم تجده في الغرفة، ووجدت العصا على الطاولة.

ثبتتها السيدة على الحمالة التي خصصتها لأدوات المائدة وهي تبتسم.

وبعد قليل عادت كل أفراد عائلة بيجانوف إلى المنزل، يتقدمهم السيد بيجان.

نادت السيدة على ابنتها وقالت:

أنت أيتها الفتاه! أنا لا أعرف ماذا يجري، لكن راعي الاوز يدور حول منزلنا.

بهت وجه الفتاة وطرفت بعينيها وبدت مضطربة. لكن فضولها دفعها للسؤال:

ماذا؟

في الصباح جاء بنفسه لجمع الإوز من الساحة وهو ما لم يفعله لأحد قط. والآن أحضر لنا عصا ولم يطلب شيئًا مقابلها. وبالأمس جاءت خالته

لتشكو من أنه قد أصابه الجنون، ويريد أن يتزوج بأي طريقة، وقالت أنه يفكر بك.

قالت الفتاة وهي تخرج من المطبخ:

غبي! مجنون!

انشغلت الأم بالطبخ وهي تقول:

- فتاة جيدة، الكل يطلبها. كل الشباب يقف على بابها ويتسابقون لطلب ودها. الحمد الله.

5

الوقت يمر سريعًا كالهواء. لكن ماخولا لا يمكن أن يقول ذلك، فهو بطيء جدًا، ينتظر مرور اليوم بفارغ الصبر. يقضي وقته في العمل ليجعله قصيرًا. كل شيء وكل ساعة تمر وكأنها عام. ولما لا؟ فهو على موعد مع السعادة، ابتسمت له الحياة مرة واحدة: جني الحصاد وملابس جديدة وفي النهاية – عقد قرانه.

ينتظر بفارغ من الصبر موسم الحصاد، لكن لا بأس في ذلك، فلينتظر. لم يفقد سوى هاتين الإوزتين. ومنذ أن التقى بسوزكا لم يفقد إوزة واحدة - وهذا أمر جيد

الملابس ستكون جاهزة عما قريب. على الأقل انتهى من غزل خيوط الصوف ولفها على البكرات، وقريبًا سيحملها إلى النول والباقي سيكون سريعًا. عندما يفكر أن ارتداء ملابس جديدة ليس بالصعوبة التي تخيلها تزداد سعادته. صنع بعض العصي، وعلى مدى أسبوع صار عنده الكثير من الصوف الأبيض والأسود. قريبًا سيكون عنده ملابس جديدة. عنده الآن ثلاثة أقفاص صنعها من جذور شجر العرر وسيحصل مقابلها على بعض الأموال، فمثل هذه الأقفاص تعيش مدة طويلة. سيحصل على الملابس الجديدة، ولن تبقى بعدها سوى خطوات قليلة نحو الزواج.

أخيرًا! سيكون عندي زوجة وكل ما أريد. إن عائلة بيجانوف تسعد برؤيتي، ولما لا؟ ساعدتهم في العثور على الإوز وأعطيتهم عصا. والآن...

وهنا تغيرت ملامح وجهه وكاد صوته يختفي من السعادة واختنق حلقه:

الآن سأعطيهم هدية مختلفة. ربما أتمكن من إعدادها عندما يحل المساء. هكذا سأجعل الشاب دوبرافوفي لا يساوي شيء! وسوف يظل يتذكر هذا مدى الحياة!

ثم خطر له شيئًا هاما، شيئًا أصابه بالخوف:

لكن يجب أن ألتقي بها في أقرب وقت، فنحن لم نتقابل منذ ذلك اليوم. الريشة! لقد وعدتني بها! الريشة! يجب أن تعطيني الريشة. يجب أن يكون عندي ثياب. لا يمكن أن أحمل الريشة على هذه القبعة. يجب أن تشتري لي خالتي قبعة جديدة. على كل حال القفص جاهز، فعندي على

الأقل ما أتعلل به لزيارتي لهم. المهم أن أجدها في المنزل. فهى لا تتواجد في المنزل باستمرار. يجب أن أشتري لها وشاح أو شال!

ذهب قبل المغيب إلى بيت عائلة بيجانوف وهو يحمل القفص الذي أعده. أخذ ينظر في أرجاء المنزل فلم يرى هناك سوى أمها:

هل تحمل لنا شيئًا آخر؟

نعم!

هذا القفص سنحتاجه عند جمع البطاطس. سيفيدنا في نقل البطاطس الكبيرة، بإمكانك صناعة قفص آخر لنقل البطاطس الصغيرة. فكل أقفاصنا للأسف تهالكت.

وأخذت تبحث في أحد أركان المنزل عن شيئًا ما. وبعد لحظات سحبت حزمة ما. توقع أوندراش ما تحمله في هذه الحزمة. وهنا أخذ قبعته وانصرف تمام كما فعل عندما أحضر العصا. لكن السيدة اعترضت طريقه قائلة:

لا، لا! لا يمكن أن أقبل بهذا الأمر. بالتأكيد تعبت كثيرًا في صنع هذا القفص، لا يمكن أن آخذه بدون مقابل.

ثم مدت يدها لتعطيه شيئا أبيض اللون – بعض النقود.

وضع أوندراش يديه في جيوبه كي لا يأخذها وهز جسمه رافضا أن يأخذها.

مد يدك وخذها! لا تغضبني!

ثم تقدمت نحوه لتعطيه النقود لكنه أخذ يقاوم حتى لا تقترب منه.

ماذا حدث له؟ كل يوم يأتي ويحضر شيئًا ما، ويرفض المقابل. مد يدك وخذ النقود وانصرف!

نظر أوندراش إليها نظرة مباشرة واضحة كشفت عن حقيقة ما بداخله وأكدت ما قالته خالته. لقد صدق أوندراش الفتاة، لقد صدق كلامها.

أرادت السيدة أن تتخلص من هذه النظرة فواصلت حديثها:

لماذا لا تريد أخذ النقود؟

نظر إليها وصاح بصوت متحمس قائلًا:

لن أشعر بالكرامة إذا أخذتها.

وأنا سأشعر بالكرامة؟ أنا سأشعر بالكرامة؟ طالما لا تريد النقود فأنا أيضًا لن أقبل قفصك هذا. فمن ذا الذي يقبل صدقة من متسول؟!

رد أوندراش بصوته المتحمس قائلًا:

أنا لست متسولًا. مازال عندي خمسة أقفاص أخرى وسوف أبيعها ولن آخذ منكم أية مقابل.

لماذا؟

نظر وهو يتأمل وجهها قائلًا:

هكذا.

بدا عليها الاضطراب وخافت من مواصلة الحديث حتى لا يفقد الثقة التي بدت على وجهه اليوم، لكنها استحثته بلطف قائلة:

قل لي ماذا تقصد بكلامك هذا.

حسنا، كان يجب أن أساعدكم في الأعمال المختلفة، ولكن لم أستطع لضيق الوقت.

تساعدنا؟ أها...!

انظري! كل شاب يساعد أهل زوجته، ويجب أن أفعل ذلك أنا أيضًا.. لكن كما قلت لك...

نظرت السيدة إليه نظرة استخفاف وابتسمت قائلة:

يا زوج ابنتي العزيز! من طلب منك ذلك؟

لم يفهم أوندراش أنها تسخر منه. وأخذ ينظر إليها بثقة. وتغيرت قسمات وجهه بالكامل. توردت ملامح وجهه الغريبة. سيل من المشاعر، الحب والسعادة جعل شفته الممتلئة ترتعش.

أسفت السيدة لحاله. لكن ليس ذنبه أنه ولد هكذا. كفاه ما ناله من سوء قدره – لا يجب أن تضيف إليه مزيد من الآلام. تحسست برقة شعره الصلب وقالت:

ومن قال لك يا ابني أنك ستكون زوجًا لابنتي؟

سحب شفتاه القبيحة وقال:

من؟

إنحبس صوته وهو يشعر بالسعادة الغامرة ثم قال وهو يجاهد نفسه:

سوزكا

هزت السيدة رأسها وكأنها توافقه. أرادت أن تشرح له الأمر لكنها لم تستطع، وقالت لنفسها:

لن أفسد عليه سعادته، هذا المسكين الأبله. لكن يجب أن أبلغ هذه الفتاة ما سببته من متاعب.

تدبرت الأمر بسرعة واهتدت إلى رد تنهى به الموقف ثم قالت له بصوت هادئ:

اذهب يا ابني إلى بيتك ولا تقل لأحد أنها قالت لك...

لا، لن أخبر أحد على الإطلاق بالأمر. عمتي تعلم بالأمر، لكنها لن تخبر أحدًا.

ثم انصرف راعي الإوز عائدًا إلى بيته وهو سعيد.

انزعجت السيدة بيجانوفا بشدة من هذا الأمر. وبدت قلقة، وأصابها الهم والحزن. هذا المسخ يتبع ابنتها في كل مكان تذهب إليه وعلى وجهه علامات الحب والغرام. ذهبت تتفقد مزرعتها وتحسنت حالتها، على الأقل هنا تنسى الهموم والمتاعب.

عند المساء وبعد أن انصرف العاملون سألت السيدة سوزكا قائلة:

لقد أوقعت نفسك في مشكلة. لا أعرف كيف ستحلينها.

بهت وجه الفتاة وكأنها مسكت متلبسة في أمر ما فقالت باقتضاب:

ماذا تعنين؟

راعي الإوز هذا.

استدارات سوزكا على كعبها، ثم هزت كتفها قائلة:

آها...!

تابعت أمها قائلة:

أتعتقدين أن هذا الأمر مزحة؟ لا أعرف كيف ستتخلصين منه. لقد مسه الجنون. فقط قولي لي ماذا كان بينكما. من الضروري أن شيئًا ما حدث بينكما.

نظرت الفتاة إلى نار الموقد وشردت بفكرها وهي تحملق في النار. استفاقت بعد لحظة ثم قالت لأمها:

لا شيء، لم يكن بيننا أي شيء.

هذا أمر غير معقول، أنا لا أصدقك! فهو لا يفعل ما يفعله من لا شيء. لقد تغير حاله تمامًا. وأنا أرثي لحاله أكثر من أي وقت مضى.

لم تكن السيدة تكذب. كان يبدوا عليها أنها تعني ما تقوله. وانسابت الدموع على وجنتيها. هنا انقبض قلب سوزكا، الآن فقط بدأت تعي حجم ما فعلته.

لكن صدقيني يا أمي، ليس هناك شيء يذكر على الإطلاق. ذهبت لأعطيه الطعام وتبادلنا بعض الكلمات. هذا المجنون كان يجب أن يعرف أن الأمر كان مجرد مزحة.

شبكت أمها يديها في بعضها ثم قالت:

أيتها الطفلة التعيسة، ماذا فعلت؟ ستصبح سيرتك على كل لسان بدون داع. سيعتبرك أهل البلد كاذبة ومضللة. وهل نحن في حاجة إلى هذا؟!

تأثرت سوزكا كثيرا بما سمعته. اضطرب حالها وانتابها شعور خفي بالحزن. لقد أسفت من قبل على هذه الخطوة الطائشة، والآن تشعر بالمزيد من الخوف وهي ترى أمها على هذه الحالة. فأخذت هي الأخرى تشبك يديها وتلوم نفسها وتتأسى كأمها لكن سرًا. كانت تخاف من أبيها الذي يجيد حل مثل هذه الأزمات بسرعة:

لكني لم أقل له سوى...

ما تعنين؟ ألم تقولي له أنك تحبينه؟

هزت سوزكا رأسها معترضة.

وأنك ستتزوجين منه؟

لم أقل له شيئًا من هذا، بل كنت أشتكي له.

تشتكين له؟! ومما كنت تشتكين له؟ هل هو أخوك أو أبوك؟ وممن كنت تشتكين له؟

من يانو، من أنه هجرني.

وهل هذا صحيح؟ هل فعلا هجرك؟

كنا تشاجرنا في المساء ثم تصالحنا بعد ذلك.

آها... ! مما تشتكين إذن؟ مما تشتكين؟

هذا صحيح! لماذا الشكوى. أنا آسفة على ما فعلت. ليتني خرست ولم أقل ما قلت. لكنه كان ينظر إليّ نظرة غريبة عندما رآني وأنا أحمل له الطعام. لم يوجه لي كلمة واحدة وكأننا لسنا من قرية واحدة. انزعجت من هذا وأردت فقط أن أقول له شيئًا فاشتكيت له يانو. هذا كل ما في الأمر.

ليكن! لقد وقع الأمر وما حدث هو شيء سيئ. خوفي هو من أن اسمك ستتناقله الألسن. هذا ما أخافه. تخيلي لو أن أبيك...

لم تكمل أمها حديثها. فلم يكن حتى ضروريًا. فما أن سمعت الفتاة اسم أبيها حتى تجمدت في مكانها. تخيلته وجهه الصارم وهو يتفحصها وهو يعاقبها على ما ارتكبته من ذنب. فكلمة واحدة منه يهتز لها البيت بأكمله بدأ من زوجته وحتى عصا تقليب الطعام.

لكنه لن يعرف بالأمر. فمن سيخبره؟

ابنتي العزيزة! لا تأمني لغدر الناس. يكفي أن يذكر الأمر أمامه أحد الأوغاد. عندها لا أعرف أين سأذهب. وهل تعتقدين أن يانو سيسكت؟ فهو وأبوك كرجل واحد، ولن يسكت عن الأمر.

أخذت الفتاة تعصر يديها المتشابكتين وهي في ذهول صامت. لم تعد قادرة علي التفكير وأسقط في يدها. فهى لا تعتبر راعي الإوز سوي شخص بائس وشبح مخيف. أحدقت نظرها على أمها في ذهول وقالت:

ما هو العمل؟

قالت أمها:

صحيح! ماذا سنفعل؟ من الأفضل أن نعجل بالزواج.

التقطت الفتاة الفكرة وقالت:

نعم، من الأفضل لو عجلنا بالزواج.

لكننا لم نشتري شيئًا بعد، ليس عندك مفروشات ولا حتى ثياب. لقد فاتنا سوق ياكوب وليس أمامنا سوى أن ننتظر سوق جالا. وإلى أن يحيكونها ويعدونها – يا إلهي.

كما تريدين.. لكن فستان الفرح ليس ضروريًا. يكفي أن يتم الفرح في أحد ثياب المناسبات. فهي جيدة وعندي منها الكثير ولن يكتشف أحد أنه ثوب المناسبات. أما مفروشات الأغطية فيمكن أن تنتظر إلى ما بعد الفرح. ويكفي واحدة منها الآن والباقي فيما بعد. فلا يهمني إن كنت سأنام على صندوق أم في سرير وثير.

هذا صحيح، لكن حتى القبعات الضرورية غير جاهزة. أنا أنتظر البائع كل يوم ولم يأتي حتى الآن. لكن أسوأ ما في الأمر هو أبوك!

لماذا؟

لقد اتفقنا أن الزواج سيكون قبل العيد بأسبوع. ألا تعتقدين أنه لن يسال عن السبب عندما سنعجل بالزواج الآن؟ إن إقناعه ليس أمرًا سهلًا.

ولم لا؟

لأنه عندما يقول شيئًا لا يغير أحدا على وجه الأرض.

لكننا لن نقول له هذا بأنفسنا – بل يانو

عندك حق يا ابنتي. فليخبره هو بالأمر، وليدّعى أن لم يعد يستطيع العيش بدون زوجة وهو يجمع البطاطس، وأنه لم يكد يتحمل الحياة بدونها في موسم الحصاد. هذا أكثر شيء يجعله يقتنع بالأمر. وعليك أن تخبري يانو أن يلح على أبيك في الأمر، ربما ينتهي كل شيء على خير.

6

في يوم الأحد وبعد انتهاء الصلاة لم يكن أحد يتحدث في القرية سوي عن إعلان زواج يانو دوبرافوفي من سوزكا بيجانوفيا. لم يفاجأ سكان القرية بإعلان زواج مثل هذا الإعلان من قبل. وهذا أمر مفهوم. فقد كانت الأخبار ترددت بأن الزواج سيكون في العيد، بعد انتهاء الأعمال. أما الآن وفجأة فها هو إعلان زواج في منتصف الصيف وعلى غفلة وبدون أية مقدمات. فحتى عائلة دوبرافوفي لم تكن ترغب في التعجيل بالزواج، كانوا

دائما يؤجلونه قد المستطاع. وقد سبق أن قال السيد بيجان أن كل شيء سيكون في العيد. والآن إعلان الزواج! فمن يقف وراء كل هذا! بالتأكيد الشاب يانو، لا أحد غيره. يقول أنه يحتاج لها في موسم جمع البطاطس. ليصدقه من يصدقه! فقد تحمل موسم الحصاد بدونها، والآن لا يمكنه الاستغناء عنها في موسم جمع البطاطس؟! من سيصدقه؟

أصاب النساء حزن كبير. ليس بسبب العجلة، بل بسبب الغموض – الغموض حول الأمر. فالنساء ترغبن في الوضوح، ومعروف عنهن سعيهن إلى حل الألغاز. أكثر ما يرهقهن هو غزل النسيج. أنهن تسعين إلى حل كل الألغاز كحلهم لعقد خيوط النسيج. وما أن تظهر لهن عقدة حتى يسعين إلى حلها. وإذا لم تتمكن من حلها تقطعنها وتواصلن العمل. وهذه حقيقة، فسرعان ما يبتدئن في فك الأطراف الرديئة حتى تظهر لهن عقدة جديدة. هذا الأمر لا يعني لهن شيئًا على الإطلاق. المهم هو أن لديهن ما ينشغلن به.

قد توصلن إلى حقيقة الأمر- وهنا صمتن جميعا. لم يتحدثن عن الأمر علنا بل في جلساتهن الثنائية أو الثلاثية يتهامسن حول الأمر. شعرت عائلة بيجانوف بأن شيء ما يدور. لم تسلم سوزكا من النظرات المتسائلة التي تطاردها في كل مكان. كانت تخجل حتى من نفسها. كانت أمها تلاحظ ذلك كله. ترى في كل خطوة تخطوها امرأة تنظر إليها وكأنها تسأل:

هل ستحمل العروس إكليلًا من الزهور أم لا؟

كانت كثير من الأمور غامضة حتى على أبيها: نظرات النساء الحزينة والمرتبكة. حتى هذا الإعلان أصابه بالحزن. فطالما استطاعت عائلة

دوبرافوفي الانتظار هذه المدة منذ عيد الكرنفال، فلماذا لا تنتظر عدة أسابيع أخرى. لم يكن يحب أن يشغل نفسه بمثل هذه الأمور. كل ما يشغله هو تجهيز مهر الفتاة، أما باقي الأمور فهي من شئون النساء وليعالجن مشاكلهم بأنفسهن...

لم يعرف راعي الإوز أوندراس شيئًا عن أمر إعلان الزواج. فلم يكن له من يخبره بالأمر. وكل من أحضر له الطعام التزم الصمت ولم يبلغه بالأمر. لو كانت جارته أخبرته بما جرى بالأمس لكانت معجزة. فلماذا ترهق نفسها ولسانها؟ لا أحد يتحدث معه. أقصى ما يفعلونه هو أن يطلبوا منه عصا لطهي الطعام أو ما شابه. وهو بدوره لا ينزل إلى القرية، ليس هناك سبب يدعوه للذهاب إلى هناك. لم يكن يستطيع الذهاب بدون سبب، فلم يكن له حاجة ليقضيها عندهم. لم يلتقي بسوزكا، فهي دائما تجلس في المنزل، ولا تحب السير في طرقات القرية. لم تسمع خالته أيضًا بالخبر. كانت سعيدة لأنه بدأ ينساها.

أما ماخولا فقد كان قلقا. شيء من الحزن يجيش في صدره وجعله يذهب ليبادلها بعض الكلمات، ولو للحظة. أم يذهب إلى عائلة بيجانوف؟ هكذا بدون مبرر؟ فماذا سيقول لهم إذا سألوه:

ماذا تحمل لنا؟

عصا الطعام عندهم، وكذلك القفص. يجب أن أحضر لهم قفصًا آخر، لكني لم أصنعه بعد. وإذا ذهبت الآن فسيظنون أنني جئت لأطلب ثمن عصا الطعام. لكنه يجب أن يذهب ليخبر سوزكا أن السروال

سيرسله إلى صانع الملابس هذا الأسبوع. لكن يجب أن يحمل لها شيئا. كيف يذهب.. كيف؟

ومع حلول الظلام تملكه القلق. لم يشعر من قبل برغبة في الذهاب إلى عائلة بيجانوف كاليوم. إنه ليدفع نصف سرب الإوز ثمنا لمن يدله على حيلة يذهب بها إليهم. أحتار في أمره، وأخذ يطوف في المكان ذهابًا وإيابًا، تارة يفكر في سوزكا، وتارة أخرى يفكر في الثياب والحصاد. تجوب الأفكار برأسه كسحابه الصيف أثناء العاصفة.

ومع اقتراب الشمس من المغيب اهتدى أخيرًا إلي الحل. وهنا انفرجت أساريره، وأخذ يضرب في الهواء بيده. من رآه سيعتقد أنه قد أصابه الجنون. اضطربت الإوز عندما شعرت بحركاته الغريبة، ثم تجمعت حول بعضها وكأن نسر يحوم فوقها. زاد هذا من سروره. أخذ ينظر هنا وهناك وكأنه يبحث عن شيء ما. في وسط سرب الإوز توجد مجموعة إوز صغيرة. توجه أوندراش نحوها مباشرة. أخذ الإوز يفسح له طريقًا، ثم ألقى معطفه الذي يحمله تحت إبطه على سرب الإوز الصغير. أخذ الإوزات الأخرى تجري بعيدًا، ولم يعد سوى ثلاث إوزات عجوز، انطوت تحت المعطف وأخذت تزعق وهى تنشر جناحيها في الهواء، ثم هربت مرة أخرى. أخذ يلقي بمعطفه يمينًا وشمالًا. تطل من تحت المعطف رأس إوزة صغير من خلال فتحة في ظهر المعطف، فهمت ما يحدث وهى ترى يد راعي الإوز تمسك بالمعطف، لكنها لم تستطيع أن تتحرك. وعلى الفور تأبط راعي الإوز معطفه:

لقد أمسكت بك! لا تخافي – لن أقتلك.

أخذ يحسس على ظهرها، لكن الإوزة عضته بمنقارها المدبب في يده.

لا تخافي... لن أؤذيك.

ثم جلس على الأرض ووضع الإوزة في حِجره وضمها بيده اليسرى. كان في معطفه ربطة خيط فكها، ثم ربط الإوزة من رجلها بأحد أطراف الخيط.

لا تخافي! لن يؤذيك أحد! وسوف أعود بعد قليل.

ثم حمل الإوزة، ووضعها تحت أيكة من شجر الصفصاف، وربط إحدى قدميها بأحد الجذور. ثم وضع المعطف على كتفه وأسرع نحو القطيع. شعر الاوز المذعور بحلول المساء فبدأ من نفسه التوجه إلى القرية تقوده إوزة عجوز عرجاء.

وصل الاوز سعيدًا إلى القرية. توقف عند أحد جداول الماء الصغيرة ليشرب، ثم انقسم إلى مجموعتين صغيرتين. ذهبت كل منهما إلى ساحة مختلفة. سرب صغير من ست إوزات توجه إلى ساحة بيت بيجانوف. لم يكن سعيدًا كباقي الاوز، وعلى حذر دخل السرب إلى الفناء بمفرده دون أن ينادي عليه أحد بط بط بط... !! دخلت صغار الاوز بهدوء إلى الفناء بدون أمهم. وما أن شعرت بأنها في البيت بدأت تصرخ بصوت عالٍ وكأنها تنادي على أمها الغائبة. لكن عبثًا. جاءت سيدة المنزل بالطعام وألقت به في منتصف الفناء. وعلى الفور أسرعت الإوزات الصغيرة نحوها وقد نسيت ما ألم بها. لكن السيدة لاحظت على الفور أن أمهم غائبة،

فانطلقت إلى الطريق تنادي: كراك كراك كراك!! لكنها لم تتلق أية إشارة تدل على وجود الإوزة. صعدت السيدة إلى شوارع القرية وهي تنادي:

كراك كراك كراك!!

لكن لا حس ولا خبر.

ياربي! ليس هذا هو الوقت المناسب لهذه الأمور. عندي الكثير من المشاغل، ولم يكن ينقصني أن أبحث عن الإوز. ربما نسيها في مكان ما وهي ترعى! إنها تبيض كل عام 12 إوزة. لن يعوضني عنها شيء أبدًا! يا إلهي! الكعكة تحترق في الفرن، يجب أن أدهن الأخرى بالعسل... وأنا هنا أدور وألف في الشوارع. سأخبر هذا التعيس بغيابها.

فنادت عليه ووجهها يشتعل من الغضب:

أين الإوزة؟

فزع أوندراش، وكاد يعترف لها بالأمر كله. كره أن يكذب على هذه السيدة التي يحترمها ويحبها. نظر إليها مستنكرًا ومستغربًا:

ألم تعد إلى البيت؟

لو عادت لكنت رأيتها؟ لم تعود إلى البيت!

من جديد تملكته رغبة في أن يعترف لها بالحقيقة لكنه خاف من غضبها:

ربما تكون قد تاهت في مكان ما في أحد أرجاء القرية.

وهنا لم تتمالك السيدة نفسها من الغضب فأخذت تصرخ فيه:

وماذا ستفعل إوزتي في القرية؟ ألا أطعمها صباحًا ومساًء؟

وهنا جاءت خالته من المطبخ وقالت:

ما الذي فعلته من جديد أيها التعيس؟ كدت تصنع سروالًا وعباءة؟! أنا ساكسر رقبتك يا راعي الإوز! قل لي ماذا تفعل في المرعى؟ الآن سيبدأ توزيع الحصاد وقد أضعت ثلاث إوزات أيها التعيس وأصبح واضحًا أنك لن تحصل على مليمًا واحدًا.

لكن إوزتي. . . إوزتي؟ لن أتنازل عنها ولو بوزنها ذهب. إنها تبيض كل عام 12 إوزة. لكن هذا العام سقطوا في حفرة ماء وماتوا.

رد راعي الإوز بحذر:

كان يجب أن تبقى في المرعى.

ضحكت السيدة بسخرية:

آها!! يا إلهي!! كان يجب أن تبقى في المرعى؟!. . . إن عقلها يزن عشرة من أمثالك. كان يجب أن تبقى في المرعى؟! ياربي - يجب أن أذهب، الكعك يحترق، ألقاكم على خير.

سمع صوت الباب والسيدة تنصرف. بدأ راعي الإوز يتحرك ببطء في الحجرة، فصرخت فيه خالته:

ستسرع للبحث عن الإوزة ولن تأتي بدونها!

خرج راعي الإوز يبحث عن الإوزة وهو يرسم ابتسامة زائفة على وجهه، ثم قال بصوت مختلط برعشة وسعادة وشفتاه تتحركان من جانب إلى آخر:

لن أحضرها، لن أحضرها عمدًا! . . . عمدًا لن أحضرها! لا، بل سأحضرها حتى تعرفون. سأحضرها، أهكذا تغضب هذه السيدة بيجانوفا من أجل إوزة واحدة؟! لن تغضبي طويلًا!

أخذت خالته تدور في أرجاء البيت وقد أصابها الهم. تذهب من المطبخ إلى الحجرة ومن الحجرة إلى المطبخ وهي لا تدري ماذا تفعل. كانت تحمل في يدها معلقة، دستها في طبق البطاطس المهروسة. ثم وضعت اللبن في أحد الأطباق وأخذت تعجن. بعد ذلك صعدت درجات خشبية، وأحضرت عصًا ما. وظلت هكذا تعمل حتى ساعة متأخرة من الليل.

يا إلهي! ماذا يحدث لي اليوم؟! هو السبب – هو السبب. ماذا تفعلين أيتها الخالة التعيسة؟! كم دعوت له، لكن عبثًا – عبثًا! يمشي كالبطة العرجاء ويضيع منه كل شيء – كل شيء.

في مثل هذا الوقت كانت تذهب للنوم، أما اليوم فهي تجلس عند النافذة تنظر في الظلام. أخيرًا سمعت صفع الباب وأصوات أقدام عند النافذة. وبدأ يظهر من الظلام جسم أوندراش الهزيل. دهشتها ملامح وجهه المبتهجة وعروقه التي تنبض سعادة ونشوة واهتياج. ثم فك أزرار معطفه البالي وأخرج منه كعكة، ثم وضعها أمام خالته ويداه ترتعشان:

تفضلي! قد أرسلتها عائلة بيجانوفي. . . مكافأة.

والاوزة؟!

الاوزة أعطيتهم إياها! أحضرتها لهم من المرعى.

انفرجت أساريرها وقالت:

أحقا؟! أحضرتها لهم؟ كيف عثرت عليها؟

وجدتها في أيكة وقد علقت بأحد أغصانها ولم تستطع الإفلات.

الحمد لله أنك عثرت عليها!

أخذت تنظر إلي الكعكة بدون اهتمام. مد أوندراش يده وقال:

تفضلي! لقد أحضرتها لك.

لا، لن أتناولها. أنت تحتاجها، فهي لك وحدك.

أنا؟ لقد أكلت. هذه لك.

نظرت إليه وعيناها تلألأن وتصدران نفس شعاع الحب الذي وجد طريقه إلى قلب أوندراش وفتحه على مصراعيه. أخذت الخالة تفكر: قلبي. . قلبي!! إني لأعطيك كل ما أملك أيها المسكين. . . إنه كالطفل. فهو لا يؤذي حتى ذبابة، لا يضر أحد، لا يكاد أحد يشعر بوجوده. وليس لديه في هذا الكون أحدا سواي، لن يأخذ بيده أحد سواي. لن أتخلى عنه – لن أتركه وحيدا!. ثم مسحت دموعها من عينيها اللتان ملأتهما الدموع.

تعال واجلس هنا، بجواري على المقعد. نعم هكذا!!

ثم مررت يدها على شعره الخشن القاسي. بدأ يشعر بحنانها وعطفها وبنبض قلبها الذي يتزايد ويعلو وقال:

خالتي! هل سيحيكون لي السروال والقميص؟

قالت خالته مؤكدة:

بالتأكيد، لابد أن يفعلوا ذلك. سيبدءون في حياكة أغراضك هذا الأسبوع بعد أن ينتهي توزيع الحصاد وستذهب إلى الكنيسة بملابسك الجديدة، سنذهب معا كما كانت أمك تفعل – يرحمها الله.

ألا يمكن أن يحيكها قبل ذلك؟ أخبريه أننا نريدها قبل يوم الأحد

انقبض من جديد قلب خالته وبدأ القلق يظهر على وجهها، لكنها سألته بصوت هادئ:

لماذا تريدها هذا الأحد؟ أنت حتى لا تذهب إلى الكنيسة.

أريد أن أذهب هذا الأحد.

وماذا عن الإوز؟

سترعينه أنت. أريد أن اسمع إعلانات الزواج. سيكون هناك الإعلان الثاني.

بهت لونها، وبدأت تسمع طنين في أذنها وكأنه صوت شلال مياه. فقالت وهى ثائرة:

من قال لك هذا؟ من حدثك عن أمر هذه الإعلانات؟

نظر إليها معاتبًا:

من غيرها؟. . . هي. أمر جميل – جميل. أنت لا تتمنين لي السعادة، تخفين عني كل ما هو جيد. وعندما أفعل خطأ ما لا تسكتين ولا تخفين عني شيء. لولاها لما عرفت بأمر إعلان زواجنا. لم أحضر الإعلان الأول وحتى لم أشتري لها وشاح.

لمن؟

لها. . . لها. فالعريس يجب أن يثبت أنه جديرًا بعروسه – وأنا. . .

لا، ابني حبيبي! لا تشتري لها شيء. دعك منها، ولا تنظر ناحيتهم بعد اليوم!

ونحن على وشك الزواج؟ قبل حفل الزفاف؟ وماذا سيقول الناس عنا؟ فكري في الأمر جيدا!

كادت دقات قلبها تتوقف من الذهول: هذا المسكين! لماذا تفعل به ما تفعله؟ لماذا الآن وقبل الزواج! لو كانت تؤمن بالله لما فعلت ما تفعل. حسبي الله ونعم الوكيل!

اذهب يا ابني، ونم واسترح! فغدا يجب أن تستيقظ مبكرًا.

انصرف أونداش، وذهب لينام – لكن لم يغمض عيناه طوال الليل. أخذ يحلم وعيناه مفتوحتان. دارت خالته في الحجرة قليلًا وهي لا تدرى ماذا تفعل. ثم ألقت بالكعكة التي أرسلتها إلى الماشية.

7

منذ مساء هذا اليوم غرق خياط القرية في العمل ولم يهدأ للحظة. لم يكن يستطيع الوفاء بكل التزاماته حتى لو كان له بدلًا من يديه الاثنين أربعة أيادي. والسبب هو أنهم عجلوا بالفرح، وما كان يتم في عشرة أسابيع يجب أن ينهيه في أسبوعين الآن! حلة جديدة للعريس مطرزة على أعلى مستوى! وثياب لصديقي العروسين: سروالًا و قميصًا وما شابه. والآن جاء راعي الإوز. اثنين وعشرين عامًا قضاهم دون حاجة إلى سروال أو قميص. والآن يلح عليه كل يوم صباحًا ومساءًا ويستعجله. مسكين هذا الخياط الذي لم يرى شيئًا كهذا في حياته من قبل. تمنى أن لا يسمع المزيد من الأخبار. وليأخذوا ما سيجنيه من هذا العمل - وهو على كل حال أجر زهيد - مقابل ألا يكلفوه بكل هذه الأعمال. من حسن الحظ أن خالة راعي الإوز هي الأخرى كانت تتردد عليه ظهيرة كل يوم لتأكد عليه أن ينهي الثياب في الموعد! ذادت رغبته اليوم في عدم الوفاء بتعهداته أكثر من أي وقت مضى. لكن ليست هذه هي الظروف المناسبة.

وهنا خطرت له فكرة عظيمة. زوجته! على الفور بدأت العمل، تحيك قطعة وراء الأخرى بمهارة. كاد الخياط يطير من الفرحة. كان سعيدًا لأن له زوجة كهذه. قامت على غير عمد بحياكة قميص راعي الإوز، ولم يدرك الخياط هذا الخطأ إلا عندما بدأ يحيك أربطته. وهنا أخذ يفرك أنفه بأسى ثم قال:

مادمنا صنعناه فليكن! ولنصنع له السروال أيضًا طالما الأمر كذلك. فما سيدفعه لي من أجر كغيره من عائلة دوبرافوفي أو خلافهم، سننفقه وسيصبح في خبر كان عما قريب. ومثل هؤلاء الناس يدفعون قبل الأغنياء الذين يستأجرون الناس بدون مقابل.

صنع الخياط الثياب تمامًا كما كان يتخيلها أوندراش. أما خالته فقد عنفت الخياط. لكنها في النهاية دفعت له أجره ووضعت الثياب في الحقيبة، ثم حفظته في صندوق الملابس.

ابتهج راعي الاوز وهو يرى ثيابه الجديدة:

من اليوم لن أرتدي ثيابًا بالية، ولن تخجلي مني بعد اليوم. الآن يمكن أن أذهب إلى الكنيسة، لكن مازالت تنقصني قبعة. غدًا سأذهب لشرائها، وسأشتري وشاح أضعه عليها.

ولم العجلة؟ مازال هنا متسع من الوقت إلى أن يحل موسم توزيع الحصاد.

أنا في حاجة إلى القبعة طالما عندي كل شيء جديد. أتخيل نفسي وأنا ذاهب إلى الكنيسة كغيري من الناس. ماذا ستفعلين؟

وماذا عليّ أن أفعل؟ ليس هناك ما أفعله.

إن عائلة بيجانوف بدأت في إعداد كل شيء، واليوم ذبحوا بقرة.

أحقًا؟ هي بقرة الفرح إذن!

كنت هناك عندما ذبحوها.. . في الحظيرة. وقد انصرفت سوزكا لأنها لم تستطع رؤية البقرة وهم يذبحونها. أما أنا فلم أهرب.

ألم أقل لك أن تبتعد عن هذه الفتاة؟ لماذا لا تسمع الكلام؟

يجب أن أساعدهم، هذا واجبي.

إنهم ليسوا في حاجة إلى مساعدتك.

لم تستطع أن تغضب منه. فالذنب ليس ذنبه، بل ذنبهم. لقد ذاد الأمر اليوم عن حده. أرادت أن تذهب إلى عائلة بيجانوف وتخبرهم بحقيقة الأمر، ولكنها لم تستطع. فالغرباء لا يحبون التردد على بيت العروس. لكن السيدة بيجانوف يجب أن تحضر اليوم كعكة. وقد أعدت الخالة ما ستقوله لها. تريد أن تروي لها بالتفصيل كيف يتلاعبون براعي الإوز الذي لم ينضج بعد ويصدق بسهولة ما يقولونه له.

حانت اللحظة المنتظرة، وجاءت السيدة بيجانوف قبل المغيب وهي تحمل على ظهرها سلة ضخمة مليئة بالكعك الذي توزعه السيدة على البيوت.

بدأت الخالة بلا تردد حديثها قائلة:

لم أتخيل أن تسببي لنا أنت وابنتك كل هذه المتاعب. كان هذا الصبي المسكين يعيش في هدوء. لم يكن يفكر في شيء على الإطلاق قبل أن تلعب

ابنتك بعقله لكي أن ترضي فضولها وللمرة الثانية، أنت تساعدينها في ذلك! أنا لا أعرف ماذا فعلنا لكم! أنا لا أزعج أحدًا والكل يعاملك باحترام، إذن لماذا – لماذا؟

لما كل هذا؟ نحن لم نفعل شيء لك ولا لهذا الصبيّ.

لم تفعلوا شيء؟! أنا أعرف أنه لا يعني لكم شيء أن تدوسوا على كرامتنا، لا يعني لكم شيء أن يصبح الصبي موضوعا لسخرية الجميع. وطالما لا يعنيك هذا الأمر في شيء فسأذهب إلى زوجك أو إلى عائلة دوبرافوفي. سأحكي لهم ما تفعلونه بابني. هؤلاء سيقولون لك الحقيقة، وسأرى إذا إن كان مازال للحق له مكان في هذا العالم.

كانت الخالة ثائرة كاللهب، اشتعل وجهها كالنار، صوتها مرتعش، بينما وقفت السيدة بيجانوف تتوارى خجلا أمامها، ولم تجرأ على النظر إليها. وما أن بدأت الخالة تهدد بأن تخبر زوجها بالحقيقة اهتزت من الخوف:

أرجوك يا خالة، لا تغضبي! أقول لك بصراحة أنني لم أكن أريد أن أزيد من همومك. ماذا كان عليّ أن أفعل؟ إنه يأتي إلى الحقل يجمع معي الإوز، ثم يحمله على كفيه إلى المنزل. هل كان عليّ أن أصده؟! كم كانت سعادته وهو يحضره لنا وهو يطير من السعادة. كدت أقول له ألا يصدق سوزكا، وأنها تهزأ به، لكن عندما كنت أتطلع إليه وأرى البهجة على وجهه لا يطاوعني قلبي أن أقول له الحقيقة. لم أستطع أن أطفئ البهجة في قلبه وأسبب له حزنًا. قولي لي إن كنا أخطأنا! أنا في شدة الحزن عليه، وإني لأدفع نصف ما أملك مقابل أي شيء يصحح ما حدث.

لقد فات أوان التصحيح. وكل ما ستفعلينه سيذهب هباء. ابني لا يعرف الكذب، ويعتقد أن الآخرون يقولون مثله الحقيقة، فما بالك أن تعده فتاة بمثل ما وعدت ابنتك! قولي لي: أما كان ليصدقها أي شخص آخر؟ ثم يتطلع إلى الزواج بها؟ لسوء الحظ صنع له الخياط ثيابه. أنا لا أعرف ماذا سأفعل معه يوم حفل الزفاف. بالله عليك! لقد اقترفت إثما، وعليك أن تصححيه! ستصيبكم أنتم الفضيحة وليس هو، وهو يأتي لطلب يدها في الكنيسة.

اخبريه أنت بحقيقة الأمر، فهو سيسمع منك أثر من أي شخص آخر.

أتعتقدين أن لي قلب من الحجر؟ أنت في شدة الحزن عليه وأنا لا؟! كان في مقدورك أن تقولي له، وكان سيصدقك وسيصدقك كل كلمة تقولها ابنتك وليس أنا. لا تأثير لكلامي عليه وكل ما أقوله يكون تأثيره هكذا...

ثم بصقت الخالة وسط الحجرة.

يجب أن تتحلي بالصبر. فابنتي لم تكن تعرف هى الأخرى أن الأمور ستئول إلى ما آلت إليه. فهى لم ترد سوي أن تلهو معه، فتاه ساذجة – وأنا أتفهم موقفه.

حسنًا، لكن ابني مازال أصغر منها سنا وعقله ليس كعقلها. فلا تتعجبي إذن مما قد يفعله في حفل زواجها. وانتم المسئولون عما سيحدث.

إن الغضب هو الذي يدفعك لأن تقولين هذا. لو كانت فعلت ما فعلته عن عمد لكان الأمر مختلفًا، لكن بسبب ذنب غير مقصود تغضبين كل هذا الغضب!

طالما تأخذين الأمر هكذا، فسأبقى على هذه الحالة. كفاني ما عانيته حتى الآن.

ألا تعرفين أن كل شيء قد يفسد؟ لو عرف أبوها أو زوجها – لا سمح الله – فسوف نضطر إلى الهرب من هذه القرية، ستصبح سيرة الفتاة على كل لسان. ألم تسمعي ما يقولونه عندما عجلنا بالزواج؟

ثم همست لها السيدة بيجانوفا بشيء في أذنها جعلها وجهها تعلوه الدهشة وأخذت تهمم:

أعوز بالله – أعوز بالله

وهل تعرفين لماذا عجلنا بالفرح؟ لا لشيء إلا بسبب ابنك حتى لا يزيد تعلقه بها. فكلما عجلنا بالفرح كلما سهل عليه أن ينساها. فمن يعلم ما كان ليحدث إذا ما زاد تردده علينا. هكذا سيحزن قليلًا ويعاني، وبمرور الوقت ربما سينساها. هو يحب أن يراها، يا إلهي! كم أنا آسفة على حاله. لولا أنني لم أكن مضطرة لما فعلت أفعل به ما فعلت.

هدأت الخالة قليلًا، لانت للسيدة ثم سألتها بنبرة حاسمة:

والآن ماذا سنفعل حتى لا يحضر حفل الزواج؟ لقد أسقط في يدي ولا أعرف ما هو العمل.

قالت السيدة بيجانوفا:

نرسله إلى مكان ما.

وهل ستنجحين في ذلك؟ لماذا أخبرتموه بموعد الزواج؟ لولاكم لما عرف بالأمر. لقد أخفيته عنه وكنت أدعوا، نعم كنت أدعوا بألا يخبره أحدا بالموضوع. وجئت أنت وأخبرته بالأمر ولا تريدينني أن أغضب؟

لو كنا نعرف! اعتقدنا أنه يعرف بأمر حفل الزواج.

لقد حدث ما حدث ولا فائدة من الكلام.

انصرفت السيدة بيجانوف وقلبها مهموم وهي تقول:

نعم، لقد وقع الأمر، لقد وقع الأمر.

بقيت الخالة يملأها الحزن، ولا تعرف كيف ستعالج الأمر. أخذت تفكر كيف تمنع ابنها من أن يجعل من نفسه ومن غيره أضحوكة للجميع. لم تهتدي إلى أي طريقة لمعالجة الأمر. وكلما اقترب موعد حفل الزواج كلما خاب أملها في نهاية جيدة للأمر.

8

تم عقد القران، وأصبحت سوزكا بيجانوفيا زوجة ليانو دوبرافوفي. لم تشهد قرية لينوفتسا عرسا مثله من قبل. حضر الحفل في الكنيسة عدد

كبير من المدعوين، ولم تسعهم المقاعد. ولم لا؟ فكل من في القرية كان حائرًا أمام اللغز الذي لم يجد له حلًا. كان الجميع مشغولًا بالسبب الذي أدى إلى التعجيل بالفرح. جهاز العروس لم يكن كاملًا عند الزواج، وكان عليها أن تكمله بعد زواجها. ما الذي أجبر السيد بيجان المعروف عنه الصرامة والدقة أن يتنازل في فرح ابنته عن مبادئه التي التزم بها طوال حياته؟ أخذوا يبحثون عن السبب هنا وهناك. كانت غالبيتهم تعتقد أنها تعرف السبب وراء ما حدث. كانت الفتاة في الأيام الأخيرة قليلًا ما تغادر المنزل وعلامات الحزن تبدو على وجهها. يبدوا أنها كانت تتوارى من عيون أهل القرية الفضوليين. لماذا؟ لم يجرؤا أحد الحديث سرًا أو علنًا عن الأمر. السيد بيجان رجل عنيف ولا داعي لإثارته. التزم الجميع الصمت، لكن عيونهم كانت تفصح عن ما يجول في خواطرهم. انتظروا أن تتأكد ظنونهم في حفل الزواج. لهذا السبب جاءوا جميعًا إلى الحفل. تسمرت عيون الجميع على العروس، ولا أعرف - إن كانوا ينظرون إليها بالفعل. هل ينظرون إلى إكليل الزهور على رأسها؟ فهو جميل، أخضر اللون ملئ بالورود، لكن هل كانوا ينظرون إليه بالفعل؟...

بدوت العروس غير قلقة. تحدثت أمام مذبح الكنيسة بصوت واضح. وبعد أن استدارت لتغادر القاعة، تفحصت برضا جمهور الحاضرين، نظرت إليهم طويلًا، مرات ومرات. لا ترى هناك ذلك الشخص الذي تبحث عنه، فصارت خطواتها أكثر ثقة وجهها يشع بهجة وسرورًا.

لما لا؟ بجوارها يخطو متباهيًا الشاب يانو وكأنه يقول: هذه هي آخر مرة تروني وأنا أسير بخطوات لينه وخفيفة. فبعد الزواج يجب أن يتخلى عن عادات الشباب، ويجب أن تكون خطواته رزينة وثقيلة. ضم قدميه إلى بعضهما بوقار... كانت حلته جميلة، بل رائعة الجمال. كانت أجمل ما صنع خياط القرية. وضع كل ما أوتى من مهارة في حياكة هذا السروال وهذا القميص. وضع هنا وهناك بعض الأشكال. لم يترك مكانًا ولو صغيرا إلا ودس فيه إبرته. أخذ الشباب يتطلعون إلى العريس: لا ليحسدوه على حلته هذه أو عروسه، بل لسعادتهم بأن خصمهم الكبير صار في قفص الزوجية ولن يعاكس الفتيات بعد اليوم.

لم يكن لأشرار أهل القرية مكانًا في حفل الزواج. مر الحفل والوليمة والموسيقى كما ينبغي. في هدوء وبمشاركه الجميع. كان وكأنهم أعدوا وخططوا للحفل لمدة طويلة وبإتقان. كان هذا كله بفضل عائلة بيجان.

كانت زوجته قد أشارت عليه بأن يكون الحفل بدون موسيقى:

ليمر الحفل في هدوء. فكل فرح اليوم به موسيقى. ليس من الضروري أن نقيم استعراضًا كبيرًا، وما سنوفره في هذه الحفلة سنعطيه لهم لينفقوه على بيتهم، على الأقل يستفيدون منه.

أتقصدين ألا يكون في الفرح موسيقى؟ لما لا؟ لا تتصوري أن أعطيهم الفتاة هكذا في الخفاء وبدون أن يعرف أحدا! في حفل زواجي كان هناك موسيقى، وفي حفل زواجها هي الأخرى ستكون موسيقى. لا أريد على الأقل أن يكون لديها شيئا تعايرني به.

لكنها تريد حفلًا بدون غناء.

حملق الرجل في زوجته وقال:

ولماذا؟ هل فقدت عقلها؟

لا، فقط تريد هذا. لا تريد ضوضاء في البيت.

رفع الرجل عصاه وقال مهددًا:

اسمعي أيتها المرأة، هناك شيئًا ما أعددتماه أنت وابنتك في مطبخكم هذا. لا تظني أنني مجنون. منذ وقت وأنا أشعر بأمر ما يدور ولا أفهمه. ولا أنكما تقفان وراء هذه التعجيل في الزواج.

ردت المرأة:

يجب أن نساعد عائلة دوبرافوفي.

احتد غضبه وقال:

دعكي من هذه الذريعة أيتها العجوز الشمطاء! ألا تملك عائلة دوبرافوفي ثمن استئجار أحد ما لجني محصول البطاطس؟ فكري جيدًا: ألا تعتقدين أن هذه حجة غبية؟ وتنتظرين مني أن أمشي وراء كلامكم، أنتم النساء، كثيرات الشعر قليلات العقل؟ أنا؟ أنا؟... نادي على طفلتك المدللة لتحضر فورا إلى هنا! أنا سأنظف لها عقلها؟ أنا سأريها ما هي الضوضاء الحقيقية!

كان الرجل في قمة ثورته، ولم تستطع زوجته الوقوف أمام إرادته. وبإذعان أحضرت ابنتها أماه وهو يقف كالقاضي بوجهه الصارم:

أخبريني! أنت! أنت! آها! إنها حتى لا تنظر إليّ، هل ارتكبت إثمًا تخافين منه؟ لماذا تخافين مني؟ من الواضح أنك ارتكبت ذنبا ما. أخبريني: لماذا لا تريدين موسيقى في الحفل – لماذا؟

أجابته الفتاة بصوت متردد وضعيف:

ما هو إلا... فقط ضجيج... ولمدة ثلاثة أيام...

هكذا؟ هي تعتبره ضجيج، لا تريد أن يراها العالم في ثيابها الجميلة. لكن هل كانت الموسيقى في حفل زواجي أيضا ضجيج؟ أقسم بالله، الحفل سيكون بالموسيقى، وستبقى أطول من أيّ وقت مضى. وسنرى من يُعلّم من! لن أنتظر حتى تأتي بعد عشرة أعوام وتلوميني: أنت أيها الشيطان، الشرير لم تعد لي حفل زواج لائق. وسنرى!

صاحت سوزكا في ألم من غضب أبيها قائلة:

أبي! لا تغضب أرجوك! أنا فقط أردت...

نعم! إنها تريد أن تدافع عن نفسها! إنها تريد! – انظري! أنا الآن من يقرر: الحفل سيكون بالموسيقى، سيكون بالموسيقى. اعلموا جيدًا أن أحدًا لن يأمرني في بيتي!...الآن تعال هنا، انظري في عيني!

وضع الرجل وجه الفتاة بين راحتيه وأخذ يتأمله. كادت الفتاة تصاب بإغماء من الخوف – فقد انفتحت أمام عيناه كل خبايا قلبها المضطرب. لاحظ ذلك أبوها، فقال لها بصوته الصارم: انصرفي! انصرفي! أما أنت أيتها الشيطان العجوز فابقي في مكانك!

دخلت الفتاة إلى حجرتها وأخذت تبكي. لقد أصابها غضب أبيها القاسي علي قلبها. الآن، وقبل حفل الزواج مباشرة يتحدث بهذه اللهجة، ويثير الهم في نفسها! أهذه هي هدية الزواج؟ ماذا جَنَت من الثراء وحب الزوج وأبوها يعاملها بهذه القسوة والعنف؟ مازالت تسمع صوته القادم من الغرفة وهو يسب ويلعن زوجته التي لا تكاد تنبث بكلمة. هدأت سوزكا قليلًا وبدأت تسمع من دون قصد:

سأقطع رقبتك! أنت التي غررت بها... هذا العار – ما لم تستحق هذا الإكليل...

ولم تسمع سوزكا المزيد. غطت دقات قلبها حتى على صوت أبيها الذي يهز أرجاء البيت، دوي صوته يسمع في كل ركن.

بعد قليل دخلت أمها إلي الحجرة لتشاركها البكاء...

رغم الكآبة التي عمت بيت السيد بيجان قبل الزواج فلم يعكر صفو عقد القران شيء. تحسنت معاملة السيد بيجان، واعتذر لابنته وزوجته. ذهبت الفتاة وهي راضية لعقد الزواج تصحبها محبة والدها ودعواتهم لها.

لكن من ذا الذي يقف حائلًا بينها وبين مستقبلها؟ ربما يكون ذلك الشخص البائس، مكسور الجناح الذي يرتدي قصاصات بالية؟

أخذت الفتاة تردد بثقة عبارات الزواج الصعبة، وكأنها تصد هجوم شخص جاء ليغزوها. إنه هناك، مازالت تراه هناك! كانت تشعر وكأنه هو الذي يطلب يدها وليس يانو.

انتهت مراسم الزواج. هدأت المشاعر، تبادلا القبلات وتبدد الوهم. تنفست الفتاة الصعداء، وكأن حجرا ثقيلًا كان يجثو على صدرها. الزواج! الوعد! الحاضرون، كل هذا استنهض خيالها: ولا عجب، فالأشباح مازالت تطاردها. على كل حال لقد تجاوزت اللحظة العصيبة، وستبدأ مرحلة من التوازن والتعقل.

9

عائلة بيجان في أفضل حالاتها. الكل يجلس عند الطاولة. يا إلهي! أكُلّ هذه طاولة! واحدة تمتد من الباب وحتى الطرف الآخر من المنزل، والأخرى من بداية المنزل وحتى الفرن العريض. رصت عليهما الأطباق والملاعق. يبدوا من الأطباق أن الوليمة قائمة منذ فترة، يبدوا هذا أيضًا على الحاضرين. بالطبع كل من يرى كل هذا الطعام والشراب لابد أن يشارك في الوليمة. الجميع يلهون. شاهد العريس يقذف كرية من خبز إلى شاهدة العروس التي تجلس أمامه. تصطدم الكرية بجبينها اللامع، ثم

تكاد تسقط في فم السيد بيجان. الكل يضحك، ماعدا السيد بيجان الذي يهز رأسه بجدية ويقول: إنها نعمة الله! كنت لتأكل هذا الطعام قبل قليل!. لكن أحدا لم يهتم لكلماته الجادة. الجميع ينظر إلى شاهد العريس الآخر الذي اتخذ من أحد المهرجين الذي دعاه للفرح فقط من اجل أن يبعث السرور في نفس العروسين مادة للهو. صب له في الكأس خلا بدلًا من النبيذ وناوله إياه.

في صحة الشباب!

ثم تناول الرجل الكأس بين إصبعيه وقال: يرعاكم الله ويحفظكم دائما صحبة! ثم تناول الخل، ولم يبقى فيه قطرة واحدة. أشارت قسمات وجهه إلى أنه اكتشف الأمر، ولكن بعد فوات الأوان. علت ضحكات الجميع بما فيهم السيد بيجان. كان السيد بيجان يمشي بين الضيوف، وما أن يرى كأسًا أو دورقا فارغًا استبدله بآخر ممتلئ. بدا كل شيء في الوليمة كما ينبغي أن يكون.

الآن جاء دور العصيدة الساخنة، تحملها الطاهية بيدها التي لفتها بالقماش وهي تشتكي من أن يدها اكتوت من سخونة العصيدة. لم يصدقها أحد، وحتى ابتسامتها التي تعلو وجهها تقول غير ما تدعي. وعلت أصوات النقود المعدنية في أطباق الطهي.

وبدعوات السيد بيجان انتهى الغذاء. اندفع كل الشباب يرقصون. أما كبار السن فعلت وجوههم الابتسامة وهم يجلسون على حافة الطاولة،

يتطلعون إلى هذا الهرج. كل الحاضرين يتحركون ويقفزون ويدورون كالمجانين. ما هي إلا حماقة الشباب.

لا أحد يفكر الآن فيما إن كانت حماقة أم لا. تجذب نغمات الموسيقى التي تصدرها عصا العازفين كل من في البيت. الصبايا يلقون بنظرات التشجيع للعازفين الذين يقفون على خشبة مرتفعة أسفل العلية. كان يمكن أن يجلسوا؛ لكنهم فضلوا الوقوف بعد وجبة الغذاء. عازف الكمان لا يجلس مطلقا وهو يعزف. فهو لا يجيد العزف وهو جالس. ربما لكي يكون أداءه أفضل. فهو لا يعزف فقط بيديه، بل بجسده كله وبروحه أيضًا. على وجهه يظهر جليا ما يشعر به. فهو يتحرك من جهة إلى أخرى، يعقد حاجبيه أو يرفعهما. يفرج فمه أو يضمه. وعندما يعلو صوت الكمان يرفع هو الآخر نصف وجهه. وعندما تبلغ الموسيقى أوجها تعلو وجهه نشوة عارمة. حتى قدمه اليمنى لا تكف عن الحركة وكأنها خلقت لكي تعطي إيقاعًا موسيقيًا، فهو يرفعها ويرخيها حسب إيقاع الموسيقي. نفس الشيء يفعله أعضاء فرقته، وهكذا ترتفع وتنخفض الخشبة بهم بانتظام بفعل وقع أقدامهم.

يبدو من الردهة المؤدية إلى الغرفة منظر جميل. توجد في وسط الغرفة حلقة رقص، حولها مجموعة من الفتيات اللاتي يسترحن. في الردهة توجد حلقة أخرى أصغر، يتلهى فيها عدد صغير من الراقصين،

تجري في دمائهم الموسيقى منذ صغرهم. في هذا الهرج يقف خمسة أشخاص يعزفون، يقف أمامهم بعض الشباب وكأنهم يقودون العازفين.

وكلما اقترب الليل كلما ذاد عدد الأفراد في الحجرة. ثم جاء من خارج حلقة الرقص أشخاص آخرون ليشاهدوا الشباب وهم يراقصون العروس. تضيق الحلقة الموجودة أمام العازفين، في حين تتسع تلك التي عند الباب. في الحلقة الأولى يتزاحم الراقصون أما الثانية فهى فارغة تقريبًا. فعلى حافتها يقف الشباب المتزوجون يمرحون. إنهم لا يرقصون، فهذا حتى لا يليق بهم، فقد كبروا على هذا الأمر، لكن لديهم ما يتلهون به. لا يجرؤ أحد أن يدخل إلى حلقتهم الفارغة، بل يفضل أن يقف في الردهة، ويطل برأسه داخل الغرفة. فمن يدخل منهم إلى الغرفة لن يعرف أين تقف قدماه، لن يشعر إلا وهو يطير لكن بدون أجنحة. ومن يدخل في حلقة المتزوجين يظلوا يتدافعونه فيما بينهم. أما باقي الحاضرين لا ينظرون إلى الراقصين بقدر ما ينظرون إلى هؤلاء الذين يتطايرون في الهواء. السيدات اللاتي في الردهة يتبادلن السباب مع الرجال المتزوجين:

انصرفوا، إنكم لا تملكون ذرة عقل.

لقد أصابكم جميعًا الجنون.

جاء أحدهم ليدافع عن هذا الذي يتدافعونه بينهم:

كفوا يدكم عنه! فهو ليس دبًا حتى تتدافعونه بينكم هكذا.

هنا تخرج السيدة بيانوفا من مطبخها لتنظر ما يحدث في الردهة. لم يغضبها ما رأته من عبث المدعويين، لكنها أشارت بإصبعها مهددة وهي تبتسم:

إنكم كالوحوش! لقد جننتم جميعًا!

ثم تعود إلى مملكتها، إلى الغرفة لتعد لهم شيئًا طيبًا.

العروس في أحسن أحوالها، فهي سعيدة، تشع سعادة كما كانت دائمًا في حفلات الرقص. تتناقلها الأيادي أثناء الرقص. ثلاثة منهم ينتظرون أن يراقصوها. وما أن تهم بالخروج من الحلقة حتى يتدافع جمع منهم يطلبها للرقص. ليس فقط الشباب، بل أيضًا – يا إلهي! اغفر لنا ذنوبنا – إنه منظم الحفل! وزوجته تعصر قبضتها من الغيظ أما الفرن:

صبرًا أيها العجوز! سأنال منك! غدا سيأتي يشتكي من أن قدماه تؤلماه. طبعًا! طالما يرقص هكذا، ويحركهما يمينًا ويسارًا. يا الهي! وكأنه شاب! صبرا أيها الرجل!

فهم الرجل ما تعنيه نظرة زوجته فأسرع نحوها تاركا العروس. جرى الدم في عروقه، يذكره بأيام صباه. وعبثًا حاولت منعه، وسرعان ما وجدت نفسها معه في حلبة الرقص. كان السرور يتدفق من وجهها. وقرأ في عينيها الصفح والغفران وهو ينظر إليها.

عند المغيب دخل أوندراش، راعي الإوز ساحة بيت آل بيجان. لم يرى أحدا هناك سوى المهرج الذي خرج نحو كومة ركام في المنزل، فقد كفاه ما

ناله من لهو وشراب. فذهب يستريح قليلًا على القش بعد أن أعياه ما يجري في داخل المنزل. في فمه بقايا لفافة دخان – نعم، يجب أن يبدو على مظهر الرجال طالما يحضر عرسًا.

أسرع راعي الإوز إلى داخل الردهة وهو يحرك يداه ويميل برأسه إلى أسفل على غير المعتاد. يفسح لنفسه طريقًا عبر الردهة إلى الحجرة دون أن ينظر حوله – مباشرة إلى الحجرة. لم يكن هذا بالأمر السهل. ارتطم بالنساء اللواتي استوقفنه على فورا وقلن:

كم هو فخور بنفسه! إنه حتى لا يكلمك!

انظري! ألا ترين أنه يرتدي قميصًا جديدًا؟ وقبعة جديدة أيضًا!أوندراش! هل ستتزوج؟

انظروا يا سيدات! إنه يرتدي سروالًا جديدًا رائعًا!

في النهاية وصل إلى الباب حتى الحلقة الفارغة. قفز إليها سعيدًا، وبدأ يرقص. سقطت قبعته بعيدا خلف الفرن بين المدعوين، وتطاير شعره في الهواء.

صرخت إحدى السيدات من الردهة:

اتركوه! دعوا هذا المسكين وحاله!

قالت أخرى:

إنه بالكاد يمشي على قدميه، وسيبدؤون في دفعة بينهم. اتركوه! سيصاب بالأذى!

تركوه. نهض أوندراش واقفًا على قدميه وهو يصفف براحتيه شعره ويبتسم ببلاده، ثم واصل سيره حتى وصل بصعوبة إلى حلبة الرقص حتى استطاع رؤية الراقصين. إنها هي! ترقص مع يانو دوبرافوفي، إنهما يتبادلان النظرات! هذا أمر غريب، ماذا يفعل هذا الشاب هنا؟ إنها تبتسم له، لـ يانو. لا تبدوا كما كانت عندما أحضرت له الطعام. يا إلهي! إنها تضع يده على كتفه – على كتف يانو، ثم تستند بجسمها عليه. تمامًا كالأميرة في قصر الغربان. لكن هذه ليست أميرة، آه...

شعر راعي الإوز بالألم وعقد وجهه.

حتى سوزكا لم تعد تنظر إلى عريسها كما كانت. عيناها تلمعان كأحجار الماس. ثم غشتهما غمامة كمرآة عليها آثار نفس حار. علا وجهها الحزن والهم. تلقي من وقت لآخر نظرة على المدعوين وفي كل مرة تبدو قلقة. المكان هنا في الغرفة ضيق، غير صحيّ، فالهواء ثقيل والموسيقى باهتة. يبدو لها الراقصون وكأنهم عرائس متحركة. كل ما حولها لا معني له وتافه.

وقع نظرها على راعي الإوز، التقت عيناها بعينيه الصغيرتين اللتين مازالتا تنظران إليها باستغراب، وتحملان في نفس الوقت ابتسامة خفيفة. ارتسمت على وجهه علامة وكأنه ينظر خفية إلى أحد ما في حفلة كبيرة ويريد أن يقول له أنه يعرف ما يدور حوله.

وفجأة اختفى راعي الإوز بين الراقصين. شخص ما سحبه من يده وجذبه إلى الخارج. لم ينظر حوله ليرى من هذا. لقد أدرك الأمر.

همست خالته الحزينة في أذنه قائلة:

أيها الملعون.. كفى هذه المهزلة!

لم يفهم من حولهم ما تقوله له، لكنهم فهموا الأمر وهم يرون أوندراش يقاوم. صاحت السيدات في الردهة يدافعن عنه:

اتركيه! فهو لا يضايق أحدًا، دعيه يرى ويلهو.

إنه لا يستحق أية متعة، كفاه ما يلبسه.

لا! إن الخنفساء تلهو، فما بالك بالإنسان. يجب أن يرفه الإنسان عن نفسه من وقت لآخر.

هنا جاءت من المطبخ السيدة بيجانوفيا وقد اختفت كل علامات السعادة من وجهها. أخذت تنظر إلى الخالة نظرة كلها تساءل ثم نادت عليها بود:

تعال يا خالة إلى المطبخ! فنحن لم نراك هنا من قبل، وليأتي هو أيضا لينال نصيبه من الفرح.

ذهب الخالة ناحيتها على غير رضاها وهي تجر الفتى من يديه. على الأقل سيختفي من أمام أعين الناس. وما أن دخلا إلى المطبخ، حتى صاح راعي الإوز:

دعيني أذهب إلى الحجرة! لماذا تحبسيني هنا؟!

اخرس! لا أريد أن أسمع صوتك!

وضعت خالته قبضة يدها على جبينه. نظر أوندراش إلي السيدة بيجانوف وصاح يطلب مساعدتها:

أترين! هكذا تعاملني منذ الصباح. لا تريد أن تتركني أذهب إلى عقد القران، فهربت منها.

قالت السيدة:

لكن عقد القران انتهى...

حدق إليها ببصره متسائلًا:

كيف؟

نعم يا ابني! لقد عقد القران.

بدوني؟! عقد القران بدوني؟ كيف ومن؟!

نعم صدقني، تم عقد القران بدونك.

تجهمت خالته وقالت بحدة:

انتظروك! أترى! لقد نصحتك أن تنسى الأمر. الآن هذا عقابك لأنك صدقتهم.

لم يهتم راعي الإوز لما تقوله عمته. لقد سمع منها هذا الكلام كثيرًا. أراد أن يعرف كل شيء وبالتفصيل عن عقد القران: ومن... ومن تزوجها؟

طبعا يانو – يانو دوبرافوفي

هذا؟ أترين يا خالتي، لماذا حبستني في الغرفة ومنعتني من أن أذهب إلى هناك؟ ماذا كان في يدهم أن يفعلون؟ أنا لم أحضر عقد القران، لذلك بحثوا عن عريس آخر. والآن فات الأوان.

جلس على مقعد مليء بالأطباق وبقايا الطعام. لم يهتم كثيرًا بهذا الأمر، أخذ يحرك القبعة في يده. سألت السيدة يجانوفيا الخالة:

كيف منعته من حضور عقد القران؟

حبسته!

وهنا قاطعها أوندراش قائلًا:

نعم حبستني، ولا أعرف السبب الذي جعلها تفعل ذلك. فأنا أرتدي قميصا جديدًا وسروالًا وقبعة. . انظري إلى وشاح القبعة كم هو جميل! الشيء الوحيد الناقص هى الريشة... كان يمكن أن أذهب. حتى الأزرار أغلقتها كما ينبغي... كل شيء لكنها رغم ذلك لم تسمح لي... والآن انتهى كل شيء. إنني لم أستطع الهرب إلّا الآن... لو كنت انتظرتم قليلًا! فات الأوان!

ثم خلع القبعة وأخذ يحركها بين بيديه.

ربتت السيدة بيجانوفا عليه، وقالت وهى تعطي له قطعة كبيرة من الكعك: مسكين!. لكنه هز جسمه رافضًا وواصل عبثه بالقبعة.

تنهدت خالته حسرة وقالت:

عندك حق! إنه فعلا مسكين، لو كنت رأيته في الصباح! لم أتجرأ على الاقتراب منه. مع بزوغ النهار بدأ يسألني عن ثيابه. لم أرد أن أعطيها له، ولكنه – تخيلي! – رفع عليّ الفأس. كان يمكن أن يقتلني. لكني هربت... تخيلي – في هذا العمر. دخل عليّ في الحجرة هو يحمل فأسًا، ثم أزاح غطاء الصندوق وأخرج منه الثياب ولبسها. أما أنا فلحسن الحظ أسرعت إلى الردهة وأغلقت عليه الباب. كاد يجن من شدة البكاء عندما عجز عن فتح الباب. صدقيني – كنت حزينة من أجله إلى درجة لا تتصورينها.

ثم انفجرت من جديد في البكاء وهي تجفف دموعها في سترة المطبخ.

مسكين!

مسكين؟! الآن أصبحت مسكين؟!

رد راعي الإوز عليها ثم انصرف. لم تلاحظ خالته من شدة تأثرها أنه غادر الحجرة. لم تمنعه السيدة بيجانوفيا. كان هادئًا كالحمل الوديع.

ثم سمحتِ فيما بعد يذهب بمغادرة المنزل؟!

ما حدث هو أنه رفع قفل الباب بالفأس، وكاد يخلع حلق الباب. منذ الصباح وحتى الآن وأنا في معاناة لم أعيشها طوال حياتي. كاد قلبي يخرج من صدري.

أرجوك لا تغضبي مني! تأكدي أنني لا أحمل له سوى كل طيب.

هذا قدرنا، وإني أفوض أمري لله، إنه نعم المولى.

10

خرج راعي الإوز من المطبخ وتوجه إلى الردهة ثم إلى الحجرة حيث اتسعت حلقة الراقصين. الموسيقى مازالت تعزف والعازفون يقفزون على الخشبة التي تعلو وتهبط بهم. عازف الكمان يدندن ويلوي فمه. ذاد من الضجيج صوت الكونترباس وأقدام الراقصين وهي تضرب على الأرض: دو،دو،دو،دو!

لم يسترعي هذا اهتمام أوندراش. أخذ يحدق ببصره إلى العروس ويتابع خطواتها. ضوء خفيف يصدر من مصباح أسفل العلية ويغطي شريطًا صغيرًا. مازال أوندراش يقف في مكان شبه مظلم. لقد رأى كل شيء: رآها وهي ترقص مع الشباب الصغار باستثنائه هو، رآها وهي تبتسم له أيضًا! ولا تبدوا على وجهها أية علامات على الأسف أو الندم. بددت الموسيقى وجو الفرح كل همومها وعادت إليها الابتسامة والسعادة. الشاب يانو يهمس في أذنها فتنظر إليه وكأنها ترد عليه، يالها من نظرة واثقة، مليئة بالحب والرقة والشوق... أمرا لا يصدق! لا بد أنها تحبه. لم يتحمل أوندراش ما يراه، وبدا متكسر الوجه، يتألم من الحزن.

إنها سعيدة برؤيته، سعيدة برؤيته... سعيدة، عيناه يملأهما الحزن، لا بل تشعًا نورا. إنه يرى آلاف العازفين وآلاف الشباب، الكل يبتسم، الكل سعيد. مرة أخرى لا يرى شيء ولا يشعر حتى بروحه. امتلأت عيناه بالدموع. غادر المكان وهو يصنع لنفسه طريقًا بين الحاضرين، خرج بعيدًا. المكان خانق، لا يمكن أن يتنفس.

خرج إلى ساحة البيت، ثم جلس أسفل أيكة على عجلة أحد العربات، وأخذ يفكر وقد أسند رأسه على يده الممسكة بعجلة العربة. انهمرت دموعه كالمطر، لم يمنعها. إنه وحيد، الجميع يتجاهله، سلوته الوحيدة هي دموعه التي تختلط بها أصوات الموسيقى وصوت أقدام الراقصين القادمة من بعيد. تهدأ هذه الأصوات وتتلاشى بالتدريج. لم يعد يسمعها. بدا الصمت القادم من أعماق روحه ومن حوله وكأنه في القبر.

هل انتهت حفلة الفرح في بيت عائلة بيجانوف أم أن خياله يحمله بعيدًا؟ نعم، إنه كذلك، يحمله بعيدًا، بعيدًا.

في الحجرة صخب وأصوات أقدام تقفز في الهواء. لم يأبه أحد لحاله. الآن بدأت الحفلة الحقيقية. الردهة مزدحمة والحجرة مليئة بالمشاهدين. يرى الناس خلف كل نافذة. الكل ينظر بشغف وكأنه لم يرى حفلًا في حياته، ولم يرقص من قبل. بل رأى، نعم... رأى مرات ومرات، ودائمًا يلهو ويفرح. كبار السن يتذكرون أيامهم الخوالي، ويستعيدون ذكريات زواجهم. الشباب يفكرون متى سيكونون محل أنظار الجميع هكذا.

وسط هذه النشوة التي تعم الجميع جاء صوت مذعور من ساحة البَيت يقول:

حريق! حريق!

انصرف الناس من خلف النوافذ. لم ينبث أحد بكلمة، وكأنهم لم ينتبهوا للأمر بعد.

حريق! حريق!

استفاقت الوجوه الواجمة، وتالعت الأصوات من كل ركن: أين؟

هناك، انظروا!!

اشتعلت النيران في حظيرة بيت عائلة بيجانوفيا. قوالب القش تتساقط من على الأرفف، وتسقط في التبن المشتعل. لم تهدا الموسيقى في الحجرة، يبدوا أن الخبر لم يصلهم بعد.

ظهرت امرأة تطل برأسها من النافذة وتنادي:

حريق!، انتبهوا، حريق!

توقفت الموسيقى، لكن الراقصين مازالوا ملتحمين. واصلوا الرقص وكانوا مازالوا متأثرين بالموسيقى، ثم توقفوا بعد أن أدركوا غيابها ووجوههم تعلوها الدهشة وسط الغرفة. بدأت حلقة المشاهدين تتفكك، وتزاحم الجميع عند الباب. لازم الجميع الصمت، وحاول بعضهم الخروج من الغرفة. أما الراقصون فلم يدركوا بعد ما يحدث. فصرخ أحدهم قائلًا:

أيها العازفون! أين الموسيقى!

مرة أخرى جاء من النافذ صوت صراخ يقول:

حرق! حريق!

وهنا أصيب الجميع بالهلع: ترك الراقصون الفتيات وسط الغرفة، وبدءوا يتزاحمون عند الباب للخروج وكأن الحريق من حولهم في كل

مكان، فحاول كل منهم أن ينجوا بنفسه غير عابئًا بغيره. صار الزحام شديدًا عند الباب. تعالى صراخ وعويل ولعنات الحشد. فقد من تخلف منهم الأمل في الخروج فمنهم من توجه صوب النافذة ومن خرج عبر المطبخ. لكن غالبيتهم بقيت في الحجرة.

علا صراخ من خرج منهم وكأنهم يعوضون ما فاتهم في الحشد وهم يغادرون الحجرة.

أحدهم خرج من الحظيرة وقد اشتعلت فيه النيران. أحدهم لم يخرج من المطبخ!

من؟ اقبضوا عليه! اقبضوا عليه!

مجموعة من الشباب الذين كانوا تحت تأثير الشراب اقتربوا من الحظيرة التي اشتعلت في سقفها النيران. شخص ما يجلس تحت الأيكة على عجلات العربة. يغطي وجهه بكفيه.

تعال هنا! ستحترق – اخرج!

لم يتحرك من مكانه. سحب الشباب راعي الإوز الذي نظر إليهم في استغراب ولم يفهم ما يقولون.

ماذا تفعل هنا؟ اخرج!

رد قائلا:

نعم، أنا قادم. أين العروس؟ لقد حان وقت عقد القران، هيا بنا!

آها! إنه هو، يا إلهي! عفوك ورضاك! – إن مجنون.

أم أنه سكران...

إنه يرتدي ملابس الفرح! ماذا تفعل هنا؟ تكلم!

جئت من أجل العروس، جئت لعقد القران، لعقد القران! دعونا نذهب!

خطرت على رأس السيد بيجان فكرة فقال:

أيها الناس، امسكوه! فقد يكون هو الفاعل... بالتأكيد!

عندك حق!... فهو مجنون...

أمسكوا به. حاول راعي الإوز الإفلات منهم بكل قواه حتى استعصى عليهم.

ماذا تريدون؟ اتركوني! أنا ذاهب إليها!

جاء من الخلف صوت سيدة تنادي:

امسكوه! لا تدعوه يفلت منكم! إن تركتموه يدخل القرية فسوف تشتعل بأكملها!

امسكوه! – كتِّفوه!

حبل! إلينا بحبل!

اعطني هذا الحبل!

وعلى الفور ربطوا راعي الإوز في سور البيت. أوثقوا الرباط حتى انتفخت عروقه ولم يستطع الحراك.

أصبحوا الآن في مأمن من الحريق. من أضرم النيران هذا لن يتمكن من إشعال الحريق في القرية كلها. كانوا على قناعة بأنه من حسن الحظ لم يصاب بنيرانه سوى بيت عائلة بيجانوف. وما أن أوثقوه بسور البيت حتى ذهبوا وتركوه هناك. لم ينظر أحد إليه.

خلت الحجرة أخيرًا من الناس وأخرهم السيد بيجان. رغم الفزع الذي بدا على وجهه فقد قال بهدوء:

الحيوانات.. الحيوانات! تعالوا وساعدوني لنخرج الحيوانات! إنها تختنق!

أسرع الشباب وراءه إلى داخل الحظيرة، وعلى الفور كان عند كل ثور خمسة رجال. وقد جعل هذا المهمة أكثر صعوبة. فما قام أحدهم بفكه قام الآخر بربطه مرة أخرى. كانوا كالمجانين.

أخرجوا الحيوانات إلى ساحة البيت.

ضعوهم في منتصف الساحة، في المنتصف!

انطلقت السيدة بيجانوفا في ساحة البيت كالمجنونة وهي تصرخ:

إلحقونا! الحقونا!

كانت قد جمعت الأغطية بسرعة، ووضعتها في الحقيبة ثم حملتها على ظهرها، وانطلقت هكذا إلى الساحة. وصلت حتى الشارع ثم صرخت:

حريق! حريق!

انطلق من جرس برج القرية صوت إنذار، يحمل خبرًا مشئوما ليخبر به أهل القرية وما حل بأحد بيوتها.

تجمهر الناس أما بيت عائلة بيجانوف وفي ساحته. أما من كانوا منذ بداية الأحداث فقد كانوا قرب النيران. أسرع الجيران ليتأكدوا من باب الاحتياط من أن الفاعل - رغم أنه مغلول الأيدي - لم يشعل النيران في بيوتهم. هكذا اعتادوا في مثل هذه الأحوال. حمل بعضهم معه جرارًا وأحواض مليئة بالماء.

أطفئوا النيران، أطفئوها! من أعلى السقف! الماء، أين الماء؟

انطلقت مجموعة لتحضر الماء. حمل كل منهم وعاء قدر استطاعته. صار كل ما في بيت عائلة بيجانوف في أيديهم. الأواني التي كانت قبل قليل مليئة بالحساء واللحم والعصيدة والطيور صارت مليئة بالماء وقد ألقوا ما بها من طعام.

إليكم بالماء!

صاح أحد الشباب:

عربة المطافئ! عربة المطافئ!

لم تخطر على بالهم عربة المطافئ سوى الآن. أسرعوا نحو عمدة القرية لإحضار مفتاح غرفة مطافئ القرية حيث توجد العربة.

فتش عمدة القرية في كل ركن عن المفتاح. الغرفة بالكامل يغطيها التراب.

المفتاح... المفتاح!

لقد كان... كان!

صرخ الناس فيه:

أين المفتاح؟

لقد كان مع زوجتي... لا أعرف أين وضعته!

ابحثوا عن زوجة العمدة! أين هي؟

ابحثوا عنها في هذا الفرح التعيس!

انطلقوا إلى بيت بيجانوف، فتشوا عنها في كل مكان هناك حتى وجودها.

صرخ فيها ما يقرب من عشرة أشخاص في نفس واحد:

المفتاح! المفتاح!

لم تنتبه زوجة العمدة للأمر وقالت:

أي مفتاح؟ مفتاح الغلال أم مفتاح الدولاب؟

مفتاح غرفة المطافئ، عربة المطافئ... المفتاح!

مدت زوجة العمدة يدها وسحبت من تحت رباط خصرها حزمة مفاتيح، ثم أخذت تفحصها مفتاحا وراء الآخر وكأنها سبحة مصفوفة على سلسلة نحاسية جميلة صنعها لها الساعاتي.

المفتاح ليس معي... ربما ستجدونه في مكان ما في العَلِيّة.

أنطلق الشباب نحو العمدة، وصاحوا واحد بعد الآخر:

في العلية... في العلية!

غير أن علية السيد العمدة لم تكن صغيرة. بها ستة عوارض خشبية، على كل عارضة اثنتي عشرة لوح بينها اثنتي عشر فجوة. أخذ العمدة يبحث ومعه الشباب، سحبوا عشرات الملفات والصناديق والمستندات. كان هناك السجل العام. وجد أحدهم شفرة حلاقة وصابون وخلافه – لكن لا وجود للمفتاح. مد العمدة يده إلى إحدى الفجوات وصاح:

ها هو! لنذهب بسرعة إلى سيارة المطافئ!

انطلق الشباب إلى عربة المطافئ. فتحوا الحجرة، وضعوا أغراض العمدة جانبًا ثم أخيرًا سحبوها صوب النيران.

لم يخمد الحريق بعد. اشتعلت النيران في الحظيرة وجرن الغلال. سقط سقف الحظيرة واشتعلت النيران في علية البيت وبدأت النيران تطال سقف الحجرة.

شرع الناس يفرغون محتويات المكان قدر استطاعتهم بما فيه الحجرة والعلية. صرخت السيدة بيجانوفيا فيهم قائلة:

اتركوا أغراضي! إنهم يسرقونني – إنهم يأخذون كل شيء!

أوقفت كل من يحمل شيئًا وأخذته منه ووضعته في الحديقة. لم يغضب الناس لاتهامها لهم بالسرقة. فالإنسان يصيبه الغباء في مثل هذه المواقف الصعبة.

صعد أحد الرجال على عربة المطافئ وحمل الباقون الماء. الغريب أن كلما صبوا عليها مزيدًا من الماء كلما تسرب الماء منها. كان الماء يتسرب من قاعها بكمية كبيرة.

صرخ بعض عقلائهم:

سدوها.. بالطين!

سدوها... سدوها!. هكذا صاح بعض الأغبياء عبثًا دون أية نتيجة، فلم يكن هناك طين ليسدوها به.

في النهاية انطلق أحد الرجال إلى السيدة بيجانوفا وقال لها:

اعطني دقيق!... هل عندكم دقيق؟

لم يعد عندي شيء! لقد سرقوني... سرقوني، حرقوا ممتلكاتي! لقد أخذوا كل شيء!

أين مخزن الدقيق؟

قالت وهي تشير إلى حديقة البيت:

لا أعرف؟ هناك في مكان ما...

أسرع أحد الرجال إلى الحديقة وأخذ يفرغ الدقيق في أحد العلب المعدنية، وشمر ذراعيه وبدأ يصب عليه الماء. وما أن وصل إلى فناء المنزل حتى صار الدقيق عجينًا.

ابتعدوا، ابتعدوا! سأصب العجين!

قاموا بسد الفتحات وعلى الفور امتلأت عربة المطافئ بالماء. قام اثنى عشر رجلًا بسحب عتلة حديدية، فاندفعت المياه في الهيكل الخشبي. لم يهتم أحد بالمباني الخلفية التي أتت عليها النيران.

11

استند راعي الإوز المقيد على سور المنزل. لقد أصابه الإرهاق بعد صراع عنيف مع الرجال، وثورته على ما يحدث له. غلبه النعاس، ليته يستطيع أن يستلقي وينام! كلما حاول الحراك شعر بألم حول معصمه. إنه لا يهتم لأمر الحريق، ولا لما يدور حوله من هرج ومرج. لا أحد ينظر ناحيته، ولما؟ فهو لن يهرب منهم وهو مقيد. لم يخطر ببال أحد في هذه اللحظة الحرجة أن يسأله عما فعله. فليس هذا هو الوقت المناسب. غدا سيأتي غيرهم ويتكفلون بالأمر.

وما أن جاءت عربة المطافئ حتى تجمعوا من حولها. منهم من يحمل ماءًا، ومنهم من يجر عتلة الحديد، والبعض يجلس ليلتقط أنفاسه وهم

ينفضون أيديهم. وهناك من يقف يتابع الحريق وقد ضم ذراعيه. غفا راعي الإوز المتعب وهو واقف، يتنبه بين الحين والآخر وهو يشعر بذراعيه تؤلمانه. وهنا تقدم منه أحدهم ونادى عليه:

أوندراش! أوندراش!

انتبه للصوت، وحقق النظر إليه، ثم ابتسم ابتسامه خفيفة انتشرت حول فمه العريض.

ماذا تفعل هنا؟

أنا قادم. . . أنا قادم! لنذهب لعقد القران – هيا بنا! لقد حبسوني في الحجرة منذ الصباح حتى لا أراك. والآن ربطوني بسور البيت.

ولماذا ربطوك هكذا؟

لانني جئت لآخذك للزواج. انظري! هذه ثيابي جديدة، سروال وقميص جديدان. لكنهم أخذوا مني القبعة. لكن لا يهم – هيا بنا!

لكنك مقيد.

فكي قيدي يا سوزكا، يدي تؤلمني، لقد أوثقوني بشدة.

كانت سوزكا ترتدي على رأسها إكليل من الزهور، وترتدي ثياب الفرح. لكنها متسخة وتحمل في يدها صندوقا من المياه كانت تلقي بها في النيران، وقد شمرت ذراعيها وثنت أكمامها التي كانت تشع بياضًا أثناء عقد القران

وهي الآن ملوثة بالشحم، وكأنها لقميص أحد رعاة الغنم. مالت على أوندراش لتفك قيده:

لا أستطيع! إنها أوثقوا قيدك!

نعم، بشدة، كذلك أحكموا حبسي في الغرفة لكنني فتحتها. كسرت ضبة الباب ومزقت الستائر. فكي أزرار القميص وستجدين سكينا معلقا في السترة.

فكت سوزكا أزرار القميص ووجدت تحتها خيطا أبيضا معلقا في السترة. سحبت الخيط حتى ظهر السكين من جيب السترة. شعر راعي الإوز بأنفاسها تفوح على وجهه، فانشرح لها صدره. منذ أن جاءت وهو يشم رائحة الفل تفوح منها كاد بسببها يغمى عليه. بعد قليل فكت قيده وبدأ يلوح بيده في الهواء:

الآن هيا بنا. فسيعقدون قراننا في المساء.

لكني تزوجت... من يانو دوبرافوفي.

حقا، حقا؟! لقد قالوا لي هذا - لكني نسيت. لقد تأخرت... لقد انتظرتموني طويلًا، أليس كذلك؟ كان يمكنك أن تفكي أسري كما فعلتي الآن. يا ربي! إنها خالتي... هي السبب! ألن تأتي معي، ألن تأتي؟!

شعرت سوزكا بالأسى لحاله. شعرت بتأنيب الضمير.

أنا لم انتظرك، لم أنتظرك. أنا لم أكن أريد أن أتزوجك – لقد كذبت عليك، أتفهم؟ لقد كذبت عليك. كنت أريد أن أتزوج من يانو دوبرافوفي، وكذبت عليك. لهذا نزل علينا عقاب الله.

لم يفهم راعي الإوز ما تقوله: لقد تأخرت، لكن الذنب ليس ذنبي، بل ذنب خالتي التي حبستني في الحجرة.

حاولت سوزكا أن تشرح له الأمر حتى يري الأمر على حقيقته. كانت تريده أن يسبها ويلعنها، ربما خفف هذا عنها ولو قليلًا:

أوندراش! لقد كذبت عليك. لم أكن أستعد للزواج منك بل من يانو دوبرافوفي... حاول أن تفهم!.

نعم، من يانو دوبرافوفي. عندما تأخرت أنا تزوجتي من يانو دوبرافوفي. لقد فات الأوان... فات الأوان.

عقدت سوزكا يديها وقالت:

لقد فقد عقله... فقد عقله! يا إلهي! أنا المسئولة، إنه ذنبي أنا، لا أحد غيري.

لم تطال النيران سقف الحجرة، فقد أخمدتها مياه عربة المطافئ. أما المباني الخلفية فقد تهدمت وأتت النيران على كل ما فيها من بضاعة.

اندفعت السيدة بيجانوفا من عند عربة المطافئ نحو المباني التي احترقت. بدأت تستفيق من الصدمة وتفكر في إنقاذ ما يمكن إنقاذه. رأت على البعد راعي الإوز وبجواره ابنتها فتذكرت الإوز:

أين الإوز؟ أين إوزي؟

أسرعت نحو عربة المطافئ لتسأل إن كانوا قد أنقذوا الإوز. لكن أحد لم يفكر في هذا، فهزوا جميعا أكتافهم. فوقفت أما الحظيرة تنادي على الإوز:

بط بط بط!!!

سمعت صوت الإوزة العجوز يرد عليها:

ساعدوني يا ناس! ساعدوني!

جاءها بعض الرجال من عند عربة المطافئ:

ما حدث؟!

الإوز.. إوزي في الحظيرة! ستحرقه النيران – ساعدوني!

سمعت صوت أحدهم يقول:

وماذا علي أن أفعل؟ ما هى إلا إوزات وستعوضينها.

لكنها ليست ككل الإوز. إنها تبيض دستة كل عام. سأموت إذا جرى لها شيء.

لكنها احترقت بالفعل. إن علية المنزل تحترق، ولا يمكن لأحد أن يعرض نفسه للخطر من أجل إوز.

إوزي! لن أراكي بعد اليوم؟!

فتح راعي الإوز عينيه على الفور وكأنهم رفعوا من عليها حاجبًا. ماذا يرى؟ إنه يري نيرانًا في كل مكان، أناس كثيرة يطفئون حريقًا. هو الوحيد الذي يقف متسمرًا في مكانه، ويرى كيف أن سوزكا وأمها تتألمان لإوز. الإوز الذي جمع بينه وبين سوزكا. على الفور خلع قميصه ودخل بشجاعة إلى الحظيرة. كان يعرف طريقه، فقد سبق له أن عثر على الإوز في فقص صغير بالحظيرة. الدخان يملأ الحظيرة. وجد طريقة لتجنبه، فقد رقد على الأرض حيث مازالت هناك طبقة من بعض الهواء النقي. صرخ عليه الرجال خارج الحظيرة:

هيا اخرج! تعالى بسرعة! دعهم يخرجون! سيأتون، بط بط بط!

لكن الإوز لم يتحرك. دخل راعي الإوز على ركبتيه إلى القفص، وبدأ يدفعها إلى الخارج. لكن الإوز النعسان لم يعرف إلى أين. صرخ فيهم أوندراش: بط بط بط!. ومن الخارج جاء صوت السيدة بيجانوفا: بط بط بط!. اتجهت عجوز الإوز صوب الباب ناحية السيدة بيجانوفا وهي تصيح على صغارها التي تقتفي أثرها وهي تصيح.

وما أن صلت عجوز الإوز عتبة الباب حتى سقطت شرارة من أعلى الحظيرة أضاءت الجو.

سقط سقف الحظيرة ومعه طبقة سميكة من القش المشتعل. وهاجت النيران من جديد. واشتعل القش الخامد. انطلقت من أفواه السيدة بيجانوفا والرجال صرخات مدوية، ثم وقف الجميع في ذهول ينظرون إلى ما يحدث.

اندفعت الإوزة التي أصابها الهلع من صوت النيران وهي لا ترى أمامها من شدة الضوء نحو صغارها وراعي الإوز، ثم سقطت بجناحيها المحترقين. لقد طالتها النيران والتهمتها.

ماء! أحضروا الماء بسرعة! لقد سقط السقف على راعي الإوز.

صاح منظم الحفل:

إنه عقاب الله له لأنه أشعل النيران...

وعلى الفور تجمعوا أما الحظيرة وأخذوا يرشون الماء على جدرانها. تجرأ بعضهم ودخل إلى الحظيرة وهم يرشون أخشابها المشتعلة، وخاصة عوارض السقف الخشبية ويجرونها بالخطاطيف. لكن هشيم النيران المشتعل دنا أكثر فأكثر من الأرض. علق بأحد الخطاطيف شيء ما أسود..

ابني! ابني حبيبي! جاء ليعقد قرانه! لن تزعج أحدًا بعد اليوم!

كان هذا صوت الخالة. تراجع الجميع أمامها وهم يتعاطفون معها لما ألم بها.

علق منظم الحفل قائلًا:

انظروا! إنه عقاب الله – إنه عقاب الله! لا ينجو الفاعل من عقابه!

لم تسمع خالته إلى ما يقوله.

انطفأت النيران في الحظيرة. لم يصب أكواخ المنزل الخشبية بضرر. كذلك لم تطال النيران الحجرة. لحسن الحظ لم تهب رياح، ولم يقم الفاعل في إشعال النيران في القرية.

في اليوم التالي وبينما السيد بيجان يزيل آثار الحريق عثر على جسم محترق لم يستطع أحد التعرف عليه...

في نفس اليوم جرت مراسم الدفن. في نفس التابوت وضعوا بجوار راعي الإوز قطعة اللحم النيئة المتفحمة التي عثروا عليها بين الأنقاض.

لم يعثروا على المهرج في أي مكان. عندها توقف منظم الحفل عن ترديد:

- انظروا! إنه عقاب الله – إنه عقاب الله.

مارتن كوكوتشين (1860 – 1928)

ولد مارتن كوكوتشين عام 1860. في مدينة ياسانوفا بإقليم أورافا شمال سلوفاكيا. يعتبر واحد من رواد مذهب الواقعية في الأدب السلوفاكي. اتخذت أعماله الأدبية خطين أدبيين رئيسيين وهما: رسم الملامح العامة للشخصية السلوفاكية وتصوير حياة المواطن في الريف السلوفاكي وعاداته وتقاليده المختلفة. عمل بهذا التوجه على توسيع آفاق المنهج الأدبي الواقعي، وفتح الطريق في هذا المجال أمام الأجيال التالية من الأدباء.

عمل مدرسًا بعد تخرجه في معهد إعداد المدرسين منذ عام 1878. أنهى في عام 1885 تعليمة الثانوي في مدينة سوربوني بالمجر ثم درس الطب في مدينة براغ. بدأ في ممارسة الطب في كرواتيا حتى عام 1904 ثم هاجر في عام 19 .8 إلي أمريكا الجنوبية ومنها انتقل إلي بونت أريناس في شيلي حتى عام 1922. عاد بعدها إلي منتجع ليبيك في كرواتيا حيث توفي هناك عام 1928. كانت زياراته لبلده الأم سلوفاكيا أثناء تجواله قاصرة على جمع مواد لرواياته وقصصه.

استمد مواده الأدبية من التراث الشعبي السلوفاكي والعادات والتقاليد ومن القصص والمستندات التاريخية التي تعود إلى المذهب الرومانسي وكذلك من نظريات العلوم المختلفة وبخاصة قوانين داروين وكومت.

كتب العديد من القصص والروايات من أشهرها قصص: البقرة الحمراء، النائم، سنوات الشباب، موت رجل من خوخول، رواية ريفية، سوق القرية وروايتي: بيت عند سفح الجبل والضحايا.

تعتبر قصة النائم والبقرة الحمراء من روائع كوكوتشين، وتمثلا قمة النضج الأدبي عند الأديب. نشرت قصة النائم لأول مرة عام 1886. يجسد كوكوتشين في القصة من خلال شخصية أوندراش ماخولا التعاطف الإنساني مع شخص نشأ في بيئة قروية فقيرة. استعمل الكاتب التحليل النفسي والاجتماعي في رسم الشخصية خارجيًا وداخليًا، الأمر الذي مكنه من تكوين صورة واقعية شاملة لحياة الريف السلوفاكي. من ناحية بناء العمل تظهر الشخصية المحورية أوندراش كشخصية مكتملة، لا تتطور ضمن أحداث القصة.

صباحا تحت ضوء القمر

ألفونس بيدنار

كان الوقت مبكرا جدًا في الصباح، ولم تدب الحياة بعد في الشوارع بهرجها مرجها وضجيج سياراتها وحافلاتها. لم يكن في شارع سمارجد سوى رجل ثمل تائه وحيد يغني بين الحين والآخر أغنية قديمة: أين كنت يا حبيبتي أيننا. أيننا حبيبتي أيننا؟

استيقظت سلفيا بريجوفا وسألت مرتاعة:

من لم يطفئ الأنوار؟

إنه القمر.

أين يضئ القمر؟ ميرو، هل نسيت أن تطفئ الأنوار؟

رد عليها زوجها مغتاظًا:

لم أنسى، إنه القمر.

وراح يقول في نفسه: يا إلهي! ها هي قد بدأت

أي قمر؟

في السماء، أين سيكون؟ نحن في شهر نوفمبر، لكن نوفمبر لا يضيء، إنه القمر.

نشر القمر نوره في سماء صافية وتسلل ضوءه عبر النافذة إلى غرفة الاستقبال، وانعكس على زجاج المكتبة، ودخل إلى الغرفة المقابلة (التي تسمى غرفة النوم)، ونشر شعاعه على غطاء السرير الأبيض.

وصل ضوء القمر حتى أضاء وجه سلفيا بريجوفا الجميل الذي تغطيه جزل من شعرها اللامع قليلًا، وأضاء عينيها المواربتين وفمها المفتوح قليلًا وأسنانها اللامعة.

سألت سلفيا:

أي قمر؟ قمر؟ أحقا؟

نعم، اذهبي وانظري بنفسك!

نهض الزوجان بريجنوف من على الأريكة المنبسطة في الغرفة الدافئة، مشيا حافيين القديمين على السجادة، واتجها صوب النافذة، وراحا ينظران إلى السماء الصافية حيث أضاءها البدر المستدير. سماء صافية خلف البيوت في شارع سمارجد وأسطحها المتعرجة، خلف مزاريب المطر والغرف العلوية المغطاة والمزينة بألواح وزهور ولوالب من المعدن. كان زوج سلفيا يحب منظر أي شيء تحت ضوء القمر، سلاسل الهضاب المتعرجة الداكنة اللون، ومن وراءها المداخن ورافعات البناء والكنائس وبخار القاطرات الذي تصده الرياح، وتتقاذفه وتعصف به، أو الطائرات

والمطارات. أي شيء سوى أسطح البيوت. أزاحت سلفيا الستارة تمامًا إلى جانب النافذة، ووقفت مع زوجها تتطلع إلى السماء خلف أسطح البيوت والى القمر. تراءت إلي ناظريها سحب بيضاء بعيدة، تتوارى بهدوء خلفِ القمر وخلف الضباب الأبيض. جعلها هذا المنظر تشعر وكأنها ترى أرضا مترامية مفروشة بالثلوج.

في أحد البيوت البعيدة في شارع سماراجد، وفي اثنتين من نوافذه صدر ضوء أصفر خافت ومصابيح نيون باهتة لم تجد لها مكانًا تضيئه في ضوء القمر الساطع.

انبعث من المدفئات صوت رنين وكأنه صادر عن ضربات شديدة وحادة.

قال السيد بريجني وهو يبتسم:

إنه السيد تادلانك، يضرب حصانه. مازال يعيش في مجده المنصرم... نسيت أن أقول لكي يا سلفيا أنني ذاهب في رحلة عمل.

إلى أين؟

إلى براغ

ولماذا لم تبلغني بهذا الأمر؟

اعذريني! لقد نسيت.

لم تنس، بل أخفيت الخبر عني.

قال السيد بريجني وهو مغتاظًا قليلًا:

لكن يا سلفيا، أنا أعرف أنك اليوم لست في أحسن أحوالك، دائمًا ما يحدث هذا عندما تشاهدين القمر البارد هذا، لكني لابد أن أذهب، ولا مفر من هذا.

حسنًا، اذهب، اذهب، لابد أن تذهب، لابد.

أنا مضطر.

قالت سلفيا: نعم. صمتت ثم عادت بعد لحظة لتسأله:

لكن لماذا تمانع عندما أريد أن أتحدث في هذا الموضوع؟ لماذا لا تريد أن تسمع أي شيء عن أمي؟ ربما يبدو هذا الأمر سخيفًا اليوم وخاصة أنه قد مر على ما حدث وقت طويل. كانت ليلة مقمرة كهذه الليلة. ولولا ذلك لما وافقنا عليك. فقد كنت شابة صغيرة.

ضغط بريجني بقدمه الحافية على قدم سلفيا الحافية فجعلها تصمت، ثم مر بيديه على أذنيها وشرايينها النابضة وشعرها وخصرها العاري. وما أن وصلت يداه إلى ثدييها حتى ذهب بها إلى الأريكة المنبسطة.

كان ضوء القمر يتسلل من النافذة، وينعكس على المكتبة في غرفة الاستقبال، ويضيء الفراش الأبيض ويرسل ضوءًا على فم سلفيا وعنقها وثدييها. كانت تتنفس بفم مفتوح قليلًا، وتطلق زفيرا حار من بين أسنانها البيضاء الجميلة على وجه زوجها.

قال زوجها فجأة:

يؤسفني ما حدث.

سألته سلفيا على الفور حتى لا يعيد التفكير في الأمر ويخفي من جديد ما يدعوه للأسف:

على ماذا تأسف؟ على ماذا يا ميرو؟

أنني لم أتحدث يوما ما إلى والديك.

دعك من هذا الأمر، لقد فات الأوان... تألمت كثيرًا من هذا الأمر. لقد ذهبت إلى جنازتهم الاثنين وحدي... الآن لا داعي للأسف...

التفتت إلى حزمة الضوء القادمة من مرآة المكتبة. دفعت زوجها ثم استدارت إليه بوجهها وراحت تزفر في عينه وتقول: نحن الاثنين، أنت تعرف، اعتدنا على هذا الأمر. لكن ما يؤسفك أمور أخرى. لم يكن يجب أن تتطلع إلى امرأة أخرى. فقط إلى جسمي ووجهي. أنا أعرف جيدًا أن ملكية كهذه تذبل بسرعة . لذلك أعتقد أن هذا هو سبب رحلات العمل الكثيرة وحتى هذه الرحلة الغير متوقعة أيضًا. ربما كان ما فعله أبي أفضل وأكثر طبيعية. فلم يحتاج لهذا سيارة خدمة أو طائرة أو فنادق.

سلفيا!

تقول أن اليوم هو يومي، لذلك يمكن أن أقول ما يحلو لي، أليس كذلك؟ هذا هو يومي والكلمة كلمتي.

نهض بريجني وانصرف يعد حقيبة السفر.

صرخت ذات مرة أم سلفيا في زوجها قائلة:

لماذا لا تعمل؟ نكاد نموت.

راح والد سلفيا يدخن سيجارة وهو غارق في التفكير. يلوك علكة بمذاق الكرز وهو يبتسم. (كان أستاذا في مهنته كما كان يقول عن نفسه أكثر من مرة. ليس في القرية بل في المدينة. كان صانع عجلات وسكير. ينفق ما يكسبه في الحانات. أما زوجته وأولاده الأربع سيلفيا و فينولا وموتسو ودوشيم فقد كان يقتاتون غالبًا على ما قد يجدونه في جيبه من نقود).

قال لها:

فلتموتوا! فليس عندي أموال، ولا ما أشتري به حتى الخشب.

بعد ذلك (كانت سلفيا مازالت صغيرة) تغيب أبوها من جديد عن البيت في الليل. أيقظت أمها أولادها الأربع، وألبستهم ما ثقل من ملابسهم، وارتدت هي الأخرى حذاء ثقيل، ثم عبرت فناء البيت ثم الحديقة حتى وصلت بهم خلف السور المتهدم الغارق في الثلوج، إلى أن وصلت إلى أرض البلدية ثم قالت:

لا يمكن أن أذهب وحدي... فإن عاد أبوكم ولم يجدني فقد يوسعكم ضربًا.. وأنا لن أسمح لأحد أن يمد يده عليكم.

في هذه المدينة (كانت في ذلك الوقت قرية، واعتبرها البعض أيضًا مدينة) تنتشر بيوت من عدة طوابق، برزت من بين البيوت الكثيرة أبراج الكنائس والأسطح التي غطتها الثلوج البيضاء. وفي السماء سطع القمر كبير ومنير. سار الخمسة تظللهم سماء باردة صافية، وتحت أقدامهم ثلوج متجمدة. خمسة ظلال تنعكس على الثلوج البيضاء، ظلال تتحرك وتتحطم فوق الثلوج.

كانت أم سلفيا تلتفت خلفها باستمرار لتتأكد من أن أبناءها الأربع يسيرون خلفها وقالت:

أنت يا موتسو ويا دوشيم ستساعداني، لذلك أخذتكم معي. . . ستساعداني. . كان يجب أن أصحبكم معي جميعًا. نعم، فلو كان أبوكم في البيت لأشبعكم كلكم ضربًا. وأنا لن أسمح لأحد أن يضربكم. لن أسمح لأحد أن يمسسكم. لا. . . لن أسمح.

راحت تكرر الكلام نفسه، وهي على قناعة أنها فعلت الأفضل. "وما هو الخطأ في هذا؟ خرجنا ونحن لا نلوي على شيء. لكن دعه يرى ويعرف!"، هكذا راحت تفكر في زوجها. "دعه يرى ما هو التشرد".

ذهب الخمسة خارج المدينة وهم يحملون منشارًا طويلًا، وبلطتين، وقطع من الحبال الطويلة. صعدوا إلى أعلى بمحاذاة شاطئ القناة عبر الأراضي المزروعة والمروج المغطاة بالثلوج والمراعي.

كان الثلوج المغطاة بطبقة من الثلج الخشن المتجمد، تتلألأ تحت شريط من ضوء القمر الأبيض.

تخيلت سلفيا أن العالم ليس سوى فضاء لا متناهي مغطى بالثلوج، تظلله سحب بيضاء وضباب أبيض.

تنتشر على التلال خلف المدينة غابات مرتفعة ومظلمة في هذه الساعة المبكرة من الصباح ومن فوقها يسطع قمر كبير يومض بنوره على سطح الثلوج.

خمسة أشخاص يقتربون على مهل من الغابة: أم وطفلان وطفلتان، خمسة ظلال مائلة للزرقة، يجرون أقدامهم عبر الزرع والمروج والمراعي، يسيرون في طريق منخفض تقل فيه طبقات الثلوج المتجمدة (تراكمت فيه طبقة من التراب الثلجي القادم من الحقول). تتصاعد من هذه الظلال الخمسة الداكنة صورة بخار شاحب، زفير ألم وإجهاد.

توقفت أم سلفيا عند أول مجموعة من أشجار التنوب المعتمة وقالت:

لن نذهب إلى ابعد من هذا، الأشجار هنا متناثرة والسماء مقمرة حيث الرؤية ممكنة، ولا يوجد ما يهددنا.

قالت سلفيا:

لماذا نحن هنا اليوم؟ فاليوم هو يوم الأحد، ويوم الأحد هو يوم أجازة.

لماذا لم ننتظر إلى الغد؟ فربما سيكون أفضل.

اليوم أفضل، علام تشغلين بالك أيتها المسكينة!

لماذا اليوم؟

اليوم سينام الجميع طويلًا ولن يرانا أحد.

ثم قالت لنفسها "أتمني أن لا يرانا أحد".

وماذا سنفعل؟

قال ابنها الكبير دوشيم وهو يشير إلى شجرة تنوب عالية:

ماما! أبي لا يمكن أن يصنع من أخشاب كهذه أي شيء، فلن تفيده في شيء. يجب أن يكون الخشب جاف، وهذا خشب طري، وأبي يحتاج إلى خشب صلب وليس هذا الخشب.

اخرس، لا تتفلسف!

ثم شرعت أم سلفيا تقطع بالبلطة شجرة تنوب عالية، ثم انضم إليها دوشيم، ثم تناوب معه موتسو. استمروا يقطعون طويلًا لما يزيد عن ساعة. قطعوا الشجرة ثم فصلوها بالمنشار. تحركت الشجرة وهي تصدر أزيزًا، ثم مالت وسقطت ودكت عدة شجيرات تنوب صغيرة في الثلج، وتكسرت أغصانها. وقفت سلفيا وأخوتها ينظرون في صمت.

قال موتسو:

ياله من صوت، أسمعتم؟

قالت الأم لأطفالها وهي تجفف جبينها:

انتظروا، اصمتوا جميعًا!

التزم الجميع الصمت، ووقفوا يتأكدون إن كان أحد قد سمعهم، أو إن كان أحدهم قادم. لكن الهدوء عم المكان. هدوء شديد لا يسمع فيه صوت حيوان ولا إنسان ولا حتى صوت قطار من بعيد. لم يكن هناك سوى ضوء المصابيح قادم من المدينة التي غطتها الثلوج، تبدد هذا الضوء في مساحات الثلج الذي يغطي المروج والمراعي. غطى البدر الكبير كل شيء بنوره الذي عكس ظلال أشجار وشجيرات التنوب عند أطراف الغابة. هدوء تام سيطر في هذا الوقت المبكر من الصباح، هدوء ضوء القمر البارد.

استردت الأم وولديها شجاعتهم بعد لحظة، فقاموا بنزع الأغصان الجافة والطرية من شجرة التنوب، وقسموا جزعها إلى ثلاث قطع، جاوز طول كل قطعة منها مقدار بضعة خطوات الأطفال.

راحت سلفيا وأختها فيولا تدقان بقدميهما على الثلوج الصلبة، ويعدوان حول أشجار التنوب الكبيرة والصغيرة وهما تنفخان في أصابعهما التي تجمدت من البرد فسببت لهما ألم ولسعة.

سقط الخشب على الأرض في انتظار الخطوة التالية.

قامت أم سلفيا والولدان يجرون القطع الثلاث على الثلج وقد وضعوها متجاورة وربطوها بالحبال، على أن يجروها بمحاذاة القناة إلى المدينة ثم إلى حديقة البيت، ومنها إلى الفناء حتى يستفيق صانع العجلات المحترف يوسف ماركو.

قطع الأخشاب تنتظر.

نظر الابن الأكبر دوشيم إلى أمه. كان يود أن يقول لها أنه لا جدوى من قطع الأخشاب هذه. فأبيه لا يستعمل مثل هذه الأخشاب وأننا "يا أمي نسرق عبثا، وهباء ستذهب جهودنا". لكنه اكتفي بالقول:

يا أمي! لنسترح قليلًا.

وهو كذلك دوشيم

مازال ينتظرنا الكثير من العمل.

قالت الأم:

هذا صحيح يا دوشيم

كانت الأم تتصبب عرقًا. ارتدت معطف المطر الكبير، ثم وضعت المنشار مع البلطات بين قطع الأخشاب وربطتهم بإحكام.

كان الولدان كذلك يتصببان عرقًا وكذلك الفتاتان، حيث كانتا تعدوان بين أشجار وشجيرات التنوب. نال التعب والبرد من الأطفال، لكن ما أدخل السكينة على قلوبهم هو أن الليل مازال قائمًا.

قالت أم سلفيا بهدوء:

سنعود إلى البيت في الوقت المناسب. سوف نجر الخشب بمحاذاة الطريق حيث الثلوج أكثر استواء، وعند حديقة البيت سنعبر الطريق. فقناة المياه لا تصل إلى هناك، كما أن الطريق هناك ليس منخفضًا.

سنجرها إلى داخل حديقة البيت. وهناك سنكون قد صلنا إلى البيت. لا تخافوا، سوف نتمكن من إنجاز العمل.

وماذا لو لم نتمكن؟

ولما لا؟

قد يرانا أحدهم.

من سيرانا يا دوشي؟

أهل المدينة!

قالت الأم لابنها الكبير:

لن يرانا أحد، الثلوج صلبة ومتجمدة، ولن يعرف أحد أن الخشب ذهب إلى حديقتنا وإلى فناء بيتنا.. أنتم يا أولاد ستقومان بجر الخشب وأنا سأدفع من الخلف!

كانت أم سلفيا تعرف أنها تقوم بعمل صعب وغبي، لم تقم بمثله في حياتها. عمل خطير ولا طائل منه. "لكن دعه يعرف!"، قالت لنفسها وهي تفكر في زوجها "فليرى أنني حاولت مع الأولاد أن نساعده! عله يستفيق ويعود لعقله. إن لم يقدر ما أفعله فلترى أولاده ذلك! حتى هم قد لن يقدروا ذلك، فياليتهم في المدينة يقبضون علينا، على الأقل ستحدث فضيحة وسيوصم هو نفسه بالعار، هو.. أبو هؤلاء المساكين!" قالت أم سلفيا للأولاد: هيا بنا!

ثم انطلقوا عبر المراعي المنحدرة والمغطاة بالثلوج الصلبة. سارت الأمور بشكل جيد. كانت الثلوج الصلبة مغطاة بطبقة من حبيبات الثلج الصغيرة في هذا الصباح الذي يضيئه البدر. كانت الحبال المعقودة حول الأخشاب لتمسك بها تحتك بالثلوج. ساروا جميعًا عائدين إلى البيت ومعهم الثلاث قطع الخشبية. الولدان في المقدمة، وأمهم في الخلف، ومن ورائهم الفتاتان. سلفيا تبلغ من العمر سبعة أعوام وأختها فيولا أكبر منها بعامين. كانتا ممسكتان بإمهما وهم ينزلون من على السفح المغطى بالثلج الصلب.

قالت الأم لنفسها: لقد أعطيت الأطفال أسماء جميلة. إن الإنسان يسمي أولاده بأسماء جميلة لم يسمها أحد بعد، ويتمني أن تمنحه هذه الأسماء حياة أسهل أو قليلة المتاعب. إن الإنسان يسعى طيلة حياته من أجل تأمين حياة أفضل، ربما لا يسعى الجميع من أجل هذا الغرض، لكن الغالبية تفعل ذلك. قالت الأم بعد لحظة لأولادها: انتظروا!.. لنتوقف قليلًا.

توقف الولدان.

راحت أم سلفيا تسترق السمع. قالت لنفسها: لعل أحدهم يأتي، شخص ما من أهل المدينة، وليكن مهندس الغابات بنفسه، ليأتي هو بنفسه، ويخلصهم من هذا الموقف الفظيع، ليأتي ومعه أعوانه لترى كل المدينة الفضيحة البشعة التي حلت بعائلة ماركوف! سيقولن أنهم ذهبوا يسرقون من غابات المدينة، يسرقون الخشب. . ربما قد يكون هذا أفضل من هذا الموقف الذي نحن فيه حتى لو نجحنا. . واصلت استراق السمع.

لم تسمع شيء. لم يكن هناك أي صوت. هدوء تام. كان الساعة مازالت الرابعة صباحًا، والمدينة تغط في نومها. ترى من بعيد ضوء أصفر باهت قادم من بعض المصابيح. ترى فضلًا عن أبراج الكنائس حوائط وأجزاء من الأسطح. كل شيء غارق في ضوء القمر الأبيض، بما فيه المراعي والمروج والمزروعات. ابيضت الأرض طولًا وعرضًا. انتشرت السحب في السماء، وعم الضباب. وامتد حزام أزرق اللون على الأرض. كان الطريق منخفضًا. سارت أم سلفيا وأولادها بمحاذاة هذا الطريق على الثلوج المستوية وهم يقتربون من البيت.

ضحكت أم سلفيا من سعادتها بنزول الثلج. إنه ثلج كثير والحمد لله! فقد بدأت العاصفة الثلجية تهب منذ بداية شهر ديسمبر، هبت باستمرار بطريقة جنونية حتى امتلأ الطريق المنخفض بالثلوج عن آخره، وتطاير منه الثلج إلى الأرض، ولم يبق في الطريق سوى قطع ثلجية، وطين متجمد، ورمل، وأحجار حادة. تارة يذوب الجليد وتارة يتجمد. تشرق الشمس كل يوم، وتجمد الثلج حتى كون قشرة ثلجية ناعمة كالمرآة عصفت الرياح بكل ما يتساقط عليها من ثلوج جديدة.... كيف يمكن أن تسعد من هذا المشهد؟ راحت تجفف دموعها.

أحيانًا كان يجرون قطع الأخشاب على القشرة الثلجية، غير أن القشرة هذه كانت خشنة، واحتكت بشدة بالحبال التي وثقوا بها الأخشاب.

قفوا!

توقف أخوة سلفيا بجوار الطريق المنخفض، كما توقفت سلفيا وأختها وأمها وراحوا يتسمعون.

قالت بعض لحظة:

حسنًا، لا أسمع شيء، لنواصل السير! ببطء وبحذر!

وما أن تحركوا حتى انقطع أحد الحبال من أسفل القطع الخشبية، ثم انقطع الثاني والثالث. انتفض الولدان وانفرطت قطع الخشب على الثلج.

تسمر الجميع في مكانه، وانفجرت أم سلفيا في البكاء، راحت تبكي بصوت عال وهى ترى قطع الأخشاب تتدحرج إلى أسفل بمحاذاة الطريق المنخفض. أصابها الخوف من أن تنزلق الأخشاب إلى الطريق وينتهي كل شيء. ولن يقدر أحد على رفعها وستبقى هناك. وهنا انفرجت أساريرها وكادت تطير من السعادة. نعم، هذا هو المطلوب، من الأفضل أن تسقط في الطريق. ستصيبنا الفضيحة جميعًا.. لكن ماذا سأقول للأطفال؟

تدحرجت الأخشاب، وتدافعت من أطرافها، وراحت تقفز كالأطفال المسكينة. تتدافع وتصدر طنينا وتبتعد أكثر وأكثر ثم توقفت بجوار الطريق المنخفض قبل المنحدر الثلجي.

هيا بنا يا أولاد، يا إلهي!

انطلق الأولاد وراء قطع الخشب.

راحت أم سلفيا والأولاد يجمعون كل ما سقط على الأرض: المنشار، والبلطات، وقطع الحبال الممزقة، ثم أسرعوا نحو الأخشاب وهم يسيرون على قشرة الثلج الصلبة الناعمة والزلقة. وصلوا عند الأخشاب. قاموا بوصل الحبال الممزقة، ورفعوا الأخشاب على الأرض المستوية وربطوها. أخذت سلفيا تجر المنشار الكبير وأختها فيولا تجر هي الأخرى البلطات. الولدان في المقدمة يجرون الأخشاب، وأمهم تمسك بها من الخلف. جروها حتى وصلوا إلى الطريق المؤدي إلى حديقة بيتهم بعد أن عبروا السياج المتهدم. ثم سحبوها من الحديقة إلى الفناء.

مال القمر نحو المغيب، وطأطأ وجهه الكامل الكبير، وأخذ يتوارى خلف جبال المدينة التي تغطيها أشجار التنوب.

لم يكن أبو سلفيا قد عاد إلى البيت بعد. انتظره الأطفال بسعادة ليرى الأخشاب التي جلبوها. لم يغلبهم النعاس. لكن عندما عاد صباح يوم الأحد صانع العجلات الماهر السيد يوسف ماركو رأى في الفناء أخشاب التنوب فضحك وسأل زوجته قائلًا: ماذا سأفعل بهذه الأخشاب؟ ماذا يمكن أن أصنع منها؟ أسياخ للطعام؟ لقد قمت بعمل غبي، وستظلين هكذا ولن تتغيرين حتى ولو بمعجزة.

بكت أم سلفيا، وعض الولدان على أسنانهم، أم الفتاتان فلم يفهما شيئًا مما حدث.

قالت سلفيا بريجنا لزوجها الذي ارتدى ملابسه استعداد للسفر: يا له من صباح! لن أنساه في حياتي. ساد في صباح ذلك اليوم صمت مطبق تحت ضوء القمر. لم تحدث لنا فضيحة، بل ربما لم يعلم أحد بما حدث، أو ربما عرفوا ولم يتسببوا لنا في فضيحة، ونأوا بنفسهم عن أن يفضحوا أناس آخرين.

لم يعلق بريجني على ما سمعه.

مر ضوء القمر القادم من زجاج المكتبة على سلفيا، وبدأ يختفي من على ثدييها. ملأ الغرفة ضوء باهت، غطي الأثاث واللوحات الزجاجية والأبواب البيضاء الناعمة وسرير الأطفال اللامع. كذلك لمع التلفاز تحت ضوء القمر في غرفة الاستقبال.

لقد قلت لي إن اليوم يومي

نعم.

قليلة هى أيامي هذه.

بالطبع قليلة، فنادرًا ما يكون مثل هذا الصباح وهذا القمر، فالجو إما غائم أو نحن نائمون.

هذا أفضل على كل حال، فلو تكرر يوم كهذا كثيرًا، فلربما كنت اتهمتني بأنني قمرية.

بل تكادي تكونين كذلك.

لماذا كنت تتجنب لقاء أمي؟

خفت النور ثم أظلمت الغرفة.

قال السيد بريجني لسلفيا:

تعال! هيا نودعه، فهو ينصرف.

مال وجه القمر الكبير، وبدأ يتوارى خلف البيوت في شارع سمرجاد وخلف مزاريب مياه المطر البالية. اختفي وحل الظلام على الشارع. بدأ ضوء المصابيح يظهر والنوافذ المضيئة تبدو جلية. تعالى ضجيج السيارات وقطارات الترام.

قبل السيد بريجني زوجته ليودعها وقال:

كنت أعرف بالذي حدث صباح ذلك الأحد. أخبرني به دوشيم. . . لم أرغب أن ألتقي بوالدتك يوما ما بسبب ذلك اليوم. لم أحب أن أتعرف عليها أكثر. اعذريني! ربما كان هذا من أجلك... الآن يجب أن أنصرف، لقد تأخرت.

من أجلي؟

نعم، اعذريني! إن السيارة تنتظرني أمام البيت.

من أجلي... أتعني أن البنت لأمها؟ كنت خائف أن تتعرف من خلالها على ما ساكون عليه يوما ما؟ عندك حقك، فالبنت تشبه أمها. كم الساعة؟

تقريبا، السيارة تنتظرني! الساعة قاربت السادسة! انتظري! نعم، بعد سبع دقائق- سلفيا! إن الجو مظلمًا والطقس بارد. ابقي في البيت. اليوم

هو يومك، إنه يوم عيدك وهو عيد كبير، فلتحتفلي به، وابقي في المنزل. رغم أن هذا لن يفيدنا كثيرًا، ولن ينفعنا بشيء. لكن فكري قليلًا في الماضي وحالة الفقر. لديك اليوم بطوله!

قالت سلفيا:

هذا الخشب لم ينفعنا في شيء، استمر أبي في تعاطي الكحول. أصيبت أمي في ذلك الصباح بالبرد، وعولجت منه طويلًا، أصيبت بذبحة صدرية في رئتها. حتى ذلك لم يفيدها هي الأخرى المسكينة.

انصرف بريجني.

لم ينفعها أي شيء،ولا حتى الأطباء ولا المصحة.

صدر أزيز من السرير المعدني اللامع وتحرك. استيقظ فيه طفل يرتدي قميص طويل. اتكأ على السرير بظهره وبدأ يفرك عينيه بكفيه. أحضر بريجني لسلفيا صينية عليها خبز ولحم بارد مقطع بطريقة غير منتظمة وزجاجة نبيذ رفيعة وطويلة وكأسين وقال:

هذا أقل ما يمكنني عمله سلفيا، أنا تأخرت كثيرًا. أين أضعه؟

قالت سلفيا:

ميرو، كم مرة رجوتك أن تقلل من رحلات العمل هذه، أليس كذلك؟

ثم هزت سلفيا يدها رافضة النبيذ واللحم والخبز قائلة:

لا، لن أحتفل، رغم أنه عيدي فلن أحتفل، خذ هذا بعيدا!

لماذا سلفيا؟

أشارت إلى الصينية ويدها عالقة في الهواء ثم أشارت إلى الغرفة وتوقفت عند الطفل في سريره:

لهذا السبب! هل هكذا يبدأ اليوم؟ لقد كان أبي يبدأ يومه هكذا، لكن ليس بهذا الطريقة الغبية، أي بالنبيذ. لقد كان أستاذا في مهنته، كان يبدأ يومه نائمًا بالبيرة، ويخلطها دائما بالروم. أحمل هذا بعيدا!!

هل جننت! ابق في البيت! أنا فعلًا في عجلة من أمري.

انصرف!

وأنت! لا تغرقي في الماضي، وإلا ستصبحين مثل السيد تادلانك.

كان الطفل يفرك عينيه، لكن هذه المرة ليس بكفيه بل بساعديه، وراح يبكي بصوت منخفض.

انصرف بريجني.

لطالما كنت غبية، أليس كذلك يا ميرو؟ لو كنت تعرفت على أمي، لكنت عرفت كيف سأصبح غبية. لكني سأتعقل. لن أفسد رئتي كما فعلت أمي من أجل أبي...

نهضت سلفيا، وتوجهت صوب سرير الطفل، ورفعته الطفل وقالت:

أليس كذلك يا ميرو، يكفي أن أبوك عاقل؟ أليس كذلك؟ هذا يكفي، ألمهم أن يكون...

راحت تفكر في سعادة بأنها ليس عندها أربعة أولاد كأمها. فهذا عدد كبير. راحت تفكر في ميرو الذي تحمله في أحضانها، وقالت: هذا صحيح يا ميرو، إنه عدد كبير، كبير جدًا... هيا بنا!

انصرف بريجني وهو يرتدي حذاء ثقيلًا ومعطفًا وقبعة من الفرو، ويحمل في يده حقيبة، لم يسمع آخر كلمات قالتها سلفيا. فقد كان بالفعل متأخرًا.

ألبست زوجته سلفيا إبنها ميرو وارتدت هى الأخرى ملابسها. وبعد أن تناولت الفطور وهى تحمل ابنها ميرو الذي كان يبكي، نظرت إلى نفسها في المرآة لتأخذ جرعة من الرضا على نفسها تكفيها طوال اليوم، ثم خرجت من العمارة واتجهت إلى الشارع المتجمد. توقفت عند السيد تادلانك، مسئول التدفئة.

كان مازال منكبًا على عمله. سأل ابن سلفيا قائلًا:

أهلا، كيف حلك يا ميرو الصغير؟ لماذا تبكي؟ ماذا بك؟ أهلا!

ثم اعتدل وأضاف:

ماذا تعني كلمة أهلا هذه يا سيدة بريجنا؟

قالت:

لا أعرف، هى كلمة تقال كذلك، أهلا!

أنهى السيد تادلانك حديث الصباح قائلًا:

على رأيك، دائما تراودني رغبة في القفز في الهواء، لكني أخاف من أن تكسر رجلي. لكن ها هو الهدوء قد عم والحمد لله!

هدوء؟

نعم، هدوء لطيف.

بل إنه ضجيج ككل صباح.

ألا تعرفين ما حدث؟

لا.

قال السيد تادلانك

لقد نقلوا السيدة باكايوفا إلى المستشفى، لكن بعد فوات الأوان. لقد فتحت على نفسها الغاز فماتت.

مال على طفل سلفيا العصبي المتواصل البكاء وقال:

أهلا يا ميرو الصغير، أنا أحبك كثيرًا...

ثم اعتدل وقال:

سيدة بريجنا! هذا يحدث للأشخاص الذين يضعون بيضهم في سلة واحدة. فالمرحومة السيدة باكايوفا لم يكن لديها سوى ابنة واحدة طويلة القامة تعمل رسامة، ثم صارت وحيدة بعد أنت غادرت ابنتها العمارة. كانت تفكر فيها كثيرًا، غير أن ابنتها هذه اختفت من حياتها.. الناس

يهربون من العمارة. أهلا يا صغيري الحبيب – أطيب أمنياتي لك يا سيدة بريجنا، إلى اللقاء!

إلى اللقاء يا سيد تادلانك، لكنك وضعت بيضك في كم سلة؟

أنا؟

نعم.

في خمس سلات، خمس سلات يا سيدة بريجنا، خمس سلات، خمسة أحصنة، فالحصان الواحد لن يقدر على جرك بمفرده – أما تسعة فسيجرونك بطريقة أفضل.

تسعة؟

نعم، عندي في حجرة التدفئة أربعة، وفي البيت خمسة، نعم هو كذلك، إلى اللقاء

إلى اللقاء.

الفونس بيدنار (1914 – 1989)

هو أديب ومترجم وكاتب سيناريو. ولد في 13 أكتوبر 1914 في مدينة روجنيوفا نيبودرازي. درس علم اللغة واللغتين السلوفاكية والتشيكية في كليتي الفلسفة في جامعة شارل ببراغ وجامعة كومنسكيهوا في براتسلافا. عمل مدرسا في المدارس الإعدادية ثم محررا وكاتب سيناريو في فترة لاحقة. ترجم من الأدب الإنجليزي والأمريكي. عمل في الستينات والسبعينات من القرن الماضي محررا إذاعيا في استوديوهات السينما التشيكوسلوفاكية في براتسلافا وتوفي في 9 نوفمبر 1989.

دخل مجال الأدب كأديب شاب يرفض الأدب القائم على سرد تجارب شخصية. أثر أسلوبه هذا في تطور الفلكلور السلوفاكي وخاصة فلسفة ومفهوم أدب الرثاء الشعبي والفني. من أولى رواياته القمة الزجاجية عام 1954 يعالج فيها الإنسان ومشاعره ومسؤوليته تجاه نفسه وتجاه الآخرين. أصدر كذلك العديد من الروايات والقصص الأخرى منها: أبدا لن تكوني وحدك، ساعات ودقائق 1956، مقابل حفنة نقود. وقد صدرت هذه الرواية على أجزاء بدأ من 1970 – 1981. رواية العملة المثقوبة وصدرت بعد وفاته 1992.

من مجموعته القصصية بلوك 4/ب اخترنا قصة (صباحًا تحت ضوء القمر). في هذه المجموعة التي تكون في نهاية الأمر رواية متصلة تعالج مصائر وعلاقات وأحلام الأجيال المختلفة. تدور أحداثها في أحد شوارع العاصمة براتسلافا الذي ولد من خيال الأديب. يعيش أبطال القصص في عمارة

واحدة. الأبطال ينتمون إلى أجيال مختلفة. منهم العجائز الذين يحلمون بالماضي، الجيل الوسط وتأرجحه في العمل والحياة العاطفية واتجاهاته والجيل الشاب وهو في مطلع حياته ومشاكل الدراسة والمستقبل.

لهو رجال

رودولف سلوبودا

1

قلت أنك تتطلع أحيانًا إلى الوحدة. إنه الحلِ المثالي النسبة لك. لكن كيف تتصور بالتحديد هذه الوحدة؟ أتوقع أن تكون شيء كركن مليء بألعاب الأطفال، تلك الألعاب التي أعياها لهو الأطفال بها طويلًا، ولم تُرَص في مكانها بعد، فقط تستلقي هنا لتستريح. يجلس من فوقها هذا الإنسان الصغير (وهو أنت)... يبدو له أن العالم يعيش في تناغم لا مثيل له، وأن جميع البشر أخيار. تشعر أنك طفل، مازلت لا تعرف القراءة. تغلق عينيك، فيغلبك النعاس. نعاس قصير، قصير جدا. يبدو لك بعده أن كل شيء كما كان يومًا ما. والداك يأمرانك أن ترتب ألعابك. ثم تأتي نهاية هذا اليوم عندما يقف أصدقائك عاريين في أحواض البانيو، ينتظرون اللحظة التي تضع فيها أمهاتهم إسفنجة مشبعة بالصابون على أجسادهم. ينتظرك أيضًا حمام في حوض الغسيل الخشبي الذي تجره جدتك على الأرض، فيصدر ضجيجًا لطيفًا ودمدمة وهي تخبط عليه لتهز الفضلات أو تهز لا قدر الله العنكبوت الذي اتخذ من الصندوق مأوى له، ولم يتمكن من العودة إلي بيته بين ذويه. لكن ممنوع القتل، رجاء!

لكل يوم اسم. كلمة الثلاثاء رغم أنها جميلة وخاصة عندما تقولها جدتي، لكن السبت يوم جميل، إنه اليوم الذي يأتي بعده يوم أجمل منه. لابد أن يعترف الكبار أن العالم يسوده في يوم السبت نوع من التناغم الذي يتطلع إليه.

لنعد إلى موضوع الوحدة. كانت هناك أيام أخرى انطبعت في ذاكرتك منذ الطفولة. انظر مرة كما سبق أن قلت إلى السحب التي تتألق في أشعة الشمس: ظاهرة معروفة، أطرافها ذهبية، تبدو كجزيرة على وشك أن تشتعل فيها النيران. لكن كيف تتبدل أمام عينيك: شكلها يبعث في نفسك الفزع! جمالها يختفي ويظهر في نفس اللحظة. ماذا تقول في هذا الأمر، أنت يا من لا يعرف القراءة؟ أم أنك تشعر بالتناقض في تلك السحب المتغيرة وفي تصورك عن سكينة الروح، التناقض في تصوراتك عن الاستقرار والضمان الأبدي.

لا، لا يجب أن تفنى هذه السحب تمامًا. امنحها اسمًا. يمكن أن تذهب إلى مكان آخر لا تري منه السحب: سيمنحها الاسم البقاء والخلود. تلك هى الوحدة التي تعيشها. اسم الحالة التي تحاول عبثًا الوصول اليها. هل عرفت؟ أم ربما مازلت لا تعرف. أليست هذه هي الوحدة، أم لا؟ عندك مشكلة في تسمية الأشياء. أ هذا هو الموضوع؟ عفوًا؟

سأعزف لك شيء.

هي يمكن أن أضبط الآلة؟ أتحب البيانو غير المنضبط؟ حسنًا. أنا لست أرستقراطيًا إلى هذه الدرجة، فأنا أتحمل سماع أصوات أخرى

كتلك الصادرة من الصالونات. أعتذر عن الكلمة. إن كلمة صالون تشعرني بالراحة، أنطقها بسعادة، لابد أنك تحبها أيضًا! فالكلمة التي تشير إليها حبات الشيكولاتة مشتقة منها أيضًا. أحيانًا وأنا في المتحف أفكر بجدية، أغلق عيني مثلك تمامًا، وأتخيل أنني في الصالون. رائحة الأثاث القيم الذي لا يمكنهم استخدامه، تلك السجاجيد تفوح برائحة تشبه رائحة المجد القديم، تمامًا مثل كلمة القيصر. إنها شبيهة بهذا البيانو! أليس كذلك؟ لقد ألفت هذه المقطوعة الموسيقية بنفسي. اسمع! أترى! ها أنت تذكرت. أين بقراتي.. . أين. موسيقي بسيطة، على كل حال لا يمكنك أن تهين الحيوانات بموسيقي هادفة ومعقدة. أربعة نغمات، إحداها في الواقع تستعمل للزينة وليست ضرورية. فهى أغنية تخص راعية الماشية التي تتوقع أن يكون لها الحق في رخصة ما. إنه عمل قوي. فكل من يرعى أربعة أو خمسة بقرات لا يمكن أن يكون ضعيفًا. توجد هناك بالتأكيد حشائش جيدة وكثيرة. أتعتقد أن تلك البقرات تخصها فعلًا كما تقول كلمات أغنيتها؟ يا بقراتي.. . البيضاء المبرقشة. وماذا أيضًا؟ أعتقد أنها فقط ترعاها، وضمير الملكية هو مجرد مظهر من مظاهر الحب. فكل ما نحبه هو ملك لنا، ملك لي.

أم أن هذا غير صحيح؟ قد لا تصدق أن في الموسيقي فكاهة. تقول للطفل: توتوتو، فيبتسم على الفور لأنه يفهم الموسيقى والأصوات. فليتعالى من يريد، وليتظاهر بما يحلو له، فإن كان اسمه مضحكا فمن

الصعب أن يكون مدرسًا. هل يمكن يسمى أحد المدرسين طفاية سجائر؟ غير أن الأطفال يعتادون على الاسم.

أعرف بأنني أصبتك بالإرهاق. سأعزف لك شيء من الموسيقى الهابطة. البعض يعتقد أن عازفو الموسيقى الهابطة لا يجهدون أنفسهم، وأنهم يكتبون أي كلام. لكننا نعرف أن موتسارت لم يبذل مجهودا كبيرًا في تأليف موسيقاه. هذا ما نعرفه نحن، لكن رأي موتسارت في هذا فلن يعرفه أحدًا مطلقًا. يجب أن تعترف: إن أرباع النغمات، والسلالم الموسيقية الإثنى عشر تترك تأثيرا عاديًا إلى حد ما. تبدو متكررة. وفي هى في الواقع مملة. لكن عندما نترك من السلم الموسيقي ثلاث أو أربع نغمات، تصير الموسيقى أفضل. هذا هو فن الاستغناء عن عدة نغمات وصناعة نغمات موسيقية، أو لا نترك أية نغمة وسنحصل حينئذ على موسيقى نشاذ. حسنًا، سأغلق البيانو، وأقوم بالترويح عنك بالكلمات. سأبدأ حالًا، فورًا. أنا أنظر إلى ما يحدث في الشارع. أمر صعب. الناس يسيرون، يمشون في الشارع. بعضهم قادم، وبعضهم منصرف. أتعرف هذا الرجل الذي يعبر الشارع؟ إنه شخص يهمك أمره. إلى أين يذهب؟ إنه دخل البيت وآخرون يخرجون منه. إنه قادم نحونا. أو كأنه قادم نحونا. في الواقع هو ذاهب لقضاء حاجته. إذن فهناك من يسير يمينًا، ومن يسير يسارًا، ومن هو قادم، ومن هو ذاهب. من هذا نعرف الشرق والغرب والشمال والجنوب.

أتريد أن أحكي لك حكاية ما؟

هل تحب قصة حياة شخص ما، أو قصة من الواقع، أو بطولة ما؟ أتريد أن تعرف إلى أي مدى يصبح التاريخ ملكا لنا؟ رأي بسيط: مازلنا غير واثقين تمامًا من ضرورة أن نحب الأشخاص المقربين منا. هل يجب أن يكون شعورًا ما، أم يجب أن يكون على شكل تعليمات، شأنها شأن كل التعليمات الأخرى. أم أن الأمر برمته تافه؟ كيف نربط هذا بالموسيقى، والفن، والتفكير، الاقتصادي، والنتائج البيولوجية، والبحوث الاجتماعية؟ هل نعتمد على إحساسنا؟ هذا أمر صعب. لماذا تعتقد أنك تلفظ أنفاسك الأخيرة؟ أنا لا أرى عليك سوى ما أراه عليك دائمًا. لا أكثر ولا أقل. أنا أيضا ألفظ أنفاسي الأخيرة. . المعذرة! لا أقصد أن أثير أحزانك، بل على العكس أريد أن أفتح مجالًا للحوار. سأقول لك رأي في حياتك. أنا أعرف عنك الكثير. وسترى أن الوحدة أمر لا جدوى منه – أعتقد أنه لا مكان لها سوى في رحم الأمهات. لكن لا يمكن لأحد أن يعود إلى هناك.

كل حكاية يمكن أن تكون حكايتنا، وهي غالبًا كذلك طالما توقفنا عن التفكير في الفروق العنصرية. وعلى كل حال: الأشخاص الجميلة تعتقد أنها لافتة للأنظار، ولها حاسدون كثيرون. نفس الشيء يعتقده الأشخاص الدميمون أيضًا. في الواقع لا يوجد شخص قبيح. بل يوجد شخص كريه. هل تعرف هؤلاء الرجال المزيفين؟ هل الذنب ذنبهم؟ علينا أن نلوم مربيهم وآباءهم ومعلميهم. هل يمكن أن يكون الإنسان مزيفًا من تلقاء نفسه؟ لا. هم يعلمونه هذا؟ يجعلونه يرتكب الأخطاء. لا يأبهون له، ولا يحذرونه من أن يكون مزيفًا. لا أحد يقول له: من الأفضل لك أن تكون صادقًا. لماذا

أنت مزيف؟ نقول هذا لهم من خلف ظهورهم. وكأننا لا نرى ونحن معهم أنهم مزيفون. فكيف إذن سيعرف هؤلاء المزيفون أنهم كذلك؟ من ناحية أخرى هذا في الواقع كحيلة عسكرية. هذه الحيلة في واقع الأمر تقلل أحيانًا من الخسائر في الأرواح. تساعد على النصر السريع والرخيص. يمكننا أن نسهب الحديث في هذا الموضوع. إن حيل الحروب هي جزء من فن الحرب الذي يبدأ بأن يتعلم الجندي وضع قناع. فهو يرتدي على رأسه حزمة من الأزهار تحتها خوذة، ويمسك بعصا وهو يمشي أو يزحف. . . إلى هذه الدرجة يعتبر الزحف نوع من الأمان يمكنه من الانطلاق. يقوم الجندي بالحفر. كل السَّرية تحفر. إن الأرض لا تغطيهم بالتأكيد، بل هم قابعون في حفر، في مكان يطلق عليه خندق، لا يراهم العدو. فهو لا يرى سوى أرضا فضاء. رغم أنه يعرف أنه قد تكون هناك سرية بأكملها تحت الأرض. لكن لا يعرفون عددهم، فيقفون منتصبين، هدفًا لغيرهم بدون أغصان. إن الحرب ليست ملاكمة في الحلبة. الأمر الأهم هو: لماذا الحروب؟

أعرف أنك فكرت في هذا كثيرًا. لقد قلت أن الحروب لا تسببها الكراهية. الأمر يتعلق بسبب آخر. أعرف جيدًا أن هذه المشكلة لا تعنيك اليوم، ولهذا ستبدأ بالحديث عن حياتك. ستفاجأ من كثرة التفاصيل التي أعرفها عنك.

إذن فأنت وجدت لنفسك مكانًا في هذا العالم العاصف. بما تؤمن؟ وإلى من تنتمي؟ لن أنتمي إلى أحد! هكذا قررت أنت في نهاية الأمر. أنا لا

أقول أنك مخطئ. بل على العكس أنت لم تفقد شيء، بغض النظر عن مثابرتك المثيرة للدهشة، وقدرتك على تلقي ضربات الجحيم، وإذا ما أخذنا في الحسبان حياتك الشخصية المريرة، حيث أن غالبية معاصريك ينضمون إلى غيرهم كي لا يضطرون إلى العمل بمفردهم - فهم يبحثون عن شخص يساعدهم في تحمل العبء. وكثيرًا ما ينتهي مثل هذا التعاون بأن يلقون العبء بالكامل على أناس آخرين. إنه لأمر غير شريف! إنه شيء لا يرضى به أحد! لقد أدركت أنك إن انضممت إلى شخص آخر فقد نعتقد بأنك ضعيف. ماذا كنت تقصد؟

إن الفطنة التي يتمتع بها الإنسان تعمل من تلقاء نفسها، وتعتبر كافية بلا جدال عند البت في موضوع الحقيقة. أنت رجل سعيد! فما هو أعظم من هذه الفطنة؟

لكن عفوا! أنا مثلك أيضًا، فرجاء اعذرني! أليست أهدافك صغيرة جدًا؟ هل يمكن أن تعرف وأنت في صومعة وحدتك الأهداف العظيمة التي تليق برجل مثلك؟

لو لم نكن على فراش الموت نرقد متجاورين كحالتين يتابعهما الأطباء، لو تغلبنا على هذه الأزمة وقمنا بالطيران خارج هذه الجدران الكئيبة، فإلى أين سنطير؟ هل مازال عندك خطط؟ أم مازال عندي أنا خطط؟ في الواقع أنا لا أعرف. كل الخطط في حالتنا هذه عبارة عن كوميديا سوداء. متى ستتحقق ومن سيعرف بها في الأساس؟ يقال أننا وكل من على شاكلتنا لهم الحق في الشك. ويمكن أن نقول أن الإنسان يرغب

في هذه الشكوك - عندما انصرفت من عند المرآة وأنا أرى أن وجهي يبدو وكأنني يجب أن أعيش، يبدو كما كان قبل عشرين عامًا (لأنني أنام كثير). تخيلت أنني قد أتمكن من ارتكاب خطأ صغير مع امرأة. . . حتى تفهمني. بالمناسبة لقد عثرت على سيجارة.

لا تضحك. إن التبغ غير ضار، تمامًا مثل الكفر أو العكس، إنه مثل الصلوات الصادقة. أترى! إن يداك ترتعشان. أنت لا تدخن؟ كف عن هذا، لا تؤذيني! يا أخي أنا سرقت هذه السيجارة. إنها قوية. حاول تفسير الأمر. يقال عنها: عادة. هكذا بكل بساطة؟ لماذا عادة؟ لماذا ظهرت هذه العادة؟ حتى هنا يمكننا أن نتحدث عن الميتافيزيقا، وليس التربية. إن الممرضة قادمة. ستغضب بسبب التدخين.

أنت اخرس!

أترى، لم تقل شيئًا. هيا نندس تحت الغطاء. هل أنت نائم؟ أنا لم أنم بعد. هل تحب حكايات عن الجنس؟ غالبًا ما تكون فظة وفاترة وصحية. كنت أحب هذه الحكايات يومًا ما. وخاصة التي تتحدث عن راعي الغنم الذي يغار. أعترف لك بأنني لم أدخل حظيرة للأغنام مرة في حياتي. أتعتقد أنها موجودة فعلًا؟ سمعت عنها فقط في الحكايات. راعي الأغنام والتنين. كان راعي الأغنام هذا ينام في مملكة الجوع طوال الشتاء. لكن هذه ليست حكاية، يا إلهي! ماذا سيفعلون بكل هذا الألبان؟ ربما سيصنعون منها زبدًا وجبنًا. أظن أنهم لم يكونوا جوعانين. تطايرت البراعم وشجيرات الزان. لنقل أن راعي الأغنام كان له امرأة من دون باقي الرجال

في الحظيرة وعددهم خمسة. كان صغار رعاة الأغنام وهم دون سن العشرين يمثلون الخطر الرئيسي لراعي الأغنام، لأنهم كانوا أسرع وأكثر يقظة. كانوا يغررون بزوجته في كل مكان وفي كل ركن وبسرعة. لم يكن في إمكانه متابعة الأمر. كان الأمر صعبًا على راعي الأغنام. كان صغار رعاة الأغنام يسخرون منه في قرارة أنفسهم. أتخيل هذه الفتاة السلوفاكية في حظيرة الأغنام وهى تطهي اللحم في مصل اللبن، تفصل العظم وتلقيه ساخنًا للكلاب، حمراء، مستديرة الوجه، ذات شعر أسود غزير كالقنب وترتدي القبقاب. طرق الفتيان على الباب، فرد عليهم راعي الغنم سريعًا: لا تخبط كالبغلة. إنهم يقولوا البغلة؟ نعم، هم يكتبون كذلك في الحكاية. لا تنسى أنني قرأتها. تقول زوجته: كفاك لغط!

عندما فتحت زوجة راعي الأغنام عينيها ورأت جدتها تقف عند فرن الطبخ لم تستطع أن تخفي ابتسامة السعادة على وجهها. فهذه المرأة لم يراها أحد عن قرب من قبل. أما ما حدث فيما بعد فلم يكن مهما لراعي الغنم.

جلس أصغر راعي للغنم قبيل وقت الغذاء على أريكة عند أحد الحوائط خارج البيت، وراح ينفخ في مزماره. كانت زوجة راعي الغنم تعرف جيدًا لمن يعزف على المزمار، وحتى راعي الغنم نفسه كان يعرف، لكنه قال لنفسه: زمر كما تشاء، فلن تنالها، فأحد رجليك أقصر من الأخرى. لذلك لم يكن يشتبه به راعي الغنم، ولكن لم يكن على صواب، فهذا الراعي الصغير كان بالفعل عشيق زوجته. لم ينشر الإشاعات، ولم يتذمر من الواجبات، وأحيانًا عندما تسنح الفرصة كان يضاجع زوجة راعي الغنم...

أتعتقد أنني أبالغ؟ يا صديقي العزيز، هذا هو الفن. يعرج خلف الحياة. أم أن الناس هكذا تعتقد كراعي الغنم، وما يعتقده في الراعي الصغير الأعرج. أتعتقد أن هذا هو ما يطلقون علية الجنس؟ عجبًا! بل فن! إنه هو الفن. يجب أن تكون موهوبًا في هذا الأمر. ما الذي يعجبهم في الحياة في حظيرة الأغنام؟ إنك ساذج! إنك كمن يقول أن ما يعْجبهم هي الدورة الدموية أو طوابع البريد. ربما يكون الأمر كذلك في الوقت الراهن. فراعي الأغنام الحديث ربما يكون لدية مجموعة من المقتنيات. أمور كثيرة قد تغيرت. لقد علمت أثناء زيارتي لأحد الأدباء أنه ليس لديه قلم ولا محبرة. إن قلت هذا لأحد سيضحك عليك. ويمكنني القول أن راعي الأغنام ربما يكون من هواة جمع الطوابع، أو حتى مذيع هاو في الإذاعة. وحتى هذا يليق به، فقد يكون على علاقات مع البلدية أو رئيس الجمعية. لكن اسمح لي، من الغباء أن يكون قد تدبر هذه الإذاعة بغرض الاتصال علي طريقة القرد الفيتنامي الذي تعلم الكلام: وعلى الفور أعطوه وظيفة في أحد المتاجر. بالمناسبة، إذا افترضنا أن حيوان كهذا قد نسى لغة البشر، فلن يصدقه أحد في هذه الحالة. وسيتمسكون به قدر المستطاع ليظل يعمل عندهم في المتجر. هذه هى مأساة المتعلمين، فكل معرفة لها مساؤها. عندما سألوا الجنود التشيك عما يعرفونه وما يفهمونه، شهقوا. فلم يفهموا شيء. من ناحية أخرى هم يحبون التباهي، ويفخرون بأن إحدى فرقهم تعرف اللغة السويدية.

أنت تعرف كيف اقترح راعي الغنم الصغير على الراعي الكبير أن يتعلم لغات أجنبية؟ إنها حكاية شديدة الطرافة.

سأذهب لإلقاء عقب السيجارة. يقترب من هنا عبر النفق شخص ما يرتدي زيًا. اللعنة! إن عددهم يملأ حافلة ركاب! فهم مجموعة كبيرة. سيكون عندنا برنامج ثقافي وموسيقيون. رائع! هيا تعالوا! من الجيد أننا لسنا صمًا. هل تصورت يوما ما أنك تموت وأصم في نفس الوقت؟ أحيانًا يحدث هذا. مسكين! ربما أعمى أيضًا. نحن أصحاء تمامًا. لذلك ننام صورة جيدة، انظر! أنا أنام.

هل غلبك النعاس ولو قليلًا؟ وأنا أيضًا. بما حلمت؟ لا يجب أن تخجل مني. أنا حلمت أيضًا... لكن لا، لم أحلم براعي الغنم، هل حلمت به؟ التأكيد أنت فكرت في كلامي، وواصلت التفكير في أحلامك. أنا أعرف أنك اعتدت أن تجوب بأفكارك في فراغات ضيقة. كحظيرة الطيور على سبيل المثال التي بالكاد تتسع لك. ولم تجد تفسيرا لعدم شعور الآخرين بالراحة في مثل هذا المكان الضيق. خرجت من الحظيرة التي كان الآخرون يلعنونها (لصغر حجمها طبعًا)، وبدا لك هذا المكان كبيرًا بشكل ذائد عن الحد. ألم تحفر أنت أيضًا بالمناسبة حفرة تحت الأرض، وانكمشت فيها مرتعدًان ولم تعرف الغرض من الإقامة في هذا المكان. وكل ما فعلته انك انتظرت، أو بالأحرى أخذت تتابع مشاعرك الغريبة. واعتقدت أنك في مأمن. لكنك يمكن أن تختبئ أيضًا على قمة جبل تشومولونجن، أعلى قمة في العالم. يمكن الاختباء لفترة وجيزة تحت الماء أيضًا. ويمكن أن

تختبئ أيضًا خلف النظارة. وهو أمر يليق بجدتي خاصة. كل شيء ينصهر، رأسك تتمايل، وتشعر فورًا وكأنك ترى ابتسامة جدتك السمحة، وهي تضع النظارة من على وجهك.

أفضل شيء نختبئ خلفه هو الإرهاق بعد عمل جيد. حتى العمل في الهواء الطلق حيث يمكنك أن تصفر هو كذلك يعتبر مخبأ. لقد اختبأ مشرف الشاطئ تحت شمسيته الخشبية عندما اقتربت الشمس. حتى القلب يعتبر مخبأ جيدًا. لكن ماذا عن الحب؟ هل فكرت في هذا الأمر؟

لا تخجل من كلمة الحب. فالحب عبارة عن شعور متعدد الأبعاد والتطبيق. نعم، أعرفه بشيء قد تم تعريفه من قبل. لكن يجب أن تعترف: ألم تضق زرعا بمثل هذه التعريفات الدقيقة؟ حتى الرحلة التي قمنا ها إلى جبال تاترا منذ زمن غير بعيد لم تكن سوى تحصيل حاصل. كان يجب أن يتركونا هناك. لماذا أعادونا إلي هنا؟ إلى العاصمة؟ بالطبع من أجل أن نصاب بالمرض من جديد. ويعللون ذلك بأنهم قد أنقذوا حياتنا بهذه الطريقة... لن أتشاجر معك. على أية حال لقد قلت لك هذا كثيرًا من قبل. أمازلت لا تعتقد أن قنبلة نووية سقطت هناك ولم تنفجر؟ سأخرج لك إذا أردت الجريدة من درج الطاولة. أنا أحتفظ بكل الأعداد التي كتبت عن هذا الموضوع حتى آخر عدد. لقد عثروا عليها، رفعها رجال خدمة الجبال بالتعاون من الجيش من أحدى عربات الأطفال. لم تكن سوى قنبلة موقوتة، قنبلة نيترونية. لا أعرف إلى ماذا سينتهي الأمر. أين يضعونها؟ يجب أن يفجرونها، فماذا لو انفجرت فيما بعد؟

لا بد أنها غالية الثمن. كم هو ثمن مثل هذه القنبلة النيتروجينية؟ التأكيد لها ثمن ما إلا ما كانوا صنعوها. بالتأكيد لم يصنعوها فقط من أجل التباهي. . حتى من التباهي يمكن تحقيق المكاسب. لا أريد أن أتناقض مع نفسي ولكن. . . وسيمر أسبوع إلى أن ترش المرأة نفسها بالعطر. هذه قطعة من الزجاج أو المعدن. هذا ما يطلق عليه بيزنس. إنه ليس كتجارة التبغ. تقول أن الأمر ليس كذلك؟ بل هو كذلك. لذلك لن نتشاجر مع بعضنا أبدًا. في الواقع نحن من يصنعوا لهم هذه القنابل. لا يكفيهم أننا سنموت كغيرنا، بل يريدون أن نموت من أجل منفعتهم الشخصية، وليس هكذا بلا طائل، أو لنقل عبثًا. إنه ليس سلاح مضاد للجرذان، فلا تفكر في هذا. إن الجرز لا يخاف من مثل هذه الأشياء، فلا يمكن ابتزازه والضغط عليه. ومن العبث أن تثبت للجرذان – إذا ما فهموا لغة الشر- أن القنبلة هى القوة، والقوة هى العقل، والعقل هو الحقيقة.

عندما كنت أعيش في يوم ما في القرية كانت هناك أيضًا القليل من الجرذان. سادت حالة من التوازن. فقد كانت ببساطة طعامًا للقطط الجريئة (لم تأكلها الكامل). كانت تأخذ حزرها من حوافر الأبقار أو حتى الماعز وهى في حظيرة الحيوانات. وحتى الكلب ليس من أصدقاءه، وأعتقد القنفذ أيضًا. إن الجرذان لا تعتبر في الريف حيوان ممقوت، ينشر الأمراض الجنسية بين البشر، بل هى جزء من البيئة، وواحدة من القوارض ذات الفرو.

وحتى المشتغلون في التعدين لم يكونوا أعداء لدودين للجرذان. ليس بسبب أنها تساعد على اكتشاف أماكن تواجد الغاز، لكن لأنها شاهدًا على بساطة البشر. فعامل التعدين يحفر، والجرذ يحفر. لكن احترس! لا تساويه بالمعدن. فهذا الحيوان القارض أسود العينين، جميل جدًا. ولا أجرؤ على إيذاءه بأية حال. وسأكون سعيدًا ما لم أصبه بأذى. فقد ألقيت حجرًا على أحد السناجب بدافع القنص، لكنني لم أصبه. عَلِق الحيوان المذعور في أحد أركان المخزن، وظهرت في عينيه آلام الكون كله. يا لها من غريزة حب للحياة. لا شيء يفوقها. ما الذي يمكن أن نفحصه ولماذا؟

تقول أن التطور مستمر بلا انقطاع؟ وعلينا أن نتأقلم معه؟ كما ترى، لست مضطرًا إلى هذا. سنموت في الوقت المحدد، وتطور الأسلحة مستمر. المهم أن لا يخترعون دواء ليتركونا نعيش ونعاني، ونشاهد الحرب وتدمير الحياة. دع الأمور تجري، فيكفينا أننا نعيش في رضا. أللعنه! لن أتحدث معك ما لم أحصل على سيجارة. اذهب الآن واحضر لي حتى ولو عقب سيجارة. المرة القادمة سوف أتدبر الأمر بصورة أفضل. لن أسمي الأشياء أسماءها الحقيقية، أي السرقة. لكن ليس هناك من هو قادر على فعل ذلك سواك. أعرف، أعرف. . . سرقة سيجارة، إنها ليست سرقة. في الغالب قد تسبب لي أذى إن لم تكن تدخن.

أطمئنك بأنني أريد أن أعيش. لا أحب الموت ولا الألم. لن أتملق، ولن أتراجع، ولن أحارب الآخرين من أجل حياتي وأنا أراهم يبعثون على السخرية، ويتكالبون على دمي. لا أعني الأطباء. ما هو إلا تعبير عن مغزى كلامي.

سأترك لك من هذه السيجارة فقط عقب صغير، فقد قلت بنفسك أنه لا يوجد ما يدعو للتوقف عن العقاب. يجب أن أعاقبك على الرغم من كبر سنك. لا يمكن أن تكرر على مسامعي دائمًا أنني في عمر ابنك. ففي هذه الحالة كان يجب أن تلدني وأنا أبلغ الثلاثين. وهذا أمر مستحيل، ولا أريد أبًا هكذا. تفضل، دخن! ليس هناك أسوأ ولا أغرب من أن تجعل من نفسك عجوزًا. لقد تجاوزت أحداث الصراع المصيرية هذا منذ زمن بعيد! قلت لي أنك تلفظ أنفاسك الأخيرة. حسنًا، لن أجادلك. حتى الآن نحن مازلنا على صواب، والدليل أننا على قيد الحياة. لدينا عقلنا وآلامنا الخاصة.

وجيد أنهم أحضروا البيانو إلى هنا - يمكن لكل منا أن يمارس الإرهاب على الآخر. في الأحوال العادية كان من المفترض أن يكون مكان هذا البيانو سريران آخران. كيف وصل هذا البيانو إلى المستشفى؟ هل هو مخصص لنا أم للعاملين؟

2

اسمع، كف عن مضايقتي! لقد سئمت من كلامك. أنا لم أنم بعد. كنت أعتقد أنك ستتوقف عن الكلام عندما أغلق عيني، غير أنك عديم الإحساس وثرثار. تثرثر وكأنك فعلا تعرف عني كل شيء. عن أي وحدة تتحدث؟ قل لي متي أردت أن أعيش في حظيرة الأغنام، ومتى بالله عليك استحممت في حوض الغسيل الخشبي؟ فأنا لم أرى جدتي.

تلقي على مسامعي برغبة سخيفة، وهو أنني أريد أن أصبح أبًا لك! إنك مجنون، لست في حاجة إلى ابن مثلك. عندي ما يكفيني من الأطفال، هم للأسف أوغاد وجشعون، ومن حسن الحظ لست مضطرًا إلى أن أرعاهم. إنهم ليبيعوا جثتي إن استطاعوا. لكن أيا كانوا فهم ليسوا مجانين مثلك. لا حاجة لي بمواساتك ولا عزائك. فأنا راض بحالي.

متى نظرت إلى السحب، ومتى فكرت أنها تحترق؟ وهل السحب تحترق؟ حتى تقلبها لا يخيفني، لا أرى أية تناقض في أية سحابة، بل على العكس، أرى فيها دليل الاستقرار كما قلت أنت في البداية. وكيف أسميت السحب؟ هل أنا خبير أرصاد جوية؟

أنت لا تجيد العزف على البيانو على الإطلاق، لذلك تذكرك خبطاتك عليه بالموسيقى الهابطة. فالبيانو مضبوط تمامًا. الواقع أنه في الموسيقى أيضًا فكاهة، لكن تصوراتك عن الموضوع مشوشة. إن الأطفال يضحكون للكلمات

الغريبة ليس لأنهم يشعرون بالفكاهة في الموسيقى، بل لأنهم نادرًا ما يسمعون من الكبار لغة الأطفال التي تهذي بها أنت، أيها البهلوان الجاهل.

بالتأكيد لم تسعد يومًا في حياتك بسبب فلسفتك الكريهة هذه. تريد أن تجرب على تأثير الفوضى التي تسيطر على روحك، تريد أن تؤثر على بكلماتك الكبيرة المصطنعة. إن فمك حتى لم يهتز وأنت تنطق اسم أمي، لعله يهتز لاحقًا أيها المحتال. ماذا تعرف أيها النصاب على الجنود والتمويه والبطولة؟ لقد انزويت بعيدًا عن الناس، تجمع من الكتب والمعاجم جمل وعبارات، لأنك عشت عيشة خبيثة خالية من أية تضحيات. واختلطت عليك الأمور، وقمت فيما تبقى لك من الحياة بعمل تجارب لتعرف إن كانت جنهم التي أنت فيها ستروق لشخص آخر غيرك. أنت لست آسفًا عليك أيها الأناني!

لقد وجدت طريقي في الحياة بسهولة، دائمًا عرفت ما هو خير لي، وفي النهاية لم أهتم بما هو شر، إذن قل لي كيف يكون عندي مشكلة في تحديد من أنتمي إليه؟ إلى من تنتمي أنت؟ فليس عندك أولاد، ولم تتزوج ولو مرة في حياتك، ولم تذهب إلى أية مدرسة لتتعلم.

يا لها من جرأة: تؤكد أنك مثلي، وأن أعذرك على ما تقول. والنتيجة هي أنني يجب أن أكره نفسي. إن كان هناك شخص نكرة فهو أنت! تتشدق بأهداف كبرى، وأنك تريد أن تحلق إلى مكان ما. عفوا، إن هذا الأمر لا يعنيني بالمرة. حتى لم أعلق على ما قلته حول سرقة السيجارة. إن من لم يكن يوما ما في حظيرة الأغنام يحكي عن مشاهد متناغمة ومغامرات

عاطفية لراعي الأغنام الأعرج ونكات غير إنسانية حقيرة. تتحدث عن الفن كأحد علمائه، وفي نفس الوقت تخلط الحابل بالنابل، ولا أفهم منك شيء. فأنت لا تعرف مغزى ما تقوله، تجول بخيالك الآثم كريشة في مهب الريح، لا تلقى بالا لما تقول. تنقصك مبادئ المعرفة والتفكير والارتباط بالحياة.

أعترف لك بأن ما قلته عن إقامتي في حظيرة الماعز قد أثار اهتمامي. عبثا أبحث في ذاكرتي، ولا أجد أنني قد عايشت شيء كهذا. أيها الرجل! كان دائمًا عندنا سيارة، وكل أولادي عندهم سيارات، ولم أضطر إلى الاختباء في أية مكان ضيق أيها المسخ! يجب أن نضعك على قمة جبل إفرست هذه كمسخ أو شبح أو شيطان. متى أردت أن اختبأ؟ لقد عملت طيلة حياتي بأمانة، وكل ما فعلته كان يراه الجميع، فقد كنت أعمل مدرسًا. يبدو من كلامك أنك لم تحب المدرسة يومًا ما. رجل مثلك كان ليرتعد خوفا أمامي. غير أننا لم نلتقي إلا هنا. من سخرية القدر أن نكون متساويين في مقام واحد قبل أن نموت. يمكن أن تسخر مني. لكن هذا لن يعلو من شأنك. فحتى الممرضات يعاملونك بصورة غير التي يعاملوني بها. يمكن لي أن أدخن إذا أردت، لكن بالله عليك ألا ترى أنني لست مدخنًا؟!

فضلا عن ذلك تفوهت بكلام عن الحب، لكن كما ترى، فما هي إلا أوهام. شأنها شأن جرائدك التي تحكي عن سقوط قنبلة نيتروجينية على مدينة جيرلا. ارني مرة أخرى هذه الجرائد كي ألقي بها من النافذة. أعتقد أنك تريد أن تبث في نفسي الرعب، وأن تنقل لي الخوف واليأس الذي

تعاني منه. حسنًا. لقد تركتك تهذي، لكن كفي! هل قلت لك يومًا ما أن التطور يسير، ولا يقف أمامه حائل؟ أكنت تعني تطور الأسلحة؟ إنك واش! أعتقد أنك في حاجة إلى أن تسمع أن هذا الأمر لا يعنيني؟ نعم، لا يعنيني، وأنت أيضًا لا تعنيني في شيء.

من هو ذلك الذي يريد أن يمتص دمك؟ أنك حتى لا يمكن أن تتبرع بدمك أيها القرد. . . يوم ما ستعترف لأحدهم بطبائع القرود التي تتحلى بها. ألست أنت ذلك القرد الذي تعلم الكلام؟

استيقظ أيها الغوزيلا! الطبيب قادم إلى هنا. أخيرًا جعلتك تصمت. فلتغط في نومك! إلى الأبد. أتسمعني؟ تصبح على خير، نم! لا تلقي بالا لما أقول، لا تغضب. . . فلو كان عندي صحة كتلك التي كنت أتمتع بها يوم ما، لكنت أوسعتك ضربًا. أخيرًا ستصمت؟ ما الذي يضحكك؟ أليس عندك ولو القليل من اللياقة لتستمع إلى ما أقول؟ لقد استمعت إليك على مدى ساعتين، أما أنت فتنام! هل مت؟ أنت؟! أمازلت على قيد الحياة؟ اسمعني. . . أجبني عليك اللعنة! افعل ما شئت، المهم أنني تخلصت منك!

يبدو أنهم جاءوا من أجله. لنرى ماذا سيقول الطبيب.

رودولف سلوبودا (1938 – 1995).

ولد في 16 ابريل 1938 في مدينة (دافينسكا نوفا فس). درس في كلية الآداب في جامعة كومنسكيهوا ببراتسلافا، ولم يكمل الدراسة بها. تنقل في عدة أعمال ووظائف من بينها محرر صحفي وكاتب سيناريو ومحرر إذاعي. كتب أولى رواياته في عام 1965 بعنوان النرجس، ثم تلاها بمجموعة قصصية في 1968 بعنوان عام المجر، وفي عام 1967 أصدر رواية الشفرة، وفي عام 1976 أصدر مجموعة قصصية بعنوان السلام العميق، في عام 1969 رواية الوردة الرمادية، في عام 1977 رواية الموسيقى، الإنسان الثاني 1981، الإخلاص 1979، العقل 1982. تفرغ للكتابة الأدبية منذ عام 1988 حيث كتب العديد من الروايات والمجموعات القصصية من بينها مجموعة أيام السعادة ولهو رجال. وتوفي في عام 1995.

يعتبر سلوبودا واحد من أبرز الأدباء السلوفاك الذين أدخلوا على الأدب السلوفاكي عناصر روائية جديدة.

اتخذت كتاباته منذ السبعينات اتجاها واقعيا مختلطا بتحليلات فلسفية. أستطاع كواحد من الأدباء السلوفاك القلائل أن يلمس الحالة النفسية للرجل المثقف والعادي على السواء والذي يعيش في حالة من اليأس التشاؤم تحت وطأة النظام السياسي في ذلك الوقت. تعتبر معظم رواياته ذات إطار متصل؛ حيث يعالج فيها موضوعات محددة ومتشابهة، ومصائر شخصياته متصاعدة مع رواياته وكأنه عاش طيلة حياته يكتب رواية واحدة، سجل فيها شهادته المتشائمة عن إنسان عاش في ظل النظام الاشتراكي.

سيرسا

ياروسلافا بلاشكوفا

خرج بعد ظهر ذلك اليوم مرتبكًا من المبنى بعد اجتماع استغرق ستة ساعات حول النتائج المتوقعة للبحث على مدى الخمسة عشر عامًا القادمة. ناقشوا على مدى ستة ساعات الستة أشهر القادمة، وقضية موظفة المعمل الشابة التي فصلت بسبب سرقتها مادة الأتروبين الذي أعطته لصديقاتها النحيفات. ثم جابوا بعد ذلك المدينة، يحملون حبات منتشرة كالسحر، يغوين بها البسطاء من كبار السن الذين لا يعرفون شيئًا عن مستحضرات التجميل الحديثة. استأنفت الفتاة القضية في المحكمة الإدارية، وبت في القضية في الجلسة التاسعة. كانت من المفترض أن يستأنف الاجتماع في التاسعة صباحًا. كان الجو خريفي في الخارج. دقت الساعة الخامسة. علقت على الترامات شراريب كثيرة، وعلى القضبان علقت ألياف من غزل عين الشمس سببت أعطال في حركة النقل.

اخترق البشر بأزيائهم المختلفة ورائحة البنزين. اجتاز هذا العالم وحضارته العصبية. في الطريق وأسفل حقول الكرم صدر ضجيج المدينة كصوت البحر قادم من بعيد. غطى المرتفعات لون الكروم الأقحواني.

تحلق طيور الشحرور فوق الأرض، وتلتقط الثمرات داكنة اللون وفوق الجبل تحلق الغربان.

سار بخطوات متباطئة تليق بشخص اعتاد حضور الاجتماعات. حامت الغربان فوق الجبل. سار وهو مأخوذًا برائحة النيكوتين و المشاحنات. طارت الغربان ودخلت في تيارات الهواء، وسلمت نفسها ليحملها الهواء، وراحت تتدافع وتنشر أجنحتها في الهواء، وراحت ترسم بريشها الأسود على السماء الصفراء المترامية أحلام مجهولة لسجناء شيلون.

قال لنفسه: أود أن أكون واحدًا منهم.

صوت رعد. سقطت عجوز الغربان التي جاءت من أجله في أحد الأخاديد، لامس فمه الأرض، أو بالأحرى ما كان فمه. تضاءل وزن جسمه، وظهر مكان أنفه البشري منقار مائل للزرقة. قفز وانطلق بما تبقى له من يده وطار. هز بقايا يده أكثر وأكثر، وارتفع فوق الأرض، أصابه دوار فسقط وانتزع ريشة سوداء، تطايرت أوراق الشجر من أمامه، مرت على أحد السيقان خنفساء، حاول بعد ما حدث له أن يتغلب على الغريزة الجديدة التي تولدت فيه حتى لا يأكلها. شبكت الخنفساء أرجلها، أما هو فابتلع ريقه واشمئز من نفسه. حاول الطيران من جديد، وعلى بعد ثلاثة أمتار أصيب بدوار وذعر، وراح يفكر في صلابة الأرض، وسقط بشدة برأسه على الأرض. غير أن انحناءة مفاجئة أنقذته في اللحظة الأخيرة. وعند السياج سمع صوت ضحكات.

على أحد القوائم تتأرجح رأسان سوداوان.

قالت الرأس اليمنى: لا تعرف كيف تسقط.

حياها قائلًا: - طاب يومك.

أخبرته إحدى غرائزه الجديدة أنهما سيدتان. طارت اليمني نحوه وسألته بإلحاح:

من فضلك، ألا تعغغِف[1] ماذا حدث لاوديس؟

أوديس؟ أليس هو هذا الاغريقي...

نعم، نعم، لم تسمح لي الظغغوف بإتمام قِغغائته. كما أن الأدب لا نجده هنا.

على ما أتذكر عاد سالمًا بعد عشرين عامًا...

أها، كم أنا سعيدة لهذا. أحب الكتب ذات النهاية السعيدة.

سألت الثانية باهتمام:

ماذا عن الموقف الدولي؟

أجابها باستغراب أن هناك اهتمام متزايد من جانب الطيور بالثقافة ومجرى الحياة. أوضحوا له بأنهم تحولوا إلى غربان أيضًا، كانت الأولى لاعبة ألعاب قوى، والثانية تخرجت في مدرسة التمريض. شرحوا له أن قبول أعضاء جدد في عالم الطيور يحدث كالتالي: مقابل كل طائر ميت

---

[1] تكرار حرف ـغغـ يستعمل بدلا من الراء الذي يتحول للغاء عند الشخص الألدغ (المترجم)

يقبلون طائرًا جديدًا، وهو أول من ينظر إلى سرب الطيور بعد وفاه أحدهم، ويتمنى أن يصبح واحدا منهم.

وكيف أصبح إنسانًا مرة أخرى؟

هذا غيفغ ممكن.

ماذا تقولين – غير ممكن؟

قالت لاعبة ألعاب القوى وهي تغنج:

غيفغ ممكن، لأن أحدًا لا يغفيد ذلك، لماذا تغغب في العودة؟ إن الحياة هنا بلا متاعب. ولدينا كل ما نغفيده وما نحلم به – الحوغغية والأخوة. تنقصنا فقط الغفاحة. لكن لا يمكن أن يتحقق كل شيء.

لكنني لدي عمل لم أنهيه بعد.

فليكمله أحد غيفغك.

إنه عمل بحثي.

طمأنته قائلة:

فلينه البحث شخص آخغغ.

فصرخ فيها قائلًا:

لا يمكن أن أقضى حياتي في الطيران.. فالحياة لها أهداف أخرى غيره.

الطّيغغان هدف.

وماذا عن المسؤولية؟

لقد نسيت بعض الكلمات.

جلس وهو يحني ظهره عند أحد الأخاديد، ومن فوقه تتأرجح رؤوس سوداء مائلة للزرقة، ومن فوقهم تتحرك سحب صفراء شفافة. رائحة أوراق الخريف تفوح في المكان، ويهب دخان الكروم المطبوخ. تملكته رغبة في الطيران. أراد أن يطير.

قالت الأولى: هيا بنا نلعب. ثم طارت. راح ينظر إلى أجنحتها. فنادت عليه:

هيا امسك بي، لا تخف! الأمغغ يعتمد على شجاعتك.

صارت وسط السحاب، وأصبحت كنقطة سوداء، فانطلق وراء الصوت الذي ينادي:

لا تخف! أمسك بي! أنا اسمي سيغغسا.

رجعت مع طفلي الصغير من الحضانة. كان في انتظاري سلة ملابس للغسيل وأواني وفوضى في البيت.

قال الصغير:

لماذا أبي ليس في البيت؟

ربما عنده اجتماع.

لماذا؟

هذه هى الحياة.

لماذا؟

ألا تريد أن تغني لي شيئًا؟

لماذا الحياة هكذا؟

لو تصرفت بصورة جيدة، مسأسمح لك أن ترش الملابس.

ببندقية الماء؟

حسنًا، لا أريد أن أسمع صوتك.

أخذ يضع الماء في صمت في البندقية، وراح يرش الماء بحذر على القميص والستائر والمناشف التي تخص والدتي، وهى مصنوعة الكتان، ومكتوب عليها جملة تبعث على السخرية: [صباح الخير، طائر الصباح يقفز من جديد].

طرق الباب ابني الأكبر. نظر إلى حمالة الثياب، وبدلا من التحية قال:

أبي ليس في البيت؟

لا.

وأين هو؟

لا أعرف.

ألم يتصل تلفونيًا؟

لم يتصل. اخلع حذائك واذهب لتغسل يديك.

لماذا لم يتصل؟

علمي علمك، اذهب واغسل يديك.

انحنى على حوض الغسيل، وفتح الصنبور، ثم وضع إصبعه بحذر تحت الماء. ثم سأل وهو يشير بالسبابة:

ماما! هل صحيح أن الأرواح تهاجر؟

ماذا؟

أن الأرواح بعد أن يموت الإنسان تنتقل إلى أشياء أو حيوانات أخرى وتعيش هناك حياة أخرى؟

ينتظرني جبل من الملابس على أن أكويها، وطعام عشاء لم أكمل طبخه بعد. رئيسي في العمل وجه لي اللوم بسبب عدم تركيزي في العمل، وزوجي تأخر. الله أعلم أين هو، وطفلي هذا يضيف إلى همومي همًا آخر وهو هجرة الأرواح.

إن الأرواح تسعد بعد أن يموت الإنسان بالهدوء ولا تفكر مطلقا بالهجرة.

لكن الهنود يؤمنون بهجرة الأرواح، وعددهم أكثر من السلوفاك. لذلك ربما يكون الأمر صحيحًا.

أتعتقد أنه عندما يكرر بعض الناس هذا الكلام الفارغ يصبح حقيقة؟ اغسل يديك جيدًا!!

وضع إصبعًا آخر تحت الماء وقال:

لو كان عليك أن تختاري فأين تريدين أن تهاجر روحك؟

لا حول ولا قوة إلا بالله! من وضع في رأسك هذا الكلام الفارغ؟

اسكندر.

اسكندر هو ابن القسيس الذي يزود أسرتنا بكلام فارغ منافي للعقل، ويشجعهم على هواية عدوانية اسمها كرة القدم وعلى احترام فارغ للتضحية بالحياة من أجل الآخرين.

من الأفضل لك أنت واسكندر أن تهتموا بدروسكم، بدلًا من هذه التفاهات! واغسل يديك هذه، فالماء لا يعض!

في هذه اللحظة قام الصغير الذي تابع المناقشة باهتمام برش الماء من بندقيته بغضب ليبلل نصف المطبخ بما فيه أنا.

لو فعلًا كان يمكن أن تختاري، هل تريدين أن تكوني أسد أو خف على شكل قط؟

أريد أن أكون حجر، حجر في الصحراء، حيث لا يذهب إلى هناك أحد، حيث لا توجد بندقية ماء ولا ملابس للغسيل ولا أطفال. حيث أجد الهدوء والسكينة، الهدوء والسكينة يا ربي!

قمت بتجفيف المطبخ، وذهبت إلى غرفة النوم. أحتفظ في أسفل دولاب الملابس بزجاجة كحول، تجد فيها روحي أحيانًا بصيص ضوء. شربت منها ثم جثوت على السجادة أتفحص وجهي المرهق في المرآة وأتحسر على نفسي.

في الساعة الثامنة وضعت الأطفال ليناموا، ثم دق جرس التليفون. أسرعت نحوه، فجاء عبره صوت نسائي يسأل إن كانت جوفينكا موجودة. أوضحت لها أنه لا يوجد عندنا شخص بهذا الاسم، ثم سحبت من المكتبة كتاب تاراسا بولبا. دائمًا عندما تكون حالتي النفسية في الحضيض أقرأ. كيف يضعون عند أقدام تاراسا الخشب ليحرقونه، فتشب فيه النيران ببطء، فيصرخ في الشياطين وهو يطالع في أنفاسه الأخيرة بكلمات مليئة بالشجاعة. شخص ما يصعد درجات السلم، ثم يتوقف عند بابنا، ويبحث عن زر الإضاءة، ثم يواصل صعوده. تسير في الشارع مجموعة من المارة يغنون بسعادة. تخيلت زوجي بين هؤلاء الأوغاد من الشركة. تخيلته في الحانة. تخيلته على حافة الرصيف، غارقًا في دماءه أو في المستشفى على وجهه قناع الأكسجين، أو في المشرحة أو في الجبانة. رأيت نفسي أرتدي لباسًا أسودًا (من يدري كم ستكون قيمة المعاش)، الأطفال يتامى. ذهبت احضر منديلًا. تخيلته مع امرأة شقراء خشنة، فرحت أطعنها بسكين (سكين المطبخ) بسعادة في صدرها الهزيل، وأطعنه هو في قلبه الخائن. المشرحة والجبّانة وأنا في لباس أسود والأطفال يتامي. ذهبت أحضر منديلًا آخر. اتصلت هاتفيًا في الساعة

السادسة بعائلة كولار. أجابني كارول وهو يتثاءب بأنه لا يعرف شيء عن زوجي، وأنه لا داعي للقلق، فهو سيأتي التأكيد. بدأت أردد في هدوء أغاني دينية. ثم أعددت الفراش، واستلقيت على السرير على الرغم ثقتي من أنني لن أنام قبل أن يعود. كنت مستعدة له بخمسة خطب تستمر لمدة نصف ساعة: خطبة عن الاستهتار، وأخرى عن الغضب، وثالثة ساخرة مع إنذار أخير، ورابعة عن المعاناة، وخامسة عبارة عن توبيخ ودموع وصراخ (وهو الأكثر تلقائية).

في الساعة الحادية عشر سمعت خبطات خفيفة على النافذة. نحن نسكن في الطابق الثالث. أطفأت الأنوار، ثم تسللت على أطراف أصابعي صوب النافذة. وجدت طائر أسود يجلس في الظلام على إفريز النافذة. أصبت بهلع، كاد ينتزع قلبي من صدرى. فعندما توفي جدي سقطت النجفة، ودق شيء كهذا على بوابة البيت ثلاث مرات.

كان الطائر ينظر إلي في هلع، ثم طرق من جديد. فتحت له النافذة فدخل إلى الغرفة. كنت أسمع بوضوح صفير الترامات في الخارج وضجيج السيارات (إنه القرن العشرون). جلس الغراب على الطاولة وأخذ يتناول بنهم بسكويت مالح. كان من المفترض أن يصدر صوتًا رمزيًا (لا أكثر)، لكنه قال:

مساء الخير يا زهرتي! لا تفزعي مني، إنه أنا، نعم أنا!

لست من نوع السيدات اللواتي يغمى عليهن. اختبأت تحت البطانية. وأنا أسحب البطانية، سقطت علبة الملح، وتدحرجت على أرض الغرفة الخشبية، مخلفة وراءها خطًا أبيضًا مستديرا. كنت أرى كل شيء

بوضوح. فبالفعل كان يجلس على الطاولة غراب. بعد أن تناول أخر قطعة بسكويت، دس منقاره في بقايا اللبن الخاص بطفلي الصغير.

•

قلت لنفسي:

لا يمكن أن أثمل من رشفتين من الكحول.

صاح الغراب قائلًا:

من فضلك. هل يمكن أن تشعلي لي سيجارة؟

جلس في المقعد، وهو يحاول أن يضع مخلبًا فوق الآخر. عيناه تصأصأ بطريقة كئيبة. رحت أقرص نفسي. إنه هو زوجي بلا أدني شك.

ما الذي دهاك حتى تعود إلي هكذا؟ هل شربت؟

لو كنت شربت يا حبيبتي، هل كنت لترينني هكذا؟

ثغرت فمي ببلادة، لم تكن تصلح لهذا الموقف ولا واحدة من الخطب التي أعددتها.

صاح قائلًا:

لقد حدث ما حدث يا حبيبتي.

ثم راح يحكي تفاصيل ما حدث له.

قلت له:

هكذا هو حالك، تتحول إلى غراب هكذا بكل بساطة، ولا تفكر في ولا في الأولاد؟ أنا أيضا أحب أن أطير وأحلق بعيدًا كريشة في الهواء. لكنني لا أسمح لنفسي بهذا. فأنا أعرف جيدا ما هى المسؤولية. أعرف أن أنني طالما قطعت على نفسي عهدًا فيجب أن أوفي به حتى لو جاءتني آلاف المغريات فلن أطير، لن أطير!

لكن يا حبيبتي...

دعك من كلمة حبيبتي هذه. الآن فقط صرت حبيبتك! وقبل ذلك لم تكن تعرف أنني حبيبتك؟ أنت تطير، بينما أنا هنا أعمل في صمت كالعبيد، لم يكن هذا ما تفقنا عليه. كنت دائمًا تقول...

صاح الطائر، زوجي هذا:

من فضلك، من فضلك، إذا كنت تعتقدين أن هناك شيء يمكن عمله فأخبريني به!

أنا لا أريد هذا.

ما هو هذا الذي لا تريدينه؟

لا أريد أن تكون هكذا، لا أريد زوجًا غرابًا.

قال:

يجب أن ننتظر. فلن نصل إلى حل الآن. في الصباح سأحاول أن أفعل شيئًا ربما يؤدى إلى حل المشكلة.

ثم تثاءب وقال:

لقد أرهقني الطيران.

ثم نظر شزرًا إلى الأريكة المنبسطة وهنا انفجرت فيه قائلة:

في البداية تقوم بنقر الخشب الأجوف، ثم تريد أن تنام في فراش نظيف. هذا لا يمكن أن أسمح به.

وأين سأنام؟

نم حيثما تريد، طالما سمحت لنفسك أن تتحول إلى غراب، فلتنم مع الغربان!

لا تنسي أن هناك غربان إناث، ولطيفات أيضًا!

أيها الوغد!

أترين؟ تعقلي. في الصباح ستتحسن الأجواء بيننا، وسنرى ما علينا أن نفعله.

اندس تحت الفراش وراح يغط في النوم على الفور. جفونه المائلة إلى الزرقة تغطي عينيه المستديرة، ومنقاره البغيض غائر في الوسادة وبنفق من فتحاته بالغطيط. أصابني هذا الاستهتار التقليدي من الرجال بالجنون. يأتي قبل منتصف الليل، ليس رجلًا، بل غرابًا، ينام كالطفل الملائكي بدون أدنى شعور بالندم أو المسئولية، أو حتى دون شعور ولو مصطنع بالخوف. وببساطة يتركني عرضة للوحدة وتأنيب الضمير والحزن.

نم أيها الغراب. نم وكأن شيء لم يحدث، وكأن صبري الذي لا حدود له عليه أن يستوعب كل شيء، حتى هذه التحولات. هذا هو قدر المرأة المتسامحة. في البداية تسمحين لهم التدخين، ثم تغضين نظرك عن عملهم الذي لا نهاية له، وتتحملين جلسات هنا وهناك مع من يسميهم الأصدقاء، ثم فجأة يعود إلى المنزل وهو ليس هو، بل مسخ، له مخالب أرجوانية وريش ورغبة في الطيران. فاليوم أراد أن يكون طائرًا، فمن يضمن أنه لن يأتي غدًا ويقول أنه يريد أن يسبح في النيل، ويزحف كالتماسيح. أما أنا، المرأة الشابة الطبيعية فعلي أن أنام من هذا الحيوان المتوحش. بعثت هذه الأفكار الجديدة في نفسي المزيد من الرعب. أخذت أنظر إلى رأسه الصغيرة السوداء وريشه المنفوش وحوصلته. وتخيلت نفسي أيام وليالي على هذا الحال. . . انتابني الرعب. ماذا حدث هذا أمر لا يعقل، شيء عبثي كريه. ذهبت لأحضر منديلًا ثالثًا. وبقيت مستيقظة حتى الصباح.

وكعادته كل يوم عندما يفتح عينيه، نهض ابني الصغير من سريره وأسرع إلى والده، اندهش قليلًا عندما رأى بدلًا من أبيه الحبيب غرابًا، لكن سرعان جعله هذا التغيير سعيدًا، فقال بسعادة وهو يلمس منقاره الأزرق برفق:

كم هو جميل!

عطس الغراب وقال:

صباح الخير!

على الفور وبدون آثار للدهشة أدرك الصغير أنه والده. جاء أخيه الأكبر، وعلى الفور بدأ يهاجمني قائلًا:

أترين! قلت لي أن الأرواح لا تهاجر! كيف فعلت هذا يا أبي؟ أنا أيضًا أريد أن أطير!

نهض الغراب من على الأريكة، وراحت الأطفال تصفق. وقِفْت عند الباب أراقب بخوف أصابعهم الوردية المرتعشة، والريش الأسود الذي يتطاير تحت سقف الغرفة، والذي تبقى لي من قصة حب دامت عشرة سنوات.

قال الرجل بينما الأطفال تقفز خلفه وهم يلوحون بأيديهم بانسياب:

هكذا هو الطيران.

صرخت على كارول في الهاتف: تعال من فضلك، نعم، نعم، حدث أمر ما، أمر هام. أنا في انتظارك.

بعد عشرة دقائق دق جرس الباب. ذهبنا إلى غرفة الاستقبال، وأشرت إلى المجموعة السعيدة خلف الأبواب الزجاجية. وقف بلا حراك، ثم خبط على جبينه، وانصرف إلى المطبخ، وأشعل سيجارة.

إنه شيء رهيب. لكنه كان دائمًا إنسانًا غريبًا.

كان؟

هز يده وقال:

يجب أن تتحلي بالشجاعة، إنه كان يفكر دائمًا في هذا الطيران. دائمًا كان يختفي في أماكن لا يذهب إليها الإنسان العادي. أنا أفهم جيدًا مشاعرك، لكن حاولي أن تنظري إلى الأمر بطريقة موضوعية! لقد كان دائمًا لا يتحلى بالواقعية التامة، وضعف القدرة على التقييم البسيط. تتذكرين ذلك الأمر الذي تعلق بلصق الألواح الخشبية وأما حدث مع السيد تشيبل..

لم يكن تعنيني الألواح الخشبية ولا تشيبل ولا التقييم الموضوعي. فقط أردت أن أسمع ما هو الحل.

مسح على كتفي. كانت هذه حركة كتلك التي تشد فيها من أزر أرملة.

أتعتقد أنه سيبقى في عمله؟

بشكله هذا؟ في منصبه؟

أي منصب؟

لو كان هو الرجل الثاني، لكنه...

كان أكثركم نشاطًا، كان يلقي المحاضرات، يعمل كالحصان.

لهذا السبب ليس عنده أصدقاء، تعرفين أنه كان يتعارك مع الجميع.

لأنه كان يهتم بعمله وليس بالشهرة. وأنتم...

دعك من هذا الآن. الحقيقة هي أنه لو كان القرار يتخذ بالتصويت لصوت الجميع ضده.

فجأة شعرت بأنه هو نفسه كان ليصوت ضده. أجبته بتلقائية:

أنت صديقه!

طبعًا، سأفعل شيئًا، بالتأكيد، لكن... إنه موقف غريب، فعلًا غريب. كيف سيكون موقف الشركة أمام الناس إن هي عينت - غراب! فضلًا عن ذلك لا يمكن السيطرة على مثل هذا المخلوق. فمن يضمن أنه لن يطير... و... شفرات الدولة الهامة...

كيف يمكنك أن تقول شيئًا كهذا! عملت معه سنوات طويلة وتعرف كيف أنه إنسان جيد.

إنسان؟ تقصدين طائر. إن ما فعله هذا يغير فكرتنا عنه تمامًا. والطريقة التي كان يعاملك بها والأولاد وتعامله معنا. لقد وضعنا جميعًا في موقف صعب. هل سمعتِ يوما ما عن إنسان تحول إلى غراب؟ هل قرأت عن شيء كهذا؟ إنها ليست إصابة أو حادثة. إنه ببساطة استهتار. كيف استطاع أن يتغير بين ليلة وضحاها من إنسان إلى طائر؟ ومن يقول أنه لن يغير أهم ما في الأمر وهي قناعته الشخصية؟

التزمنا الصمت، علت الضحكات والنقيق المرح في الغرفة. غير أن حالة القرف الشديدة سيطرت على عقلي. فأخذت أقول بتلقائية:

كنت صديقه، يجب أن تفعل شيء!

أجابني قائلًا:

سأدبر لك معاشًا مناسبًا.

بعد ثلاث ساعات من مناقشة لا طائل منها اقترحت على زوجي من جديد قائلة:

من الأفضل أن نذهب إلى أخصائيين في الطبيب البيطري أو إلى معهد الحيوان أو أية كلية. بالتأكيد يوجد توجد هناك أبحاث وسيفعلون شيئًا.

صاح زوجي قائلًا:

مستحيل! أنا أعرف معاهد الأبحاث هذه جيدًا! في الأسبوع الأول سيطعمونني جزر، وفي الأسبوع الثاني حبيبات خالية من الكالسيوم، وفي الأسبوع الثالث سيجربون إن كنت سأتحمل بدون ماء، وبعد أن يسقط ريشي وأصير مجنونًا سيقولون أن الحالة مينوس منها.

ربما سيصلون إلى شيء. هيا...

قال:

أنا أحذرك، إن حاولت القيام بشيء كهذا فلن أتفوه بكلمه، وسأصير غرابًا طبيعيًا وستكونين أنت من سيفحصونه.

إنك تهددني.

أخذ يهدئني بجناحه بنوع من السيطرة التي لم يفقدها حتى في هذا الموقف، ثم قال معلنًا:

سأنظر في هذا الأمر بنفسي.

كان رده مصحوبا بحالة من التشتت. التفت بعينيه صوب أحد الأسطح المقابلة. تظاهرت بأنني ذاهبة لإصلاح الستارة فرأيت غرابًا آخرًا يجلس على سطح المنزل المقابل ويعطي إشارات نحو نافذتنا.

من هذا؟

استرق النظر إلى الزجاج وهو يحسس على ريشه قائلًا:

إنه أحد... زملائي.

ثم قال باستخفاف: كل شيء سينتهي على خير، وسترين بنفسك. ثم التفت ناحية هذا السطح وقال: زميل. ثم رفع جناحيه وقفز بخفة وقال: "مع السلامة". وطار وهو يحاول أن يعطي انطباعًا يثير الفتنة. تذكرت بدون أية داعي بندقية الرش التي تخص أبي، وأنها قد تكون موجودة في المخزن بجوار عصي التزحلق. يومًا ما كنت رامية جيدة.

نظرت إليه وهو يعلو برشاقة وخفة متحررًا من كل القيود. لم يتوانى، ولم يتأرجح لو قليلًا. يخترق الفضاء بدون أي مشقة أو آثار لتأنيب ضمير ولو خفيفة. طار حرًا، واختفى عن مرمى البندقية. تراقص بجناحيه حول الطائر الآخر وكأنه مشهد من بحيرة البجع.

رفعت سماعة التليفون واتصلت بالسيد الأستاذ فريانك، حاولت أن أعرف منه بطريقة غير مباشرة طريقة للتعرف على أنثى الغراب من الذكر.

طاروا.

ضحكت سيرسا، لم يخطر بباله مطلقًا أن الطيور تعرف الضحك. كانت الأرض من أعلى تبدو مختلفة، لونها مائل للزرقة وشكلها وديع. والأكثر سحرًا هو أنه يطير فوق العالم. كان يشعر أن أحدًا لن يصبه بأذى. علو فوق السحاب وهو يضحكون ويطيرون.

يا لها من سعادة أن ينسى أنه ليس مضطرًا إلى السير على الأرض بقدميه. إنه الفراغ، دوامات الهواء الزرقاء والسحب الخفيفة البيضاء. سعادة هي أن يتحرر من الجاذبية. هواء نقي منعش وضحكات.

لم يشغل رأسه الصغير أي من المشاعر المعتادة التي يفكر فيها كل من هو مرتبط بالأرض (العصبية، الهموم، الإرهاق، الوحدة)، كل ما شغل باله هو فقط الطيران والأشعة الحارة الساطعة. كان سعيدًا.

راح يلعب مع سيرسا والعالم يدور بعيدًا من تحتهم.

الآلهة والغربان.

أخبرت الأمن عن اختفائه، وسجلته في قسم المفقودين.

تأقلم الأطفال مع الموقف الجديد بصورة رائعة. كان الصغير دائمًا يغني: "طر يا غراب، يا طير يا شاطر". أما أخيه الأكبر فكان يجمع ريش الحمام من فناء البيت ويلصقه بالشمع ليصنع منه أجنحة. كنت قد قرأت شيئًا مشابهًا

يومًا ما. زوجي كان أكثرنا سعادة. رغم أنه شعر في اليوم الأول بشيء لا يحبه، إلا أنه أخذ يتأقلم معه يومًا بعد يوم. كلمة يتأقلم هذه كلمة غير مناسبة، بل كان يفعله بحماس. كان يطير كل صباح وهو يطمئنني بكلمات من جانب منقاره، مؤكدًا أنه عن قريب سوف يعرف كيف يتحول إلى إنسان من جديد. كنت على قناعة بأنه لا يفعل شيء حيال هذا الأمر. بل على العكس لو حصل على علاج فلسوف يلقي به في نهر الدانوب. كانت عينيه زائغة باستمرار، ومركزة على سطح البيت المقابل. في الليل كان ينفض الفراش ويصيح في نومه. خيل إلي من صيحاته هذه أنني سمعت اسم امرأة. في اليوم الخامس قررت أن أنهي الأمر.

كالعادة جاء عندما حل الظلام والأطفال نيام.

قلت له: يجب أن نتكلم سويًا.

راح يطوف بناظريه في أنحاء الغرفة وكأنه غريب، كأنه يراني لأول مرة في حياته، كذلك البيت. وكأننا نحن، وليس هو من قام بتغيير كل شيء – الجنس والطبيعة.

صرخت فيه فجأة بطريقة عنيفة قائلة:

لماذا تنظر هكذا؟ لقد وعدتني أن تجد مخرجًا للأمر. ماذا صنعت؟

لا شيء.

هكذا، بكل بساطة؟ اسمع، إما أن تأتي معي غدًا ليراك المختصون وإلا...

و إلا ماذا؟

و إلا لن أسمح لك بدخول البيت.

وماذا ستجنين من وراء ذلك؟

ليس الكثير. لكنني لست على استعداد أن أظل على الأرض، بينما أنت تطير كإله بين النجوم.

أتعتقدين أنك ستمنعينني بالقوة؟

ابتسمت له قائلة:

إذن ما العمل؟ ستذهب معي؟

جلس على الأريكة، لكنها لم تكن جلسته المعتادة. هذه المرة جلس بطريقة مختلفة، بطريقة الغربان. كل شيء فيه أهاج مشاعري.

أقْتَغِغح عليك حل آخغغ. لنفترق. أنت تغغين أنه لا يجمعنا الكثيغغ. أنت كما أنت وأنا غُغغاب.

ما قاله هذا كان سيئًا إلى أقصي درجة، لكن ما أكثر ما أثار حفيظتي في كل هذا المشهد العبثي هو الغنجة التي يتحدث بها.

أتريد أن تطير غدًا ولا تعود مرة أخرى؟

صاح الغراب بصوت الغربان:

لن أعود علي الإطلاق.

نظر كلانا إلى الآخر، وبدا كل شيء واضحًا وجليًا.

قلت لي غدا؟

باكِغغ (هذه الغنجة التي أمقتها)

فاتخذت قراري وقلت له:

ربما عندك حق، لقد توقعت أن يحدث هذا.

تغيرت نبرة صوتي فخاطبته بصوت رقيق:

ليس من الأفضل أن نفترق في لحظة غضب. ربما أهدأ بعد فترة، وأنت ستأتي لتراني وسيضع لك الأولاد الفتات على النافذة. ما رأيك أن نحتسي معًا شيئًا كسابق عهدنا.

كان يبدو متحفزًا. يطرف بمقلتي عينية. قال:

أنا أغْتَغغف بذنبي.

حسنًا، حسنًا، دعنا من هذا الكلام.

أحضرت ما تبقي من الشراب، ثم صببته في الكأس ووضعته أمام منقاره.

بدا متشككا في تصرفي. شربت قبله من الكأس. فوضع منقاره الأزرق، وشرب وهو رافع حلقة إلى أعلى كما تشرب الطيور.

صببت له كأسًا آخر. فبدأت تنفرج أساريره ويهذي بشيء عن الفراغ والملائكة والأجنحة المشتعلة.

صببت له آخر جرعة من الشراب. دس فيها منقاره، ثم سقطت رأسه السوداء وغط في النوم.

تناولت المقص ورفعت جناحه فانبسط ريشه بهوادة على الوسادة. كان ريشًا دافئًا، لامعًا وناعمًا كالحرير.

ترددت قليلًا.

تحرك في نومه وراح يردد: سيغفسا، سيغفسا. كان صوتا ملئ بالحب.

لم يكن لدي ما يدعوني لإعادة التفكير في الأمر.

فتحت مقص الحياكة الكبير البارد.

اقتربت به من جسم الطائر

بدأت عظام الجناح تتكسر محدثة صوت فرقعة.

صاح الغراب: سيرسا. وسقطت على الوسادة بقعة دم.

قمت بدس منقاره في الوسادة

قاوم.

ضغطت عليه بكل ما أوتيت من قوة.

ضحكت.

سقط الريش الأسود على الأرضية الخشبية.

رحت أقص وأقص وأقص.

ياروسلافا بلاشكوفا (1933 -)

ولدت ياروسلافا بلاشكوفا عام 1933 في مدينة فلكا مازيريتشي، وانتقلت للعيش في مدينة براتسلافا العاصمة منذ عام 1948 حيث تخرجت فيها في كلية الآداب بجامعة كومنسكيهو، وعملت بعدها في الإذاعة. بدأت تنشر أولى أعمالها في مجلة إبداع الشباب عام 1956، ثم احترفت الأدب منذ نهاية الخمسينات. في عام 1968 تم فصلها من إتحاد الكتاب السلوفاكي، ثم هاجرت إلى كندا، وتعيش الآن هناك في مدينة أونتاريو. كتبت العديد من الأعمال التي ترجمت معظمها إلى اللغات الأجنبية. تعتبر من واحدة الأدباء السلوفاك الذين تخصصوا في أدب الطفل والشباب. ونشرت في الستينات العديد من الكتب الناجحة الموجهة للأطفال والشباب. نشرت أولى قصصها القمر النايلون عام 1961 التي أحدثت بها ضجة جعلتها تحت ضغط الرقابة في تخفيف حدة النقد السياسي أللاذع بالقصة. من أشهر رواياتها رواية أخي الرائع روبنسون عام 1968.

بعد هجرتها إلى كندا تم رفع كتبها من المكتبات، وانزوت إلى أن قامت إحدى المجلات السلوفاكية أسبكت بإعادة نشر بعض أعمالها من فترة الستينات، ومنها القصة القصيرة المترجمة سيرسا. وسيرسا هي ابنة إله الشمس الإغريقي هيليوس التي اشتهرت بقدرتها على تحويل الرجال إلى حيوانات وحولت رجال أوديس إلى خنازير عندما حلو بأرض آية التي تسكنها سيرسا.

خلف طاحونة الجبل

ميلو أوربان

1

في صباح أحد الأيام عندما كان أهالي قرية مالكوفا في طريقهم لجمع أخشاب الصنوبر وجدوه هناك - عشيق كاترينا زالتشيكوفا في الغابة، خلف طاحونة الجبل، يده اليمنى ملقاة على عينيه وكأنه يخشى النظر إلى الشمس. يسند بيده اليمنى خصره بطريقة لا تبدو طبيعية. في خصره ثقب أسود كبير. عندما رآه أهالي مالكوفا كان النمل يخرج من تحت قميصه، ويتجه نحو شفتيه المنسحبتين إلى داخل فمه.

أصابهم الذهول. شرع ستيفان هربن الذي كان أول من رآه يتلو الصلوات، وأخذ كروبا يردد: يا إلهي! يا إلهي!، أما يانو أولين الذي كان يسير خلفهم انصرف مذعورًا، عائدًا إلى القرية. وصل إلى بيت بيتر شتالينا وهو يئن من التعب، عيناه جاحظتان، وجبينه يتفصد عرقًا. دخل إلى البيت، ثم جلس على مقعد خشبي وأخذ يتمتم قائلًا:

يانو! الحق... ابنك!

كان بيتر شتالينا يضع أمامه أحد الأطباق، حيث كان يتناول فطوره. وعندما سمعه مسح فمه في كمه وسقطت منه الملعقة على الأرض.

ماذا؟

ابنك...

يانو؟

نعم

ماذا به؟

قال أولين وأسنانه تضطرب وتصطدم:

وجدناه مقتولًا.

عند سماعة هذه الكلمات بدا وكأن أحدًا ضربه بقبضة يده على صدره. قفز واقفًا، ثم صرخ مولولًا:

أين؟

خلف طاحونة الجبل... في الغابة.

سحب شتالينا معطفه من على الحائط، ثم ارتدى قبعته، وانطلق إلى فناء البيت، وقد نسى الباب مفتوحًا. في الفناء كان ينتظره مجموعة من الناس الذين تجمعوا من كل صوب وحدب. تجمعوا عند سور البيت، وعلت وجوههم علامات استفهام ولهفة لمعرفة ما يجري. ألق عليهم بيتر

شتالينا نظرة، وما أن رآهم وقد تسمروا في أماكنهم ينتظرون سماع ما يدور، صاح:

ابني الوحيد...

كان هذا كل ما نطق به حتى الظهيرة. صعد الجبل والناس يسرعون خلفه. ولما عجزوا عن اللحاق به، توقفوا وقد توردت وجوههم، وأطلت من عيونهم نظرات استغراب ودهشة. لم يسألوا عن شيء، بل واصلوا السير، وما أن وصلوا خلف طاحونة الجبل في الغابة حتى ازداد عددهم، وامتلأت عيونهم بالتساؤلات واللهفة لمعرفة ما يجري.

جاء صوت من الغابة:- أين هو؟

رد عليه صوتا آخر:- هنا

في النهاية رأوه يرقد في جدول ماء تحت شجرة صنوبر كبيرة مائلة. أزرار معطفه مفكوكة وقميصه ممزق، إحدى قدميه تحت جسمه وكأنه تعثر وهو يجري. وثب بيتر شتالينا عليه عندما رآه يرقد هكذا. احتضنه وانخرط في بكاء شديد.

كان نحيبًا، نشيجًا، بكاء ثقيلًا من رجل لم يعتاد البكاء. عندما سمعه الناس وهو يبكي هكذا، طأطأوا رؤوسهم، وترقرق الدمع في أعينهم.

أول من استفاق منهم كان ستيفان هرين الذي صاح:

يجب أن نأخذه من هنا.

وافقه الرجال وصاح أحدهم: نحن في حاجة إلى حمالة.

تردد في الغابة صوت ينادي: حمالة، حمالة!

انطلق الرجال، وبعد قليل عادوا ومعهم حمالة من عيدان الشجر. ثم وضعوا الجثة عليها وحملوه إلى البيت، حيث وضعوه على مقعد خشبي في الغرفة، وألقوا عليه الغطاء.

كانت كاترينا زالتشيكوفا التي كان يتردد عليها يانو شتالينا ترعى الماشية خلف أشجار الصنوبر في قرية مالكوفا. كانت تذهب إلى بيتها مرة أو مرتان في الأسبوع لتغير ملابسها، وتأخذ بعض الأغراض التي تحتاجها في عزلتها هذه عن العالم. في تكن تخطط للذهاب إلى القرية في ذلك اليوم، لكن شيء ما دفعها إلى تذهب اليوم. فجمعت أغراضها وذهبت إلى البيت قبل الظهيرة.

عندما علمت بما حدث ليانو شتالينا. لم تصدق الأمر في البداية، ثم نزل الرعب في قلبها، وامتقع لونها، وانطلقت إلى بيت شتالينا.

كانت النساء تقمن الصلوات على روح الميت عندما دخلت الحجرة. لمحت عند النافذة أباه، السيد شتالينا وهو يسند رأسه في راحتيه، رأت نساء تجلسن في أحد الأركان وتبكين.

وقفت عند الباب مشدوه. لقد علمت بما حدث، غير أن ما تراه أما عينيها أصابها بالذهول:

فصرخت بصوت ملئ بالفزع: يا الهي! ماذا حدث يا عمى؟

رفع بيتر شتالينا رأسه، ونظر إليها بحدة، نظرة عميقة وكأنه يراد أن يطلع على ما في داخلها. فقد كانت رفيقة ابنه. كان يعرف ذلك، وكان ابنه يانو أشار له ذات مرة بأنه يريد أن يتزوجها. لم يكن يحمل لها سوى كل خير، لكن الآن وهو يراها أمام عينيه، مفعمة بالنشاط والصحة، انقبض صدره. أمر مخيف جال بنفسه. أسرع نحوها، وأمسك بذراعها وأخذ يهزها:

كاترينا!

نظرت كاترينا إليه في ذهول، أما هو فتقعقعت أسنانه وهو يقول:

هل كان عندك؟

ترددت قليلًا، لكنها تحت تأثير نظرته الحادة ارتعدت قوائمها، فقالت على الفور بصوت حزين:

نعم كان عندي.

هل قضى الليل عندك؟

نعم

ألا تعرفين ماذا قد يعنيه هذا؟!

ثم رفع رأسه وأشار إليها بإصبعه:

أنت... أنت المسئولة عن موته!

سقطت كاترينا زالتشيكوفا على ركبتها، وكأن حجرا سقط في الغرفة. ثم رفعت يديها نحوه وهي تعصر قبضتها وصاحت:

عمي، أنا...

لكن شتالينا لم يستمع إليها. سقط على المقعد، وأخذ يهز رأسه، ثم صرخ:

ابني الوحيد، ابني الحبيب.

ساد الصمت. لم تقطعه سوى أنفاس شتالينا الثقيلة المتقطعة، ودمدمة النساء الحزينة في ركن البيت اللواتي فرغن من توهن من أداء الصلوات على روح الميت. في هذا الصمت أدركت كاترينا زالتشيكوفا مدى خطورة التهمة، وانتبهت إلى الأمر. فمالت على الأرض وهي تطوق بيديها ركبتي شتالينا وصرخت بمرارة:

عمي! أعوز بالله! لست أنا، لست أنا.

لاذ بالصمت، وواصلت كاترينا قائلة:

كنت أحب يانو وكنت لأذهب معه حتى آخر العالم، لولا... صدقني!

لم يرد عليها.

عمي...!

بعد وهلة رد عليها بتشكك: كنت تحبينه؟ -

أقول لك، كنت لأذهب معه حتى آخر العالم، لولا...

آه!

همست في تردد: - لقد كنت أعاشره.

كنت تعاشرين ابني يانو؟

نعم، كان يحبني وكنت أحبه، وتبادلنا القبلات.

تبادلتما القبلات...

نظر إليها باستغراب. أراد أن يقول لها شيئا لكن الكلمات لم تسعفه، هربت من على لسانه. ابتلع بصعوبة لعابه الثقيل الكثيف الذي وقف في حلقه.

2

في اليوم الثالث حملوه إلى جبانة مهجورة وصغيرة، ينمو فيها نبات القُرّاص[2] وتفوح فيها رائحة زهرة البلسان. دقت الأجراس. كانت الغربان الضالة تحوم حول البرج، والغيوم تغطي السماء، وأصوات الصلوات تنتشر في الجبانة وترتد إلى الأرض بدون صدى.

وقف بيتر شتالينا أمام القبر محزون الصدر. ورغم أنه كان يحب ابنه أكثر من أي شيء في العالم، لم تسقط من عينيه دمعة واحدة. عبس وجهه وحتى ظهره: ظهرت التجاعيد طويلة على جبينه، وتملكه شعور رهيب لم يستطيع أن يتخلص منه، تحول إلى حقد أعمى على كل البشر.

---

[2] القُرّاص: نبات ذو وبر شائك (المترجم)

فهو لا يكن لهم سوى الكراهية، وهو يراهم يقفون من حوله وفي عيونهم المكفأة والمتكسرة من الحزن شفقة بلهاء. ود لو يقتلهم جميعًا.

صمتت الأجراس وتوقفت الصلوات.

ساد صمت يبعث على الحيرة: بدأ من كان ينظر إلى الأرض يتطلع حوله وكأنه يبحث عن شخص ينتظره. لكن أحد لم يأتي. . . بقيت زهرة البلسان عند الحوائط المتداعية وحيدة حزينة، وبدت أشجار الحور التي غطاها الغبار جافة وعالية.

دوى في هذا الصمت وقع خطوات عمال الدفن، خطوات وحيدة قاسية في أرض متكسرة: صمتت أصواتها الحادة وكأنه اجتثت من على الأرض. ثماني أيادي ثقيلة وحبلان أسقطوا التابوت ببطء واختفى في الحفرة الصفراء.

هز بيتر شتالينا يده بخفة، يبدوا أنه كان يريد أن يقول شيئًا. ثنى شفتاه، وشد فكه بشدة، ورفع حلقه الجاف، ولم ينطق بكلمة.

شخص ما يبكي في هذا الحشد. جاء صوت بكاءه هادئًا وبطيئًا وكأنه ينبوع ماء. ارتجفت له فرائضه، وكأن أحدا قد ألقى عليه بخيط ملتهب. التفت تجاه الصوت. رأي كاترينا زالتشيكوفا وهي تركع على ركبتها وتبكي، دار على كعبيه، لكنه لبث في مكانه. سقط على ركبتيه وطال ركوعه، وعندما نهض كانت الجبانة قد خلت من زوارها.

التقت أنفاسه ثم ألقى الصلوات.

عندما حل المساء ذهب إلى كاترينا. دخل إلى البيت، ثم جلس عند الفرن. طال جلوسه دون أن نبث بكلمة، ثم قال وهو ينصرف:

أنت كاترينا!

ماذا يا عمي؟

سعل الرجل وبدا لها أكبر من عمره عشر سنوات على الأقل.

قال ببطء وبهدوء كادت لا تسمعه: المعذرة!

تقدمت وجلست بجواره. ثم بدءا يتحدثا عن يانو في ضوء القمر الصاعد، ورائحة العشب تملأ المكان. تحدثا بهدوء وعلى مهل. كلمات مليئة بالحب، جاءت مسترسلة، صنعت إنسان بدون جسد يجلس في ركن البيت يتابعهم. كانت عيناه جميلتان مليئتان بالتأمل، شفاهه منبسطة. تدمع له عين الناظر إليه. أخذا يلاطفان هذا الإنسان الطيب المتأمل ويحكون عنه الذكريات. لقد أحبه كلاهما. لو استطاع أن ينضم إليهما لكان أمرًا طيبًا. سيجلسانه بينهم ويحكون له ما دار في الأيام الثلاث الماضية وكأنه أمرًا طبيعيًا.

لكن أحد لم يأتي. لم يكن هناك سوى صوت الضفادع القادم من المستنقعات، يسمعها السيد شتالينا وهو يهم بالانصراف. انصرف بسرعة. لكنه في هذه الليلة بدا وكأنه يعاني من كسر في ركبتيه: أخذ يجر قدميه على مهل في حديقة يفوح في شذا قطرات الندى المنعشة ورائحة الأخشاب المحترقة التي تنبعث من أسطح المنازل في الظلام.

كان الساعة تجاوزت منتصف الليل عندما وصل إلي المنزل. القمر الشاحب لا يتحرك من مكانه. لقد علق في السماء ينشر ضوءه على الأرض التي تلمع بنوره الفضي الحاد. سقط عليها هذا النور كالثلج ليتحول إلى برودة بيضاء صامتة. تسللت إلى كل ما على وجه الأرض فتجمد وتحول إلى مشهد أبدي في السماء.

وقف بيتر شتالينا في مكانه كالحجر، لا يبرحه، وسط الفراغ المشرق الكبير الذي لا يسمح بميلاد بصيص أمل. يرى أمام عينيه وهو يستند إلى سياج البيت ويداه مسدلتان، مطرق الطرف بيوتا ورثها عن أبيه وجده، أسطحها مغطاة بالألواح الخشبية، أطرافها وجوانبها يكسوها اللون الأبيض. عندها أدرك تمامًا ما يعنيه موت ابنه، ونهايته هو شخصيا. وكأنهم أخذوا شيئًا من هذا المنزل، فصار سخيفًا وغريبًا عنه بكل ما فيه. لقد سلبوه كل شيء. كان شعورًا غريبًا لم يستطع التخلص منه. لقد سيطر عليه تمامًا. سرت في جسده رعشة، ثم صدرت من أعماقه صرخة:

ابني يانو!

لم يكتف بهذا فقال:

لمن؟

لكن الكلمة علقت بلسانه. انتفض جسمه من الألم حتى ارتعشت أسنانه. ساد الصمت في الغابة والحديقة وكأنهما يتجاهلانه. لقد ضرب بيتر شتالينا بقبضته على وجه الطبيعة مئة صفعة بسؤاله هذا:

لمن أترك هذا المنزل... ؟ قل لي يا يانو... لمن أتركه؟

وقف شتالينا طويلًا صامتًا، ينتظر إجابة. لا مجيب، وحتى رأسه لم تجبه. لم يكن هناك سوى صوت أوراق شجر الحور تتطاير في الهواء وتأخذها بعيدا رياح جنوبية تهب بلا توقف.

بدأت من بعيد ناحية الشرق تظهر حمرة الأفق.

نهض طوعًا أو كراهية.

وهنا وكأن كل شيء قد تلاشى من أمامه، البيت والأطيان وحتى القمر الباهت: بدأ يشعر في قرارة نفسه، بل بدأ يؤمن بأنه سيلتقي معه – مع قاتل ابنه.

لم يواصل التفكير في الأمر، لكنه عصر قبضته. كانت ثقيلة وباردة كالثلج.

3

جاء رجال الشرطة من قرية تبعد عنهم بثلاث قرى: جاءوا يهرولون، واستمروا في البحث لمدة ثلاثة أيام. استجوبوا كل من في القرية، طرحوا أسئلة أجاب البعض عنها باقتضاب وبعضهم بإسهاب وبجمل طويلة متقطعة وهم يحركون أيديهم في الهواء. لم يتوصلوا إلى نتيجة. القوا القبض على حارس الغابة وبعض الشباب – من بينهم أوندري زيمون الذي كان يتردد بين الحين والحين على كاترينا. في اليوم التالي أطلقوا

سراحهم جميعًا لنقص الأدلة. حارس الغابة لأنه لم يكن هناك في تلك الليلة، الشباب لأنهم لم يكن بينهم وبين القتيل أية نزاعات. أما أوندري زيمون الذي رفضته كاترينا فقد تصرف بحذر مما جعل القس يتولى أمره بنفسه. وهدأت أنشطة الجهات التي كانت تتجمع في حديقة المنزل. ولم يسفر البحث سوى عن كم كبير من المحاضر عند عمدة القرية الذي يتفاخر بها في المقهى. وتوقف الناس عن التفكير في الحادث. وأخذوا يهزون أكتافهم ويتسامرون في أمسياتهم أمام البيوت، ويطرحون في الهواء أياديهم التي انطبعت عليها آثار الفقر والعمل الشاق. انتشرت آراء هنا وهناك يتهمون فيها فلان وعلان وهم يلتفتون حولهم، ثم يعودون وينفون التهم بجمل واضحة محددة، ثم يسود الصمت وقد نال منهم الإرهاق. يكسر هذا الصمت صوت الهارمونيكا التي يعزفها الشباب في صمت الليل وهم يسرعون إلى الغابات الهادئة.

اختفت أية آثار تقود إلى القتلة. انحسرت الشبهة في كاترينا زالتشيكوفا، لكن بمجرد أن اعترفت بكل ما كان بينها وبين القتيل وتحدثت مع كل من تقابله بأسي عميق صادق، توقف الناس عن توجيه التهمة إليها. وهكذا سادت حالة من النسيان الغريب الذي لم يتقبله أحد.

في هذا النسيان نشأت علاقة مشبوهة، صداقة غريبة بين السيد ستالين وكاترينا زالتشيكوفا. كان شتالينا يتوقف عند بيتها وهو عائد من الحقل، ينادي عليها بصوت منهك، يتلاشى صداه عند الحائط. تخرج كاترينا عند سماع الصوت، ثم ترافقه إلى المنزل، ويسيران على رصيف

الشارع وقد خلا من المشاة، وليس به سوى كتل من الطين وأعشاب داستها الأقدام. جعلتهم هذه اللقاءات ينسون همومهم: شتالينا موت ابنه يانو وكاترينا حزنها. انفتح أمامهم عالم مهجور صامت خالي من الحزن والتعب، كل ما فيه تعايش مع قدر لا يحسدون عليه. صارت كاترينا يوم بعد يوم جزءًا من حياته. وجد عندها ما يذكره بابنه يانو، عاداته وكلماته. شعر أنه لولا كاترينا لفقد كل شيء حي يذكره بابنه يانو. لذلك لازمها ووضعها نصب عينيه.

لكن شتالينا فوجئ يوما من الأيام بشائعات غريبة تنتشر في قرية مالكوفا. وما أن بلغته هذه الشائعات حتى امتقع لونه وارتعشت يداه. ومع استمرار الشائعات ذهب إلى بيتها.

وجد كاترينا في الحديقة تعد طعام الماشية، كان المطر ينزل، بدت البيوت كأكوام كبيرة من روث الحيوان في جو يملأه الضباب والغيوم.

جلس بيتر شتالينا عند عتبة الباب، التقط جزلة من الخشب وأخذ يكسرها ثم نادى:

كاترينا...!

ماذا يا عمي؟

سمعت أن...

لم يكمل كلامه، حيث نزلت من عينيه دمعتان كبيرتان. صمت طويلًا، ثم قال بصوت أجش ضعيف:

كاترينا! يؤسفني ما يجري لك.

كان يريد أن يقول لها المزيد لكنه لم يستطع. وحنى رأسنه. تقدمت منه كاترينا وهي تراه حزينًا. ثم طبطبت عليه كالطفل، وهمست له قائلة:

لماذا يا عمي؟

كاترينا! أنا...

ثم أمسك بيدها في توسل وهو ينظر إلى عينيها. كانتا زرقاوان وصافيتان إلى درجة جعلت شتالينا ينهض ثم ينصرف.

في مساء ذلك اليوم التقى بـ كارول زلاتشيك الذي يعود يوم الأحد دائمًا البيت وهو سكران، ضرب بعصاه على أسوار البيت، ثم بدأ في ردهة البيت في مضايقة زوجته وأخذ ينعتها بالثرثارة القبيحة المتعجرفة.

سمعت أن كاترينا...

هكذا بدأ الحديث بعد مقدمة طويلة، بحث خلالها عن كلمات مناسبة يعبر بها عن ما استحال التعبير عنه. لكن كارول فهم ما يقصده شتالينا، فاستند على السور ثم شبك قدميه وبصق.

إن هذا الشاب زيمون يتقدم به العمر و... كاترينا أيضًا حان الوقت لأن تتزوج.

طرفت عينا شتالينا وانتفض وكأنه تلقى ضربة قوية ثم بلع ريقه.

لقد تقدم العمر بالفتاة ويمكن أن تظل هكذا بدون زوج.

شحذ شتالينا عزمه وقال:

لا داعي للعجلة. يا الهي! إن الفتاة...

أراد أن يتحدث بلهجة جادة لكن صوته انحشر في حلقه وانخفض حتى كاد لا يسمع. حدق إلى زالتشيك بعينيه التي ملأهم الحزن والهم، لكن زالتشيك الذي كان يحفر بالعصا في الأرض لم يلاحظه:

ليس في يدنا أن نفعل شيء. كنا نعتقد أن ابنك يانو لكن... الله أعلم كيف حدث ذلك! لكنها كانت تعاني منه.

استفاق شتالينا عند سمعاه هذه الكلمات:

تعاني منه؟

نعم.

ربما كان ابني يانو...

كان يزعجها.

يزعجها...؟

ألم يكن الأمر كذلك؟

انحني جسم شتالينا وارتعشت يداه. كاد يفعل به شيئا، لكنه رأى زالتشيك وهو يجلس بطريقة عادية على سور البيت الرمادي المائل فخفض رأسه وأكد له قائلًا:

إن ابني يانو كان شابًا محترمًا.

لقد كان على استعداد أن يهجم على كل من لا يصدقه ويجبره على الاقتناع بما يقوله عن ابنه. لكن الجميع كانوا يوافقونه الرأي: فهو كسحابة وردية علقت في السماء لا تطالها الأيدي احترقت وتحول لونها إلى لون الرماد، ثم سقطت في الأرض بهدوء، وتجمد في ليلة مليئة ببوادر عاصفة ورعد قادم من بعيد.

كانت أجراس المساء تدق في القرية عندما نهض زالتيشك من على سور البيت، ثم أضاف بإمعان قائلًا:

لم يقل أحد أنه لم يكن شابًا محترمًا. لكن هذا ما حدث ولا فائدة من الكلام.

بيتر شتالينا الذي انتظر بتلهف كلماته بدا وكأنه أصابه وهن وقال له: إلى اللقاء ثم انصرفا. ذهب شتالينا خلف جدول الماء. أما زالتشيك صعد التل عائدا إلى البيت. أحدهما مستغرقًا في التفكير والآخر راضيًا عن نفسه ويسير بخطوات واسعة.

منذ هذا اللقاء صار شتالينا يظهر بين الناس كثيرًا. رآه كثير منهم يجلس مرة أمام البيوت، ومرة عند حظائر الحيوانات أو في مخازن الخشب. يتفوه ببعض الكلمات، ثم يصمت ليستمع إلى ما يقوله الآخرون. بعد ذلك يغرق في التفكير ثم يذهب عائدًا إلى البيت. كان الناس ينظرون

إليه ويطيلون النظر، وما أن يختفي خلف أسوار البيوت أو المزارع حتى يبدءون الحديث عن حبه الكبير لابنه.

بعد مرور ستة أشهر على الحادث، حدث ما لم يكن يتوقعه على الإطلاق: لقد تزوجت كاترينا. لقد أخبرته بالأمر، لكنه لم يصدق حتى شرحت له كل التفاصيل. قالت أنها لم تكن تريد أن تتزوج وأنها لا تحب زيمون، وأن أهلها أجبروها على الزواج منه. انخرطت بعد ذلك في البكاء. ربت على رأسها وهو على قناعة بأن شيء ما سيحدث في اليوم الأخير وهي في الكنيسة تؤدى قسم الزواج، وستصبح كاترينا حرة.

لكن شيء من هذا لم يحدث. جاء اليوم عقد قران كاترينا على زيمون في الكنيسة. عاد شتالينا الذي شهد عقد القران إلى بيته محطم، مكلوم. لكنه ذهب إلى حفل الزواج في مساء نفس اليوم. لقد كانت آخر أمل له. جلس على سور الحديقة، وأسند رأسه في راحتيه وانتظر. كانت السحب البيضاء تصدر ضوءًا أصفرًا على الحديقة التي تفوح منها رائحة الأعشاب، وتقف فيها أشجار التفاح صامتة. هناك في مكان ما تفوح رائحة كريهة من حظيرة الخيول والمواشي وكلاب ثائرة تنبح. علا في الحجرة صوت الموسيقى، كانت عنيفة وكأنها تريد أن تدعو العالم كله للرقص. الناس يتحركون هنا وهناك وهم يقفزون في الهواء ويخبطون بأحذيتهم على الأرض. يغنون أغاني الحب؛ عن التلال السوداء والديك والفتاة البيضاء. فتحت الأبواب وطار صوت الموسيقى في الظلام كتيار ساخن أراد أن يسابق الرياح.

جلس بيتر شتالينا وسط جموع المدعوين حزينًا حتى الصباح. ومع إطلالة نور الصباح، عندما صاحت الديوك للمرة الثالثة وانطلقت الغربان من الحدائق نهض شتالينا عائدًا إلى البيت وهو يحمل في نفسه جرحًا جديدًا.

4

اصطحب أوندري زيمون عروسه إلي بيته الذي يقع أسفل شجرة الصنوبر الحمراء وقد صنع للبيت سقفًا جديدًا. كان ارتفاعه متران تقريبًا – كارتفاع زيمون نفسه – وحتى لا ترتطم جبهته بسقف الباب وهو يدخل المنزل انحنى كالإوزة المتهورة. جحظت عيناه الرمادية من وجهه الشاحب، وارتسمت عليها علامات الخوف. ربما لهذا السبب كانت خطواته طويلة، يجر قدميه كالقطة الخائفة، ويعطى انطباعًا بأنه يبحث بإمعان عن شيء غامض ضاع منه ولا يستطيع العثور عليه. كان يحب كاترينا بنفس القوة التي يحب بها الكبار العقلاء. ورغم أنه لم يتحدث عن هذا، إلا أنه كان واضحًا بأنه ليلقي بنفسه في النار من أجلها.

وماذا عن كاترينا... ؟ لم يكن يهتم بهذا الأمر كثيرًا. لقد تربى زيمون في أسرة تجر النساء من الحقول بين التلال دون أن تسألهم. يعاشرونهم دون أخذ رأيهم، ويلدون منهن الأطفال دون استشارتهم. وأيضًا يسحبونهم إلى الجبانات الضيقة دون سؤال. لا يسألون عن أحد إن كان سعيدًا أم لا. هنا، في هذه القرية يجب أن تعمل وتعيش، أو العكس، تعيش وتعمل.

كانت كاترينا التي كانت حتى وقت قريب تحب يانو شتالينا الذي قتل خلف طاحونة الجبل تعي هذا الأمر جيدًا. لكنه مات، ولم يعد له وجود. عاشرت أوندري زيمون في سريره الخشبي الكبير الذي تعلوه صورة مريم العذراء في إطار من خشب الزان. مرر يده على جسدها وضمها إلى صدره. مالت كاترينا إليه كأية امرأة مطيعة. تحملت كل شيء. حفيف شجرة الصنوبر الحمراء يصدر كأغنية غريبة انطلقت أصواتها إلى الغرفة، وانصبت في أذنها كشفرة حادة. كانت ليال طويلة ومظلمة: من بعيد وعلى الجانب الآخر نار تشتعل، أشعلها حراس الغابة. في الحديقة طيور تغرد، وهما يتعانقان، ويهمس كل منهم للآخر بكلمات عذبة تنطلق في الظلام ثم تتصلب كالصمغ.

خمسة مرات ناما معا، وفي المرة السادسة عندما استلقيا في السرير حدث شيء كدر صفوهم. شعر أوندري زيمون فجأة وهي تضع رأسها على صدره بشيء ساخن يتسلل من تحت قميصه، مد يده فوجد على صدره دموعًا ساخنة. انزعج وأصابه الذهول. دفع كاترينا بعيدًا، ثم استدار وأخذ ينظر إلى الأرض. شعر وهو ينظر إليها بشيء يخرج من صدره وينسل إلى رأسه ويقبض عليها بقوة وكأنه زراع من حديد. امتقع لونه وهو يحتضنها، وتصبب العرق من جبينه. فتحسس في الظلام كاللص وقال:

كاترينا!

أراد أن يكمل لكن الخوف تملكه، وابتلع ريقه الذي أحدث طرقة في الفراغ. وكأن الظلام صار باردا. ساد صمت قاتل في الغرفة. في الخارج تحت

النافذة كلب ينفض عن جسمه الحشرات ويضرب بقدميه على الحائط. عندما سمعه زبمون استدار على جانبه، ثم استقر كقطعة خشب. شيء ما جال في خاطره، هز كيانه، جعله يشعر بألم حتى في جسده.

كانت ليلة صعبة.

استيقظ حزينا. ظلت عينا كاترينا متورمتان طوال اليوم.

في الصباح ذهبت لإحضار الماء، قابلت وهي تمشي على الرصيف بجوار ساحة بيت عائلة بيلا-هورنيهو السيدة بيلا والعمة شكولنيتسا التي كانت تقف وسط الساحة وهي تحمل في يدها معيار للدقيق، ابتسمت لها العمة ابتسامة عريضة. أما السيدة بيلا فبمجرد أن لمحتها حتى سألتها على الفور:

كاترينا! ما هي الأخبار؟

ردت كاترينا وهي تحاول النظر إلى الأرض:

أنا ذاهبة لإحضار الماء.

لكن العمة شكولنيتسا اعترضت طريقها وقالت:

ما هي الحكاية؟ ألا تريدين الحديث معنا؟

إنها تتكبر علينا.

حاولت أن تتظاهر بالسعادة غير أن صوتها لم يسعفها:

دعكي من هذا! لم يخطر هذا على بالي قط.

قالت السيدة شكولنيتسا وهى تنظر في عينها:

إنها تبكي!

تبكي؟

هل ضربك؟

لا

ما الأمر إذن؟

لم يضربني!

ضحكت السيدتان وقالتا:

يا سلام! لا داعي أن تخفي عنا شيء. أتعتقدين أننا لا نعرف؟

وكيف...؟ فالرجل نعرفه جيدًا.

أقول لكما أنه لم يضربني. ما الداعي لكي يضربني؟ لم يمر حتى أسبوع على زواجنا...

ما الأمر إذن؟

بدون سبب... فقط شعرت بالأسى.

ثم انفجرت في البكاء أمامهن، وانصرفت نحو النهر وهى تبكي. ضحكت السيدة شكولنيتسا وقالت:

انظري! شعرت بالأسف. . غير معقول! تبكي بعد مرور أسبوع على زواجها بدون سبب.

في نفس اليوم عرف شتالينا بما جرى لكنه لم يعلق على الأمر، بل راح يفكر فيما سمعه.

شيء ما أصاب بيت زيمون بالتجمد. وكأن شخص ثالث انسل إلى البيت ونشر فيه ثلجًا. كل شيء صار باردًا كصقيع الخريف: كاترينا تسير باكية وأوندري زيمون يبدو عابثًا متجهمًا كالليل، دون أن يعرفا السبب. كان كل منهما يتجنب الآخر، إذا التقت عيناهما ينظران على الفور في الأرض ويعود كل منهما في الاتجاه الآخر. زيمون يصرخ في حارس الغابة وكاترينا تصرخ في الخادمة. ويظلا يصرخان حتى بعد أن يتجاوزا الباب، عبثًا، فلم تكن الخادمة ولا الحارس يفهمان ما يقولان.

غير أن أم أوندري التي بلغت السابعة والسبعين من عمرها وتساقطت أسنانها وأصيبت بداء الربو مثل ابنها زيمون، عيناها مثل عيناه، هذه السيدة التي تتوكأ على عصاها بدأت تلاحظ ما يدور، ثم تهز رأسها التي تعلوها بطريقة مثيرة للضحك ضفيرة رقيقة وصغيرة. في نهاية الأمر دعت ابنها أوندري إلى الغرفة، ثم أغلقت الباب بعد أن دخلت وأخذت تلقي عليه نظرة متفحصة ثم قالت:

أوندري!، أنا. . في الواقع، أنت تعرف. . كاترينا هذه تبدو. . ما يحدث؟

لم يرد عليها. جلست السيدة العجوز على المقعد وهي تفكر، ثم أسعلت وقالت وعايناها مسلطة عليه:

أرى. . . دموع.

لكن أوندري زيمون هز كتفه ثم انصرف تتبعه برودة . مصحوبة بغموض حطم الجميع. أصابها من جديد السعال وهزت رأسها. ومنذ ذلك المساء وهي تطيل في صلواتها تستجدي العون. واصلت كاترينا بكائها حتى اليوم الثالث في حين لزم أوندري الصمت.

مع غروب الشمس عند جدول الماء أخذت السيدة شكولنيتسا تستجوب حارس غابة زيمون، وزوجها هو الآخر يسأل السيد شتالينا الذي ما أن سمع ما سمعه حتى نزل إلى القرية على الفور. قابل عند ينبوع الصنوبر كاترينا التي كان تحمل الأعشاب للإوز. نادى عليها:

كاترينا!، سمعت أن. . . أنك تبكين.

ردت بحدة لغضبها من سؤاله وقالت:

نعم أبكي.

ولماذا؟

جاء سؤاله خاطفا جعل كاترينا تكاد تدور حول نفسها. لماذا. . . ؟ هي نفسها لا تعرف السبب. غير أن صورة يانو شتالينا قفزت أمام عينها، وظلت ماثلة بقوة ولم تستطع الهرب منه.

تحدثا وطال حديثهم، تكلما في موضوعات مختلفة، ثم عادت كاترينا زالتشيكوفا إلى البيت وصورة يانو شتالينا لا تفارقها. في هذه الليلة أوت إلى سريرها وهي تفكر فيه.

كانت النافذة مفتوحة. تجمع الشبان في الحديقة ينشدون أغاني عن الليلة الهادئة وغابة الصنوبر والدجاجات الملونة الخجولة التي تحلم في الغابة. كان الرد يأتيهم من الوادي المظلم. ويرتد الصوت الذي توغل فيه لينًا وضعيفًا كالسماء في منتصف الليل. كانت صورة يانو شتالينا عند سماعها أصوات هذه الأغاني تصيبها بالمهانة، فحاولت التخلص منها. أمسكت بيد أوندري وعندما رد بالضغط على يدها مالت عليه.

تبعتها ليلة مجنونة أخرى، بدأت فيها مرحلة جديدة من حياتهما.

5

ذات مرة وهو عائد من الكنيسة قابل السيد شتالينا أوندري زيمون. لم يلحظه زيمون إلا وهو بجواره فمال بطريقة غير طبيعية وطرف بعينيه وألقى عليه التحية:

مرحبًا!

أهلًا!... هل أنت عائدا من الكنيسة؟

نعم، غادرت الكنيسة منذ قليل.

ألقى الكاهن اليوم خطبة جيدة.

نعم، كانت خطبة جيدة.

صمت زيمون ووضع شتالينا الذي يسير بجواره يديه خلف ظهره. ثم صعدا أحد تلال القرية. كانت تقطع الطريق بعض أخاديد المياه التي تحمل روث خيول وأحجار متكسرة. صارت الأرض التي كانت منذ وقت قريب تغطيها الثلوج تفوح برائحة زكية. لكن البيوت والغابة والماء تبدو عكرة كالمريض الذي يتعافى، فخرج إلى الشمس بعد مرض طويل.

بدأت الحياة تدب في مكان ما. الأرض تطلب الحبوب. الغابة تصدر أنينًا وهديرًا غامضا، خرير الماء في الجداول يعلو سعيدًا، والغربان تنشر أجنحتها وهي تعلو في السماء وتطير بعيدًا حيث تشتعل نار زرقاء تلألأ في برك المياه الصغيرة. كانت صورة جميلة وسعيدة تجعل الإنسان يلتقط أنفاسه ويعلو صوته.

لكن أحدا منهما لم يتكلم، لا شتالينا ولا زيمون. سار كل منهما مستغرق في التفكير، شتالينا يمشي منحنيا وأوندري زيمون يخطو خطوات طويلة تغوص بعمق في الرمال. بعد لحظات التقط شتالينا أنفاسه ثم جفف جبينه بأكمامه وتوقف ثم قال:

لا أستطيع.

التفت إليه زيمون من وراء كتفه. أراد أن يقول شيئًا آخر لكنه دمدم قائلًا:

إنه طريق شدد الانحدار.

اتكأ على عصاه. جلس شتالينا على جزع أحد الأشجار ثم شد جسمه وقال:

وحدي، يا الهي! آه لو تعرف كم أحن إليه. حتى البيت والأطيان!. . . ينادون ويصرخون ويمدون لي أياديهم، وأنا. . . ماذا بيدي؟

هز زيمون رأسه بعدم اهتمام. واصل شتالينا كلامه:

ليس بيدي شيء. . . لقد نفذت قواي، لم تعد لدي يا أوندري القوة الكافية!

يبدو أنه أفرغ ما في داخله بهذه الكلمات. سقطت رأسه التي شاب فيها الشعر على صدره وهو حزين، تملأها حسرة شديدة. بعد لحظة استطاع أن يدور برأسه بحدة حتى التف عنقه كالحبل، ثم رفع يده التي غطاها لون داكن وبرزت عروقها وتجعدت أصابعه من شدة العمل. انطلق إلى الوادي حيث يعلو صرير الماء في الجدول. وفي نهاية الوادي تقف طاحونة، كونت الغابة حولها دائرة داكنة اللون. الماء يتساقط من المزراب على عجلات الطاحونة، ويتحول إلى آلاف القطرات البيضاء. تتلألأ في ضوء الشمس الساطع كطوفان من حبات اللؤلؤ وهي تتراقص سعيدة في الهواء الصافي. لكن عندما لمح بيتر شتالينا هذه الدائرة السوداء خلف الطاحونة ضاقت عيناه وملأها الحزن وصاح:

هناك. . . قتلوا ابني!

رفع يده ونهض بحركات متثاقلة. صمت قاتل يأتي من ناحية الطاحونة. وكعادته حرك أوندري زيمون رأسه: سار متثاقلًا إلى الأمام. وهنا تخيل أن عنقه طال بصورة غير طبيعية، وفي عينيه بريق غريب.

سار بيتر شتالينا خلفه كالشبح.

كانا يلتقيا منذ ذلك الوقت كل أحد تقريبًا وهما عائدان من الكنيسة. يمشيان معًا: أوندري زيمون ينظر أمامه وكأنه يخاف أن يصطدم بعتبة الباب، ومن خلفه السيد شتالينا يسير كالشبح. يتبادلان الحديث عن ابنه. كلمات عذبة هادئة تخرج من فمه وكأنها نسيج العنكبوت. كانت بمثابة دواء لروحه، لا غنى له عنها. بدونها لا طعم ليومه. في البداية كان أوندري زيمون يستمع له بدون اهتمام، وسرعان ما بدأ ينصت إليه. قال له في إحدى المرات بحدة:

لما كل هذا الحديث عنه؟ لقد مات! ولن يفيده شيء من هذا.

ثم التفت ناحيته ولم يكد يعدل رأسه، فقد ألقى شتالينا عليه نظرة غاضبة وقال:

ماذا تقول...؟

لم يرد عليه أوندري زيمون، وكذلك شتالينا لم يسأله مرة أخرى. لقد تاهت كلماته وكأنها ذهبت أدراج الرياح. منذ ذلك الحين كلما التقيا وهما عائدان من الكنيسة التزما الصمت، وانصرفا على هذا الحال. كان حديثهم غالبًا عن الطقس. لكن بدا الأمر وكأن كل منهما يراقب الآخر وبدأ يتجنبه.

ذات مرة كان أوندري زيمون يسير في الطريق، ثم انعطف على الرصيف، لم يكد يصل إلى كوخ في بيت عائلة ديوبكا حتى سمع من خلفه وقع أقدام وصوت نفس ثقيل، إنه شتالينا، أظهر زيمون الامتعاض من رؤيته الأمر الذي تعجب له شتالينا. ألقى كل منهما التحية على الآخر، ثم سارا معًا. في الأسبوع التالي، وبمجرد أن أنهى الكاهن خطبته حتى انصرف شتالينا مسرعًا من الكنيسة حتى لا يلتقي مع زيمون. وللتأكيد سار مهرولًا. ثم جلس على أحد الأحجار بين أشجار الصنوبر يضع التبغ في غليونه، وهنا ظهر في الطريق زيمون. توقف عنده وألقى عليه التحية ثم سارا معًا. بدا زيمون متجهمًا، بصق على الأرض. شتالينا أخذ يسب ويلعن في سره.

في الأسبوع الثالث قرر زيمون أنه لن يذهب إلى الكنيسة. لكن ما أن دقت أجراس الكنيسة للمرة الثانية، قوة خفية جعلته ينهض ويذهب إلى هناك. وأيضًا التقيا من جديد. بدا الغضب على كل منهما. عندما اكتشفوا أن كل جهودهم تذهب سدى، تركوا الأمر للصدفة التي دائمًا ما جمعتهم كل أحد، من عند الكنيسة وحتى البيت. كان كل منهم يفكر في نفس الشيء الذي يفكر فيه الآخر، رغم أن كلاهما لا ينظر إلى الآخر ولا يحدثه. وكأن شخص ثالث يوحي لهم بالأفكار التي يتبادلانها، وتشحذهما بالغضب والسخرية التي تستفزهما. ذات مرة سحب زيمون شفتيه وقال على مضض:

ماذا عن ابنك؟

لقد صوب وأصاب. نظر السيد شتالينا إليه وأخذ يقلده وهو يمص شفتيه ثم قال:

لقد أطلق عليه النار.. شخص ما كان يصطاد الحيوانات. وبدلا من يقتل الظبي قتل ابني.

هو بالتأكيد صياد ماهر.

لم يرى جيدًا.

لكنه أصاب.

من على بعد عشرة أمتار.. أصاب، هذا الأعمى.

أمر غريب! احمر وجه زيمون كسرطان البحر. نظر إليه شتالينا والتقت نظراتهما. كانت طويلة ومستفزة.

واصل بيتر شتالينا حديثه وهو يلهث من الإجهاد:

أصيادون هؤلاء الذين يخفون بنادقهم في القش ويختبئون كالكلاب قبل المعركة؟

ماذا...؟

انتفخت عروق زيمون في جبهته. ثم تقدم من شتالينا وكأنه يريد أن ينقض عليه، ثم كرر ما قاله:

ماذا...؟

أخذ شتالينا يتفحصه في ذهول ثم سأله:

أتدافع عنه؟

امتقع وجه زيمون بسرعة جعلته يرتبك، لكنه سرعان ما ابتسم وأضاف بحدة:

أنا لا أدافع عنه... لكن يجب أن تعترف بأنه رجلًا ماهرًا لأنه استطاع الاختفاء حتى الآن.

تقدم منه شتالينا وهو يفكر في أمر يكاد يكون واثقا منه ثم قال بانفعال:

إن كان رجلا سأبثق في وجهه، إن كان امتلك الجرأة على قتل إنسان فلتكن لديه نفس الجرأة على أن يعترف بما ارتكب.

لكن النظر إلى الشمس من بيت ريفي أفضل من النظر إليها من خلق قضبان السجن.

أمن الأفضل أن تكون كلبًا أجريًا على أن تكون نسرًا سجينًا؟

هذا كلام نقوله للأطفال.

ضرب أوندري زيمون بيده في الهواء. أخذ السيد شتالينا ينظر إلى ظهره وهو يسير خلفه وكأنه يريد أن يخرق معطفه. لكنه لم يكن سوى معطف أسود لا يضر و لا ينفع. فنظر في الأرض.

ذات مرة وهما يسيرا معًا التفت إليه زيمون ببطء وسأله على حذر:

أتعتقد أنهم سيعثرون عليه؟

على من؟

هذا... ذلك الـ..

ثم نطق بصعوبة كلمة القاتل. فقال له شتالينا مؤكدًا:

سيظهر يوما ما. سيأتي يوما ينكشف فيه سره.

صحيح؟... سنرى.

انتصب أوندري زيمون وأسرع في مشيته حتى ابتعد عن السيد شتالينا الذي انكشف له أمر، وكأنه بصيص ضوء أخفي سرى في عقله.

6

اخضرت من جديد شجرة الصنوبر الحمراء أمام منزل أوندري زيمون وصارت الحجرة - التي كانت حتى ذلك الوقت يغمرها الضوء، باردة كالثلج، وتسللت إليها عتمة خضراء. أجراس البقر العائد من المرعى يصحبها غناء الراعيات، بث فيه شعور بالسكينة، دفعه أن يجلس وينظر إلى الوادي الفسيح، حيث تنمو أشجار الكرز ويعلو في الجو دخان أبيض. الناس يهرولون ويتحدثون، غير أن كلامهم يتلاشى في السحاب ويخلفون وراءهم شعور طيب وهدوء عميق يكسره شباب عائلة زيمون بعد أن لاحظوا وجود الثلج في غير أوانه. بالفعل سقط الثلج، وتجمدت الأشياء. شباب العائلة يلتقطونه بيدهم، ثم ينظرون إلى بعضهم البعض يلقون به، ثم يسقطون على الأرض بكامل ثقلهم. كاترينا تتحرك ولا تكلم أحدًا.

الراعي يسب ويلعن على الخشب الطري، الجميع يلاحظ أن ضفيرة أمهم مازالت ملقاة أعلى رأسها بصورة غريبة.

لم يعد أوندري زيمون إلى البيت إلا في المساء، يحني رأسه ويسير في المنزل صامتًا، يعطي انطباعًا بأنه إنسان يعرف أمرًا ما، لكنه يلتزم الصمت وهو يكابر، وكأنه غاضبًا على العالم كله. كانت أمه تلقي عليه الأسئلة ما أن تجده بمفرده عندما كانت تأتي مع أبيه لزيارتهم. لكنه إما أن يمتنع عن الرد أو يهز كتفه وينصرف. زاد حبه لـ كاترينا عن ذي قبل، لكنه لم يكن يصرح بذلك. بدا وكأنه غاضبًا منها هى الأخرى، ولا ينوي أن يتغير. على الرغم من أنهما كانا ينامان معًا، إلا أن شيئًا ما يخفيانه، ولا يعرفه أحد. ساد صمت باهت، يوحي بصمت السجون والمساجين الذين يمضون عقوبة السجن المؤبد.

في هذا الوقت دارت في قرية مالكوفا شائعات في كل مكان بأن كاترينا زيمونوفا حامل. كان هذا الخبر مهما لأهل القرية - وكأنهم أرادوا أن يضعوا حدًا لشيء ما- فأخذوا يتحدثون عنه بحماس في كل مكان، سواء كانوا في الجبانة أم وهم عائدون من الحقول. كانت السيدة بيلا-هرونيهو سيدة ثرثارة. استوقفت يوما أوندري زيمون نفسه وسألته:

أوندري! هل تعرف؟

أعرف ماذا؟

أنت رجل جيد...

ثم ابتسمت ببراءة جعلت زيمون يرق لها، وهو الذي كان لا يحبها ويبصق عند ذكر اسمها. هز رجله وقال:

أولم أكن كذلك؟

يا الهي!

لماذا كل هذا؟

ألا تعرف ما يدور في بيتك؟

جاء على باله ما يدور من شائعات فعقد حاجبيه وقال:

ماذا؟!

امرأتك

كاترينا

طبعًا!

ماذا؟

ستكون أبًا...

ثم خبطت على ظهره الذي أصابته قشعريرة.

كان يعرف أن هناك حمل لكنه دهش بأن الأمر يعرفه الآخرون. رقة متجمدة انبعثت منه كالماء المختلط بالثلج. تحدث وهو مزهوا بكلماته

الواضحة الدافئة. تحدث طويلًا عن كاترينا حتى بدت من كلماته وكأنها سيدة مرموقة يجب أن يحبها، هو أوندري زيمون وكل من في القرية.

عاد إلى البيت سعيدًا على غير العادة. عند الباب قرص الخادمة، ثم أصدر ضحكات عالية في المطبخ على كلبه جعلت أمه تهز رأسها. وعندما دخل الحجرة أمسكت بيده وقالت:

أوندري!

ماذا؟

هل أنت سكران؟

أنا؟

نعم

ولماذا؟

لأنك تضحك.

فقال مداعبًا:

وهل لا يضحك سوى السكارى؟

كانت هذه أول مرة هذا العام يضحك ويمزح. ومن جديد علت الضحكات في البيت. سعادة بالغة عمت بيته ذلك المساء. وكأنهم لم يلتقوا منذ زمن راحوا يتحدثون عن الماضي الذي بدا لهم الآن بعد عام مضحكًا وطفوليًا، فراحوا يضحكون على ما كانوا يبكون عليه.

حتى الكلب راح ينبح من السعادة في تلك الليلة. همس أوندري زيمون لكاترينا وهو يمسك بيدها قائلًا:

كاتوشا...!

وعندما أخذ يعتدل ليترك فراغ بينه وبين كاترينا شيء ما خطر له. فتملكه الحزن، وبدون أن يدري سقطت يداه على السرير...

مر الوقت وهم في انتظار أن تلد كاترينا.

رزقت بولد. أطلقوا عليه اسم أوندري عن أبيه. حمله شتالينا والسيدة بيلا . هرونيهو ليعمداه (لم يستوعب أهل القرية هذا الأمر، لكن أبوه هو الذي دعاه). وبعد انتهاء التعميد يوم الأحد تجمع في الحجرة أناس كثيرون: والدي أوندري والسيد أوتيابكا وزوجته، ستيفان هرين وكيدون، كروبا ويانو أولين وبنتيهما اللتان، وقفتا عند الباب تعضان عُقَد ثيابهما. طلب أوندري زيمون بإحضار لترين من الكحول المطبوخ. وبعد أن خلطوه ظلوا يحتسوا منه طوال الوقت بعد الظهيرة. السيد كودان شرب بلا تردد، أما البنتان فبعد توسل تناولتا الكحول وهما عاقدان وجهيهما وتنظران في الأرض.

دار الحديث عن كل شيء: عن محصول العام القادم، وعن السيد بافل تاراب الذي أوصى وهو على فراش الموت بأشجار الصنوبر لإحدى خالاته من قرابة بعيدة، والتي لم يكن يعرفها أحد في القرية وليس لابنه كما كانوا يتوقعوا. ثار السيد كودان لما فعله الرجل لأنه لم يكن يحب مثل

هذا التحولات المفاجئة، فخبط بيده على الطاولة. وبعد أن هدأ الحاضرون قليلًا صرخ بصوت عال:

من منكم رأى ممتلكاتنًا يومًا؟

غير أن أحدا لم يهتم بما يقول. السيدة بيلا- هرونيهو كانت بعد كل كأس تذهب إلى كاترينا في الغرفة تهمس لها طويلًا، ثم تعود وعلى وجهها ابتسامة. أما الفتاتان عند الباب فقد تجرأتا وجلستا على السرير. من جديد دب خلاف بين كروبا وهرين حول الخشب. وعندما رأى كيدون أن الخلاف سيطول، حنى رأسه مستسلمًا للأمر وراح يغط في النوم.

ساد السرور في الحجرة. طال الحديث عن أوندري الصغير. زوجة أوتيابكا راحت تتنبأ بناء على علامات عديدة بأنه سيكون طفلًا سعيدًا. أمن كل من كروبا وهرين على كلامها. راح السيد أوتيابكا يفكر لبعض الوقت ثم انتبه، وعلى الفور التقط الغليون من جيبه وضغط على التبغ ثم أشعله. وبدا وكأنه يريد أن يذهب إلى مكان ما. هدأ الحديث عندما نادت كاترينا من الحجرة. كانت الفتيات يقفزن على السرير، فانطلقت السيدة بيلا خلفهم وهي خائفة.

الوحيد الذي لم يحضر كان أوندري زيمون. لقد عاد لتوه من الكنيسة، لكنه على عتبة الباب قال "مع السلامة" وقد أعطى انطباع بأن مكروه أصابه، ولا يريد ولا يمكن أن يخبر أحدًا عنه. في الواقع انصرف باهت الوجه. تعجب الباقون. كانوا يعتقدون أن الصحبة ستكون معه أكثر مرحًا. تحول عجبهم إلى دهشة أدت إلى نوع من القلق.

انصرفوا قبل أن يحل الظلام. لكن يانو أولين لمح صدفة يوسف سيفكا يسير تحت النافذة وفي يده الهارمونيكا ويتجه نحو الثيران. نادى عليه أولين، فجلس سيفكا على حافة الحديقة، وما أن بدأ يعزف على الهارمونيكا حتى بدأت الفتاتان ترقصان. حتى ستيفان هرين الذي كان يحب هو الآخر الرقص انضم إليهما. لم يمر وقت طويل حتى تجمع الشبان والشابات في الحديقة. الشابات تمسكن مناديل في أياديهن ورسمن على شفاههن تكشيرة.

جعل جو المرح هذا أوندري زيمون سعيدًا. لم يشاركهم، بل بمجرد أن رآهم يلهون ويمرحون انفرجت أساريره، وأرسل الراعي لإحضار برميل صغير من البيرة. على الفور بدءوا يشربون حتى آخر نقطة في البرميل. أرسل السيد هرين في طلب برميل آخر. وعندما حل الليل على القرية كان الجميع في بيت زيمون يرقصون ويشربون حتى الثمالة. في وقت الراحة جلس السيد كروبا عند الماء، وأخذ يحرك قدميه في الهواء، وفجأة انطلق في الغناء:

طارت الغربان،

طارت الغربان إلى الوادي...

وما أن سمعه من في الحديقة أخذوا يغنون معه:

...غربان غير أليفه

الليل الأسود فات

واليوم الأبيض آت

ثم تغيب الشمس...

علت أصواتهم بعفوية وطال غنائهم، كانت أغنيات حزينة، تتردد كتيار من البكاء تحت قبة السماء. كانت أغنيات مليئة بالحزن في ليلة من ليال الصيف، بادلتهم الحزن بحزن مماثل. يقف أوندري زيمون مستندًا على باب الردهة، يستمع إليهم وهو شاخص بصره بعيدًا. هو نفسه لا يعرف ماذا يرى هناك. فقط يشعر في نفسه بشيء يلين - وكأن ذقنه صار في موج الأصوات طويلًا، وعيناه يغشاها الضباب. أراد أن يضحك حتى يتخلص من حالته هذه ويصيح على من في الحديقة، لكن شفتاه لم تطيعاه. دخل إلى الغرفة واجمًا. وفجأة ذكر أن له ابنًا. أسرع إلى غرفته. ولما رأى أن كاترينا مازالت مستيقظة سألها:

يمكن أن أفتح النافذة؟

أومأت برأسها.

فتح النافذة فدخل صوت الأغنية منسابًا إلى الحجرة. كانت أغنية حزينة، جعلته يشعل المصباح ويجلس على المقعد حتى يخفف من وقعها قليلًا.

جلس ينظر أمامه، فوقعت عيناه على المهد حيث ينام أوندري الصغير. على غير قصد أخذ يتساءل: يشبه من هذا الطفل؟

كانت فكرة مجنونة.

لم يكن وجهه الصغير الضئيل يحمل بعد أية علامات تشبه أحد. لكن عندما نظر إليه مليًا، ارتبك. إنه يرى سمات يعرفها. لم يكن يريد أن يصدق ما يراه. رفع المصباح واقترب من المهد.

تأمله جيدا حتى بدأ المصباح يتأرجح في يديه. ملامح وجه الطفل هكذا يراها هو. واضحة وجلية وكأن أحد نحتها بيد قوية.

هكذا سيكون. ثم عاد ليؤكد نعم، هذه هي ملامحه.

وضع المصباح وهو مرتبكا مما رآه. تطاير الغضب من عينيه، فتقدم إلى السرير وصاح بصوت مهيب:

كاترينا!

ماذا؟

تردد ثم عض على أسنانه وقال:

أتعرفين من يشبه هذا الطفل؟

نظرت إليه في دهشة من سؤاله الغريب:

من؟

انظري...!

ثم التقط الطفل بعنف من كتفه ومال على المهد وهو يضغط عليه بشده. وعندما طال صمت كاترينا سألها:

ألا ترين؟

لا

انظري مرة أخرى!

كان الغناء مازال يتردد في الحديقة. الأغاني تطير في الظلام هادئة وبطيئة. أوندري يسألها وهو يجرها من ركبتها من على السرير بصوت ثقيل، غاضب:

ردي! ألا ترين؟

أتعني... ؟

تطلع كل منهما إلى الآخر وقد فهمت ما يعنيه.

قال أوندري: معقول؟!

ثم طرحها على السرير وكأنها قطعة من خشب.

7

منذ مساء ذلك اليوم لم يصرف أوندري زيمون نظره عن الطفل، سواء وهو في مهده أو بين أيادي كاترينا. أطال فيه النظر، تأمله وكأنه يريد أن يقتله بنظراته هذه. غير أن أوندري لم يتأثر بذلك، كان يعيش في دنياه، غير عابئًا بما يدور حوله. فهو مخلوق مستقل عما يدور حوله، يضحك ويبكي ويحرك

يديه وينمو، سواء أراد من حوله أم لم يرد. والأكثر من ذلك أنه رغم ضعف حيلته كطفل كان مليئًا بزهو الإنسان الذي يعي حقه في الحياة. كلما فكر زيمون في هذا عصر قبضته وعض على أسنانه يائسًا.

رأى وهو يراقبه التغيرات التي تحدث في وجه الرضيع. بدأ يختفي من وجهه لون الطفل الرضيع، أخذت هذه الملامح المفزعة . كما يراها هو . تتضح يومًا بعد يوم. ملامح تختفي تحت جلده، يشتد عضده كالوتر، يتشكل وجهه خلف هذه الملامح كالأرض تحت جزر شجرة البلوط وهو يتغلغل فيها بلهفة. ابيَضّ وجهه خلف هذه الملامح وتشكل. لا شيء على وجه الأرض يقدر على أن يوقف نموه.

وجه الطفل يحمل تلك القسمات الرهيبة كالفاكهة فوق الشجرة. هكذا يراه زيمون، بدأ يخفيه عن الناس حتى لا يرون ما يراه. كان قدر الطفل أن يبقى في حجرة لا تراها الشمس على مدار اليوم، ليس بها سوى عتمة خضراء تشبه الهواء المتجمد، يملأها بكاء الطفل وغناء كاترينا الذي يصدر كصوت من القبور.

ذات مرة جاء شتالينا بعد الظهيرة، لم يكن يريد أن يدخل، لكن السيدة بيلا . هورنهو أجبرته، فدخل ثم جلس وقال على الفور:

ما هي أخباركم؟

ردت السيدة زيمونوفا الأم وهي تنهض من على المقعد حيث كانت نائمة:

كما ترانا، محبوسون هكذا كل يوم.

لم يكن أوندري موجود في الغرفة. كانت كاترينا تجلس عند الطاولة وتقشر البسلة. دار شتالينا بنظره في الغرفة ثم قال:

- أين أوندري؟

قالت كاترينا بهدوء:

ذهب لإعداد العربة.

في صوتها شيء ما غامض. ما أن سمعها شتالينا حتى انتابه شعور بأن كل شيء قد ضاع، ولم يستطيع مواصلة الحوار. التزم الصمت ولم يرد الكلام، لولا أن أوندري دخل الحجرة. عندما رأى شتالينا والسيدة بيلا – هورنيهو يجلسان على المقعد، اندهش قليلًا، لكنه دخل وحنى ظهره كالمعتاد:

مرحبًا بكم!

ابتسمت السيدة بيلا – هورنيهو وقالت:

جئنا نطمئن عليكم.

أضاف شتالينا بطريقة رسمية:

كيف حالك؟

ماشي الحال.

جلس زيمون عند الطاولة، وأسند رأسه وهو ينظر في الأرض. فقالت أمه:

بصحة جيدة، هو قوي مثل الفجل الحار. عائلة زيمونوف دائمًا تعمر.

وماذا عن العشب؟ كيف ينمو؟ هل هناك ما نحصده؟

قال زيمون وهو يجر يخط على الأرض:

سيكون هناك عشب. الطقس جيد والعشب متواجد، وبدونهما يسوء الحال.

قال شتالينا:

لقد نزل المطر في العام الماضي.

رغم أن الشمس كانت تشرق في الخارج إلا أن جو الغرفة بدا وكان السماء ملبدة الغيوم والأمطار تتساقط. أمر صعب. ساد الصمت وعم الوجوم، واغبرت وجوههم البيضاء. عيونهم الكبيرة تبدو ميتة وهى تجوب الغرفة بلا هدف. بدوا خمستهم وكأنهم لا يعرفون بعضهم البعض. طال صمتهم: أرادوا أن يهموا جميعًا وينصرفوا وسط هذا الصمت. غير أن هذا لم يكن لائقًا. فجلسوا متصلبين في أماكنهم. أخيرا كسر شتالينا الصمت وقال:

كيف حال الطفل؟

كان في سؤاله مكر جعل أوندري ينزعج. لكن كاترينا قالت:

هو نائم، منذ قليل وضعته في السرير.

قالت السيدة بيلا . هورنيهو:

هل سينام طوال حياته؟ كم مرة أسأل عنه والإجابة هى نفسها. كيف هذا. . . ؟ أجيبوني. . . ! نحن لا نراه كل يوم. كاترا! اذهبي واحضريه!

عبس أوندري وشعر وكأن كل من في الغرفة قد اتفقوا عليه، ويتظاهرون فقط بغير ذلك حتى يتمكنوا من عصره على الحائط. ألقى عليهم نظرة شك، لكن وجوههم المكسوة بالصفاء جعلته يقول:

مهلا، لماذا تزعجون الطفل؟ لقد رأى العم شتالينا الكثير من الأطفال.

بقي الضيوف في أماكنهم وبعد لحظة ساد فيها الصمت انصرفوا وفي أنفسهم سئم وضجر.

ساد الوجوم في بيت زيمون. انصرفت أمه وكاترينا إلى الحجرة وظل أوندري جالسًا، غارقًا في التفكير على المقعد حتى المساء.

في المساء نهض، وارتدى معطفه ثم انصرف. ولم يرجع طوال الليل. عند الفجر رآه خادم السيد سيميك ثمل للغاية. ساعدوه في خلع ملابسه ثم أوصلوه إلى السرير. في اليوم التالي ذهب من جديد وشرب خمر أكثر من اليوم السابق. هذه المرة لم يرجع إلى البيت، بل ظل في الحانة مستلقيًا على الطاولة. بعد الظهيرة ذهب مرة أخرى وشرب من جديد بصورة لا مثيل لها حتى الليل. في منتصف الليل عاد إلى البيت، لكنه لم يدخل الغرفة بل ذهب لينام على التبن في المخزن. استيقظ في الصباح ورأسه تؤلمه. ضرب الراعي في فناء البيت وكاد يقتله، لولا أن أمه جرت عليه وأخذته من بين يديه، ولم يصاب سوى بنزيف في فمه.

صار أوندري مصدرًا لرعب لجميع من في المنزل. أما هو فقد غطى وجهه وجوم ثقيل. كان وهو يحني جسمه الطويل وينظر إلى العالم نظرة كئيبة يشبه الخنزير الثائر الذي يجري ويرتطم بكل عائق أمامه كالأعمى. ولا عجب من أن كل من في البيت صار يتجنبه. لكن أوندري الصغير - وكأنه يخالفهم- لم يكن يتجنبه.

لكنه هو نفسه يذكره وباستمرار بـ يانو شتالينا.

8

حتى كل الذين كانوا يلقون على أوندري زيمون نظرة عابرة يلاحظون أنه يتغير يومًا بعد يوم. صار وجهه الذي امتلأ بشاشة يومًا ما شاحبًا معلولًا: عيناه زائغة لامعة، قطب ما بين عينيه وكأنهم وصلوا حاجبيه بخيط، فمه مبلل عند جانبيه بلعاب أبيض. تقلصت رقبته أكثر من ذي قبل حتى كادت تنغلق، تجعد الجلد فوقها ومالت أسفل رأسه، وبرزت عقدة حنجرته الكبيرة التي انحشرت بشدة تحت قميصه المصنوع من الكتان وكأنها ستخنقه.

تغير في كل شيء. بدأ يتأنى في كل شيء، صار يمشي كرجل عقد أمره على شيء ويريد أن ينهيه. لم يكن ينظر إلى شيء أو شخص من حوله. بل يسير بثقة نحو هدفه، حتى جعل الناس يعتقدون بأن أوندري زيمون سيحقق مأربه مهما صادفه من عوائق. مما أكد من قناعتهم هذه أنه بدأ

يتردد على الحانة بانتظام. فكل يوم وبعد أن تدق أجراس المساء يرتدي معطفه وبعد لحظات يكون في الشارع، يسير وكأنها ذاهب لأمر يتوقف عليه مصيره أو أنه ذاهب لقضاء أمر هام.

لكن أوندري زيمون لم يكن يقضي أي شيء. ربما لهذا السبب اعتقد الناس أن ذكائه يكمن في أنه لا يقضي أي أمر، وأنه بهذه الطريقة سيبلغ ما يخطط له. لكن الأمر ليس كذلك. ما أن دخل الحانة رفع قبعته ونادى على سيميك الذي يحتسي الخمر مع خادمه:

أيها العرّاب! مرحبًا!

صافحه سيميك ثم أفسح له مكانًا. أوندري زيمون الذي لا ينبث بكلمة في بيته هنا يضحك ويمزح كأسعد إنسان في العالم.

نادى على الساقي عند البار:

كأس!

ثم استدار ونظر إلى سيميك، وعلت ضحكته أكثر وقال:

يقال أن الإنسان لا يجب أن يشرب! نحن نجتهد في العمل مثل الخيول، فلماذا لا نستمتع بوقتنا؟ فلن نأخذ معنا شيئًا إلى القبر، أليس كذلك يا يوسف؟

يوسف هو اسم خادم سيميك الذي كان ينظر إلى الأرض أو ينقر بأصابعه على المقعد. لكنه ما أن سمع الاسم رفع رأسه واحمرت وجنيه

كالصبية، ثم رفع صوته بالموافقة. كان سيميك كثيرًا ما يعلق على ردة فعله هذه قائلًا:

ماذا دهاه! إن هذا الرجل ليس له رأيًا! الغبي ليس عنده سوى نعم...

غير أن سيميك لا يستغنى عن خادمه. كان غالبًا ما يأخذه معه في كل مكان. يستمع إليه الخادم بوجه جاد. قويت صداقتهم حتى أن الخادم يعمل عنده للعام الخامس على التوالي. الخادم غالبًا ما يصحب سيميك إلى المنزل وفي البيت سيميك يقبله على وجنتيه كابنه.

بدأ سيميك يتحدث بعد أول كأس. استدار إلى أوندري وخبط على كتفه وقال:

ما رأيك لو بدأنا نتاجر؟

كان هذا سببًا وجيهًا للحديث. فكر أوندري في البداية قليلًا ثم أجاب:

هذه فكرة ليست سيئة.

ثم تحدثوا عن التجارة، وعن الرجل الذي كسب من بيع حصان واحد 500 كرون. لكن يوسف لم يستطع أن يصدق ذلك. هرش سيميك في قفاه، أما أوندري فقد خبط على الطاولة وهو يصيح:

اللعنة!

هكذا يصير المرء غنيًا.

صحيح.

أليس هذا أفضل؟

بالتأكيد!

ظلوا طوال الليل هكذا يتحدثون حول الموضوع، ويتناولون كأسًا وراء الآخر. تحت سقف الحانة يشتعل مصباح ويشع ضوءًا مختلطًا بدخان يلتصق على الحائط. لذلك بدت الحانة صغيرة جدا. سيميك ينظر في أحد الأركان بدهشة متزايدة لأنه يعتقد أنه يرى فرنين. لم يصدق ذلك. التفت إلى أوندري ثم أخذ يسأله عن بعض الأشياء.

ماذا عن ابنك؟

أزعجه السؤال، ظهر الغضب على وجهه ثم همهم بكلام غير مفهوم وقال:

هيا بنا.

ثم انصرف. كان الطريق مفروشًا بالثلوج، تقفز عليه ضفادع كسولة وقبيحة. ساد الصمت في القرية باستثناء صوت الشباب الذين يتهامسون في البيوت. بين الحين والآخر يسمع صوت ضحكات نسائية حادة وعوي كلاب. سرعان ما ساد الصمت من جديد.

عاد إلى البيت كما هو حزينًا، قلقًا. وجد كاترينا مازالت مستيقظة، فسألها:

لماذا لا تنامي؟

نظرت إليه في استغراب وقالت:

أنا؟

نعم أنت؟ من غيرك؟

قالت وقد استفزها الغضب:

نم أنت! بدلا من الجلوس في الحانات، استلقي ونم...!

أنت تأمريني؟

وهل أنت تأمرني؟

أنا؟

نظر إليها كالذئب لكنها لم تتحرك وقالت بحدة وبجرأة:

نعم، أنت!

أيتها الكلبة!

وماذا تكون أنت؟ ألا تخجل من نفسك؟

ثارت ثورته فهجم عليها وصفعها مرتان في وجهها وركلها في رجلها. أراد أن يوسعها ضربًا، إلا أن أمه جاءت مسرعة إلى الغرفة، وصاحت وهي ترى أوندري منكبًا على كاترينا:

أوندري!

جاء صوتها الداعي للتصالح حائلًا. فصلهما عن بعضهما في هذا المشهد القبيح. تراجع أوندري، وعندما رأى أمه تقف عند الباب تقهقر

وانسحب كالكلب الخائف. نام في هذه الليلة في مخزن القش. يداه تدعواه للقتال. تملكته رغبة في أن ينهض ويهدم السقف، الجو في المخزن تحت هذا السقف خانق وباهت كالسجن. لكنه لم ينهض ولم يهدم السقف. في اليوم التالي ثمل كاليوم السابق، لكنه عاد إلى البيت قبل طلوع القمر. جلس عند الطاولة ثم قال لكاترينا دون أن يلقي عليها التحية:

ماذا تفعلين أيتها الصبية؟

لم ترد عليه كاترينا. استدارت تغسل الأطباق. فكرر سؤاله:

أيتها العشيقة! أتسمعين؟

كان الكلب ينبح في الخارج. كاترينا لزمت الصمت. لكنه أسند رأسه ثم صاح بصوت عال:

أيتها العشيقة!

بدلا من الرد سمع نحيبها الهادئ. لأنه لم يسمع الرد الذي كان يتوقعه، نهض وغادر الغرفة.

في اليوم التالي عرفت السيدة بيلا هرونيهو بما حدث. وعندما كانت كاترينا في طريقها لإحضار الماء استوقفتها في الساحة وقالت:

كاترا!

وقبل أن ترد كاترينا سألتها:

لقد ضربك. أليس كذلك؟

انفجرت كاترينا في البكاء وقالت:

نعم ضربني.

تعاطفت السيدة بيلا. هورنهو معها وكذلك كل من في القرية باستثناء شكولنيتسا التي لم تتعاطف مع أحد في حياتها. صبوا لعنتهم على أوندري، وجمعتهم كراهية مشركة له. بدءوا يتجنبونه ويبتعدون عنه وكأنه أسوأ إنسان في القرية، حتى وأن جمعتهم به الظروف أو اضطروا للنظر إليه يتمتمون، وأحيانًا يوبخونه مباشرة. نال كذلك حظه من التوبيخ من والديها، غير أنه بدأ يتجنبهم، لذلك أخذوا يوجهون لومهم إلى أمه التي كانت دائمًا تهز رأسها عند سماعها هذا الكلام وتولول قائلة:

وماذا بيدنا؟ وماذا بيدنا؟

رغم والدي كاترينا أسمعوهما الكثير من اللوم والتوبيخ، لكنهما لم يفعلا الكثير لمساعدة ابنتهم وهي تتعذب. كانا يبرران تخاذلهما هذا بمقتطف من الإنجيل، يقول أن المرأة يجب أن تكون في طاعة زوجها. لكن السيد شتالينا عندما سمع ما يدور في بيت زيمون أراد أن يذهب ليُسمع أوندري ما لا يحب. لكنه عدل عن هذه الفكرة على الفور حيث شعر بنوع من الرضا وقال لنفسه: -ليفعل بها ما يشاء، لماذا تزوجته؟.

ذات مرة كانت كاترينا خارجة من المتجر فاستوقفها وقال لها:

أسمع كلامًا غير طيب.

صاحت قائلة: - إنه يضربني

أترين؟...

ليتني مت قبل أن يحدث هذا.

هل كنت مضطرة أساسًا للزواج به

من كان يعرف؟

لقد قلت لك ولأبيك أيضًا. لكنكم لم تسمعوا الكلام، ولم يطول الانتظار... لقد حدث الآن! قلت عن ابني أنه... ! أنت تستحقين ما يجري لك، ولا أسف عليك.

هز كتفه ثم انصرف غاضبًا وهو غير آسف حتى على نفسه. لقد انتقم لابنه، وهذا الانتقام رغم أنه شفوي ومؤلم إلا أنه كان سعيدًا به، حتى ولو لم يرضى أهل القرية، أو حتى العالم بأسره. نظر خلفه فوجد كاترينا لم تبرح مكانها حيث التقيا. أراد أن يرجع ويقول لها المزيد، لكن الوقت قد تأخر، فقد بدأت مصابيح القرية تضاء.

9

كان بيتر شتالينا لديه الرغبة في أن يصب كراهيته على كاترينا، لكنه كلما فكر فيها تعاطف معها وبدأ يظهر لـ زيمون كراهية عمياء، كراهية تشتعل في داخله منذ زمن لكنه لم يدركها إلا الآن، فاستسلم لها بكل وجدانه. وبالتدريج وهو يستمع إلى الشائعات ويفكر في مغزاها، بدأت

تخطر له تفاصيل جديدة غابت عنه في أول الأمر. لاحظ أن كاترينا ما هي إلا شخص أوقعته الظروف صدفة في هذه القضية، عجين لين في يد أوندري، يتلاعب به كيفما شاء ويعرضها للضياع.

كانت القرية تفكر أيضا بنفس الطريقة. كانت صورة واحدة مكتملة للتحول الذي نسجته أحداث صغيرة حتى بلغت ذروتها. كان أهل قرية مالكوفا يعرفون أن أوندري زيمون كان يومًا ما شابًا طبيعيًا، يقف في جوقة المرتلين في الكنيسة وينشد الأغاني الدينية، ويحمل الرايات في المسيرات الدينية. الآن صار يشرب الكحول. إنه رجل وأب لطفل، يزعم دائمًا أنه ليس منه بل من القتيل ابن السيد شتالينا.

لم يكن لديه دليل على ذلك، لذلك لم يعلق أهل القرية على هذه المزاعم، والتزموا الصمت. تولدت في هذا الصمت ورطة لا مخرج منها.

راقب الناس أوندري في كل خطوة يخطوها. في أمسياتهم وهم يجلسون عند أسوار البيوت أو عند أعتابها يبدءون الحديث عنه، أين كان وماذا فعل. كل ما تجمع لديهم من أخبار كانت في مجملها أمورًا طبيعية، لم يلقوا لها بالا وعلقوا عليها قائلين:

لن تكون نهايته طبيعية.

بالتأكيد لن تكون.

فطالما مرة...

أراد كروبا أن يقول المزيد. التقى مرة بالسيدة شكولنيتسا وقال لها:

لقد شرب زيمون بالأمس حتى ثمل. لا نعلم ما يحدث لهذا الرجل. إن نهايته لن تكون طبيعية.

كاترينا لا تحبه، هذه هى القضية!

لا تحبه؟!

طبعا لا تحبه! إنها تسير مع السيد شتالينا وتسترجع ذكرياتها مع ابنه يانو.

كانت القرية تتابع وتسجل ما يدور، أما شتالينا الذي كان يتفحص ويغربل ما يسمعه، شعر بأنه لم يعد قادر على السكوت. لذلك مر يومًا بالحانة فدخل.

كان أوندري زيمون جالسا مع سيميك وخادمه. كانوا قد تناولوا الكأس الثاني. نظر شتالينا إليهم ولم يلقي عليهم التحية. طلب بيرة ثم جلس عند الطاولة. لمحه خادم السيد سيميك الذي كانت عيناه تلمع من شرب الكحول المطبوخ فقال:

مرحبًا يا عمي!

مرحبًا!

التفت سيميك الذي كان يحدث أوندري في شيء ما عندما سمع صوت غريبًا، ثم صاح عندما رأي شتالينا وأمامه كأس البيرة:

يا للعجب! ماذا تفعل هنا؟

قال شتالينا وهو يبتسم بسخرية:

جئت.

وتشرب بيرة؟

نعم.

تعال، انضم إلينا!

استدار سيميك ليطلب له كأسًا، لكن شتالينا قام بحركة تدل على الرفض جعلت سيميك يقف قبل أن يصل إليه ويقول:

ماذا؟ إنك لا تظهر في الحانة مطلقًا.

ضحك شتالينا بضجر وقال:

ولماذا لا أحضر طالما يستطيع الآخرون؟

ثم نظر إلى زيمون الذي ينقر بأصابعه وينظر إلى سقف الحانة، فواصل شتالينا:

فأنا ليس لي ولد ولا امرأة.

احمر وجه زيمون لكنه لم يعلق.

قال خادم سيميك:

وماذا ستفعل بهم؟

فأخذ يلعب شتالينا على الأعصاب قائلًا:

لا شيء. هذا أوندري يمكن أن يجيبك

لوى أوندري فمه وقال:

لم أجرب هذا بعد، في سن الشيخوخة ربما.

كان خادم سيميك يضحك من خلف الطاولة. لاحظ الجميع أن الأجواء في الحانة تتوتر. قال سيميك الذي لم يكن يحب النزاعات:

في الشيخوخة الإنسان ينسى.

رد عليه شتالينا:

ليس دائمًا، لكنه على الأقل لا يؤذي أحدًا.

قال زيمون وهو يبتسم:

بالتأكيد وخاصة لا يمكن أن يؤذي ابنه.

قال شتالينا باستفزاز:

بالتأكيد، فالمرأة سهل إيذاءها. فهى لن تتصارع مع الرجل.

رفع زيمون عنقه. توتر الجو في الحانة. أراد أن ينهض لكنه ظل في مكانه وقال وكأن الكلام لم يكن يعنيه:

ليس كلهن.

ثم أضاف: - ألم تنسى ابنك حتى الآن؟

قال هذا وكأنه حسن النية، بهدوء جعل خادم سيميك المذهول توقف عن الضحك. ثم اعتدل سيميك وقال بجدية:

خسارة! كان في عِزّ شبابه.

هدأ الحوار، علت الكآبة وجه زيمون، وغرق سيميك في أفكاره. أما شتالينا فقد طرف بعينيه وهو لا يعرف جوابًا على كلامه، ثم أكمل كأس البيرة ونهض ثم انصرف وقد تعكر مزاجه. أضأت أنوار الحانة، علت ضحكات خادم سيميك. أراد أن يقول شيئًا، لكن بعد فوات الأوان. طلب سيميك بكؤوس أخرى وواصل حديثه المرح، أعطى انطباعًا بأنهم يلتقون بعد حادثة مفجعة.

في مساء اليوم التالي ذهب شتالينا من جديد إلى الحانة. بدأ كما بدأ بالأمس. غير أن تناول الشراب كان في جو من العداوة المتبادلة المزعجة، لا يعرف أحد منهما كيف ستنتهي. أسفرت عن كراهية متزايدة، زادت من تطرفهما ودفعتهما إلى معاودة الهجوم من جديد، لكن هذه المرة عن قصد. كان يشعر كل منهما بكراهية لا مثيل تجاه الآخر. في إمكانهما أن يتشاجرا، لكن شيء ما يقف حائلًا بينهما جعلهما يفترقان على موعد. أوندري زيمون كان يعصر قبضته ويزوي ما بين عينيه ويشد رقبته. بيتر شتالينا يضرب في المكان الأكثر إيلامًا. سيميك وخادمه يتابعان نزاعاتهم طوعًا أو كرهًا، ولا يفهمان السبب.

هذا الغموض أصاب شتالينا بالحنق. لذلك في إحدى الليالي بمجرد أن ظهر أوندري زيمون في الحانة قال له وهو عند الباب:

يجب أن تخجل من نفسك!

لم يعرف زيمون في البداية أن الكلام موجه إليه، فأشار شتالينا بإصبعه وقال:

أنت، أنت!

أنا؟

نعم، أنت!

لماذا؟

من المؤسف أنك لا تعرف. وكل البلدة تتحدث عن الموضوع.

تناول زيمون الكأس بالقرب فمه ويداه ترتعشان. ثم نظر إلى شتالينا من جانب، لكنه شرب الكأس ثم مسح فمه بكمه في هدوء وقال:

أنا لا يهمني ما يقوله الناس.

لا يهمك ما يقوله الناس، لكن كاترينا!

آها! كاترينا! خذها!

وابنك؟!

ابني؟

نهض زيمون من خلف الطاولة ثم بدأ يعض بشدة على أسنانه ويشد رقبته وكأنه ستخترق سقف الحانة، ثم وقف في وسط الحانة يعصر قبضته في مواجهة شتالينا، ثم قال وهو يزفر من الغضب ويعض على أسنانه:

ابني؟

عرض له شتالينا خده وقال:

هيا! اضرب!

وبينما جحظ خادمه عينيه وقد أسقط في يده صاح سيميك من الذهول على أوندري:

- أوندري!

وهنا جلس أوندري زيمون، أما شتالينا فجلس هو الآخر على المقعد، ثم بصق أوندري على الأرض وقال:

ابني أعطيه لك. فهو ليس ابني على كل حال.

قال شتالينا في ذهول:

ليس ابنك؟ ابن من هو إذن؟

هز أوندري جسمه غاضبًا وقال:

من رجل غيري...

ثم تردد قليلًا ثم انفجر وألقى سُمًّا لاذعًا فقال:

من الملعون ابنك... يانو. لقد أغوى كاترينا...

جاء الدور على شتالينا، تلفت حوله وكأنه يبحث ما شخصًا ما، ثم ثغر فمه وتمتم:

أهكذا؟!

قال أوندري: - نعم، كان يذهب وراءها في مخزن التبن.

أهكذا؟!!

فكانت نهايته بأن سقط كالكلب.

أهكذا؟!!!

رفع شتالينا يده أراد يضرب زيمون بالعصا، لكن يده علقت في منتصف الطريق، فحركها صوب قبعته ليعطي انطباعًا بأنه سيلقي التحية أو سيهرش في رأسه.

غادر المكان بهدوء بينما انفجر أوندري زيمون في الضحك.

10

في تلك الليلة نال الشراب من أوندري حتى أنه لم يعرف يمينه من شماله وهو يسير في الطريق. كان المطر ينزل منذ الصباح، فغرقت الطرق بالماء ووحلت، وفاحت رائحة الخشب المتعفن على أسطح البيوت. وقف أوندري يستدل على طريقه. كانت القرية غارقة في الظلام، والمطر البارد يرتطم بحدة على وجهه كالإبر، ويتساقط من على أسطح المنازل. تهب بين الحين والآخر رياح عاتية ترتطم بالأشجار فتسقط مياه المطر من عليها، فتنزل على الأرض محدثة برودة شديدة.

أوندري زيمون يرتعد من البرودة وهو يسير في الظلام على أحد أرصفة القرية. رأسه ثقيلة، غير أن قدماه تتحركان بخفة على رصيف زلق. أراد أن يغني أو يحدث صوتًا ما، لكن صوته غرق في الظلام والمطر. فلم يكرر المحاولة واكتفى بسماع صوته العالق في حلقه. سار وهو ينزلق ويسقط على الرصيف ويسب ويلعن، أحيانًا يتوقف وكأنه يفكر في أمرٍ ما. لكن شيء لم يخطر على باله، لذلك واصل السير.

وفجأة توقف. فهو لا يذهب إلى بيته من على التل. لاحظ أن قدماه تنزلقان. تطلع أمامه. كل ما رآه في الظلام هو الطريق ومصرف المياه تنتشر فيه شجيرات سوداء تهب عليها الرياح فتصدر حفيفًا، وتتطاير من عليها حبات المطر، فتصدر طرقات خفيفة وهي تسقط على أوراقها. دقق النظر فلم يجد أثرًا للبيوت من حوله. ليس أمامه سوى فضاء معتم كبير، تتحرك فيه دوائر ضبابية مخيفة وتنشر المطر في كل مكان. هناك في مكان ما يسمع صرير الماء على الأرض، ترتطم المياه بالحجر ثم تخر.

استفاق أوندري قليلًا وقال في نفسه: "لقد تهت". جاهد نفسه وذهب عنه الخوف. فاستدار وأسرع الخطا. سار ما يقرب من نصف الساعة، وعندما أدرك أنه لا أثر للبيوت، وأنه من المفترض أن يكون قد وصل القرية منذ فترة، توقف ثم كتم أنفاسه وبدأ يسترق السمع...

دقات قلبه سريعة وكأنه حصان مذعور يركض في طريق طويل.

أصابه القلق.

على بعد ما يقرب من مئة متر سمع طقطقة أخشاب حادة وهدير تيار ماء هائل يسقط من أحد المرتفعات، يعلو وينخفض، بل يسمع صوت ماء يرتطم عند الشاطئ بالأحجار فيتناثر عنيفًا وحادًا.

قال لنفسه: هل أنا بالقرب من الطاحونة؟ أراد أن يبتسم، لكن البسمة تجمدت على وجهه وصاح مستنكرًا مما يخطر على باله: ما هذه الخرافات!.

هو الآن على ثقة بأنه سيجد طريقه إلى البيت. استدار من جديد وهو لا يصدق ما يحدث. سار بخطوات طويلة واثقة. لقد زال عنه تأثير الشراب ويريد أن يصل إلى البيت في أقرب وقت.

سار حوالي نصف الساعة إلى أن لاحظ بوضوح أن الظلام قد حل، وعم الهدوء. توقف المطر وهدأت الرياح. تسقط بين الحين والحين حبات المطر الثقيلة لتكسر حدة الهدوء القاتل.

إنه يسير في الغابة.

اتجه يمينًا فوجد شجرة، يسارًا فوجد أيضا شجرة. رغم أنه لم يكن خائفًا ولم يكن يؤمن بالعفاريت فقد سرت في جسده قشعريرة من رأسه حتى عقبه. على يمينه وشماله غابة ساكنة، شاهقة وسط الظلام تسكنها أسرار الليالي التي لا يعرفها أحد، ولم يطلع عليها حتى الآن. تهب رياح عالقة في قمم الأشجار ثقيلة وهي تئن كرجل عجوز، وشجرتان تتوكأن على بعضهما وتصدران خفيفًا معلولًا. لا مخرج يراه من حوله. غابة

يسكنها الظلام تكونت فيها متاهة تفوح فيها رائحة أشجار الصنوبر ورائحة الأخشاب المتعفنة والجذور المتحللة.

في هذه الغابة قبل نصف عام. . . أخذ يفكر في أمر مرعب أصابه بالشلل. إنه لا يؤمن بأن الأموات يظهرون ورغم ذلك التفت حوله في كل الجهات خائفا. لكن ما هى إلا غابة بكماء صماء من حوله. وما هو إلا صوت رياح تهب بين الحين والآخر، وتهز قطرات المطر فتسقط على الأرض، ثم يسود الصمت من جديد. لكن بدا له في هذا الصمت أن الأشجار قد دبت فيها الحياة وتحولت إلى أجسام بشرية تتحرك من مكان إلى آخر في صمت وهدوء. وعبثا حاول أن يتحلى بالشجاعة. لم تلمسه الأشجار لكنها أنزلت الرعب في قلبه حتى انتصب شعر رأسه من الخوف.

ولكي يتخلص من هذا الشعور، حاد عن طريقه إلى أن رقع في مصرف للمياه وقد زلت الأرض من تحت قدميه، فرفع يديه و. . .

وتجمد في مكانه.

خلفه توجد شجرة صنوبر مائلة. . .

ظهر عليه القلق، فتجهم وكأنه يدفع ألمًا أو هاجسًا خطر على باله، وتملكه الأسى. لم يكن هذا خوفًا - فهو يجوب الغابة منذ صغره - بل شعور فظيع، ونوبة غريبة انتابته ونفور سيطر عليه.

لم يستطع التخلص من شعوره هذا. فنهض وأخذ جرى كالمجنون. اصطدم بشجرة ولم يأبه لهذا، كان يجري وهو يمد رقبته إلى الأمام

ويتفادى جذور الأشجار وما يتساقط على الأرض. سقطت منه القبعة ولم يلتقطها، بل واصل جريه وهو يغوص بقدميه في الطحالب ويدوس أغصان أشجار الصنوبر. يسمع دقات قلبه كالجرس ونفسه يضيق، لكن هذا لم يمنعه من المضي قدمًا. أمله الوحيد هو أن يخرج من هذه الغابة الملعونة، تخطى كل ما اعترض طريقه وأخذ يجري ويجري...

وبزغ نور الصباح.

كانت عتمة كئيبة قذرة تصدر من خلف السحاب عندما وصل إلى طاحونة الجبل. هناك طرق بكل عزمه على الباب.

فتحوا له، وما أن دخل حتى سقط من ذاكرته كل ما حدث.

11

ذهب يان كروبا في اليوم التالي إلى طاحونة الجبل يصحب أغنامه. هناك سمع ما حدث لـ أوندري زيمون فضحك بملء شدقيه. وعندما كان في طريقه عائدًا أوقف حصانه عند بيت السيدة بيلا. هورنيهو ونادى:

يا أهل الدار!

كان يخرج أحد من عائلة بيلا. هورنيهوا دائمًا عند سماعهم ندائه لأنه كان يجوب الأسواق ويحمل لهم العديد من الأغراض. وغالبًا ما كانت تخرج السيدة بيلا بنفسها. لكن هذه المرة جاء السيد بيل فقال له كروبا:

ألا تعرف ماذا حدث؟

ماذا؟

لقد تاه بالأمس

حقًا؟!

نعم، صدقني! كان في الحانة وشرب شيئًا هناك.

أتعرفون أين تاه.

أين؟

في الغابة عند طاحونة الجبل ومن خوفه دخل الطاحونة.

غير معقول!

أقسم بالله! كان مقطوع النفس، وامتلأ جسمه بالجروح حتى أنهم في الطاحونة لم يعرفوا ماذا يفعلون معه.

ثم انطلق على حصانه ونقل الخبر إلى عدة أشخاص آخرين وهو يبتسم، حتى صار هو نفسه مضحكًا أكثر من الحكاية ذاتها. كان الناس يستمعون إليه، ثم يضيفون إلى روايته ما طاب لهم. ورغم أنهم كان يحكون عن العفاريت خلف طاحونة الجبل، إلا أن حكاياتهم عن العفاريت هناك صارت تردد أكثر وأكثر، وبدأت ظهر تفاصيل جديدة. البعض اعتبر ما حدث على أنه حادث طبيعي، والآخرون أعطوه صبغة دينية، لكنهم جميعًا بدءوا ينظرون إلى زيمون بسخرية وسخط، حتى أن

السيدة شكولينتسا ذهبت إلى بيت زيمون، وجدت أوندري جالسًا في الغرفة، فقالت له ساخرة:

أوندري! ما هذا الذي حدث هناك، خلف طاحونة الجبل؟

نظر إليها شزرًا ثم انصرف من الغرفة.

كانت تتوقع أن أوندري سيرد عليها، وربما سيسخر مما حدث أو سيحاول تبرير الأمر. لكنها اندهشت من إعراضه هذا فسألت كاترينا:

ماذا حدث له؟

هزت يدها وترقرق الدمع في عينيها.

لم يتكلم أوندري مع أحد منذ ذلك الوقت، منذ أن عاد من الطاحونة. كان يغرق في أفكاره وهو يسمعهم يلقون عليه الأسئلة ثم ينصرف دون أن يرد عليهم. عيناه ملوثتان بالدم وفمه معقود متشنج، فيه لعاب أبيض جاف وكساه لون أزرق. غضّن من جبهته وكأنه يفكر في أمر استحوذ على كل كيانه. استطالت رقبته أكثر وأكثر وذاد انحنائها. الناظر إليه يظن أنه أحدب، أو أنه يستعد لتوجيه ضربة بقبضة يده إلى بطن أحدهم.

لم يعد يذهب إلى الحانة. كان مع دخول الليل وحلول الظلام على القرية ينصرف إلى المخزن ثم يخلع ملابسه على مهل وينام على سرير صلب، تطقطق من تحته ألواح الخشب مع كل حركة يأتي بها. ينفذ ضوء السماء إلى المخزن، ولا يكاد يصل إلى الحائط المواجه حيث صورة السيدة مريم العذراء معلقة في إطار من خشب الزان. كان الحائط بمثابة

حد فاصل ضخم. ينظر إليه فيكتنفه شعور بأنه لا يوجد خلف الجدار سوى العدم، هاوية شاسعة من ظلام لا يحكمه أحد، ولا ينفذ منه شيء. تولدت لديه رغبة أن ينهض ويخترق هذا الجدار، لكنه لا يعرف أن هذا الظلام لا وجود له، وما هي إلا أوهام مجنونة سيطرت عليه بوازع من ضميره وألقت به في جب لا يعلم إلا الله مداه.

ذات مرة وفي إحدى الليالي عندما غلبه النعاس مع حلول الليل أيقظه شيء ما. حلم غريب، تراءى له بأنه يمشي في الغابة حتى وصل إلى أشجار الصنوبر، وكلما تمادى في سيره كلما صارت هذه الأشجار أكثر ارتفاعًا. مستنقعات موحلة سوداء، تتفرع منها قنوات من الطين العكر، تمتد حتى الوادي، الغابة تختفي في الطين. ثم يجد نفسه في ثنياه حيث تفوح الأرض برائحة نتنة.

وما كاد يدرك ما حوله وأن الأرض تنسحب من تحت قدميه حتى قفز. وكلما جاهد في الهرب كلما صارت الأرض أكثر ليونة. لا تسعفه قدماه أو ركبتاه ولا حتى خصره. سقط في الوحل، وظل يجاهد على أمل أن ينجو، حتى رأي وسط دوامة الطين الرهيبة شجرة منعزلة، جافة، لكنها هي ملاذه الوحيد.

في النهاية وصل إلى الشجرة بعد أن بلغ الطين حتى رقبته، وكاد يلقى حتفه. رفع يده لكن... لم يجد إلا الفراغ...

فلم تكن هناك أية شجرة.

استيقظ من النوم وأخذ يلتفت من حوله في فزع. الظلام يملأ الغرفة. يسمع من على الفرن صوت كاترينا والقطة. استدارت كاترينا عنه وواصلت نومها بهدوء. الجو في الحجرة دافئ لا يتحمله. فانتابه خوف شديد ارتعدت له فرائده. بدون أن يدري أمسك بكتف كاترينا وهزها:

كاترينا!

استيقظت كاترينا وقالت:

ماذا تريد؟

لم يستطع الكلام. شيء ما جاثم على صدره ويدق في وجدانه كسندان الحداد. لا بد أن يقول شيء ينقذه مما هو فيه. لكنه... كانت حياته كتلة من العذاب، ولا يملك حتى هذه كلمات، ولا يوجد شيء يلتمس به العفو والغفران. لا يوجد سوى عالم به أناس على شاكلته، أناس ملقاة كالأسماك النافقة على سطح الماء. هنا امتلكته رغبة قوية في التماسك والبقاء على قيد الحياة والتغلب على هذه الضغوط المستميتة.

ولم ينبث بكلمة.

لم تكن هذه سوى هواجس ليلية.

انطفأت واختفت. استدار بجسمه واستلقى طويلًا في صمت. كان الجو في الغرفة دافئ، العرق يتصبب من جبينه جعله ينهض على الفور ويذهب صوب النافذة، وقف ينظر طويلًا. انتابته رغبة في الاعتراف بكل شيء. بدا

له هذا أمر طبيعي وسهل، فجلس على المقعد كرجل يريد أن يفضي في الحديث. ضم ركبتيه بذراعيه ونادي:

كاترينا!

رفعت رأسها، فقال لها بصوت من لديه الكثير ليقوله:

أتعرفين، في صيف العام قبل الماضي، عندما كنت أتردد عليكم ورأيت هناك...

هنا صمت، وأخذ يحرك فمه دون أن ينطق بكلمة، ثم خفض رأسه وكأن أحدًا ركله في بطنه. طال صمته وفجأة انطلق بصوت منهك:

كاترينا! أنا...

انتفض جسمه وتوقف عن الكلام. كانت كاترينا تستمع إليه وهي تترقب أمرًا سيئًا، ثم ألقت رأسها على المخدة بغضب وقالت:

مجنون!

لكنه لم يستطع مواصلة حديثه. ليلة وراء الأخرى يجلس على المقعد، ليلة وراء ليلة يبدأ الكلام ثم يتوقف على الفور، وكأن أحد دس في فمه حزمة قش أو أغلقه بقفل حديدي أو ما شابه.

ذات مرة، طلع النهار ولم يستطع النوم، نهض وارتدى ملابسه ثم ذهب إلى العمل. السماء مع طلوع الشمس تعوم في الدماء وتسقط على الأرض ضوء وردي. فتح الحظيرة وذهب إلى الإسطبل ليضع القش

للحصان. لكنه ما أن دخل الحظيرة حتى أصيب بالدهشة. كان الراعي يقف هناك يتفحص بندقية. سأله باهتمام:

ما هذا؟

قال الشاب:

انظر! لقد وجدتها في القش!

أين؟

في مخزن القش، هناك أسفل القش، مخبأة.

التقطها من يده. كانت عبارة عن بندقية قديمة الطراز توضع فيها الذخيرة من الأمام يعلوها الصدأ. على أحد فوهتيها توجد كبسولة مكسورة، والفوهة الأخرى يغطيها الصدأ. نظفها وأزال التراب من عليها. ثم نظر إلى البندقية ثم إلى الراعي وقال بصرامة:

أتريد أن أقتلك؟

حملق الراعي فيه. لكنه أمسك ماسورة البندقية ثم خبطها مرتان بكل ما أوتي من قوة على عتبة الباب فتكسرت قبضتها الخشبي إلى أجزاء صغيرة وتناثرت في كل مكان. فصاح على الراعي:

اجمعها!

قام الراعي بجمعها ثم جره من ذراعه وذهب به إلى المطبخ وأمره أن يضعها في النار. وبينما كان الراعي يشعل النار، أنطلق أوندري إلى الخارج

ثم ضرب بماسورة البندقية على أرض الحظيرة، وعاد المطبخ ثم أمر الراعي قائلًا:

الق بهذه في النار.

أخذ يتابع الماسورة وهي تحترق وتتحول إلى فحم، ثم التقط لوح خشبي ليقلب به النار. بعد ذلك جذب الراعي من صدره وأخذ يهزه:

ألا تعرف أيها الشاب بأنك كنت ستقتل نفسك؟ لكن لا تقل لأحد... وإلاّ سلمتك للشرطة!

ثم أشار له بإصبعه مهددًا، غير أن الراعي كان مصعوقًا لدرجة أنه أخذ يبتسم. خرج من المطبخ ووجهه شاحب. لكنه كان على قناعة بأن الراعي لن يقول لأحد عن ما جرى حتى لو على رقبته.

بعدها انفرجت أساريره على غير العادة، وكأن حجرًا سقط من على صدره. أخذ يصفر وهو يسير في أرجاء المنزل. عند الظهيرة وهو عائد من مخزن الخشب التقى بكاترينا، أمسك بذقنها وقال:

حان الوقت لأن تخرجي مع الطفل.

حدقت إليه ببصرها متعجبة.

لكنه ابتسم لها.

12

في ذلك اليوم كان في القرية يوم الغفران الذي صادف يوم الأحد، لذلك كان أهل القرية يستعدون له منذ أسبوع. يشارك فيه ليس فقط سكان قرية مالكوفا لكن أهالي القرى المجاورة.

امتلاء الساحة أمام الكنيسة بالتجار، واصطفت العربات والخيول من أمامها على امتداد الترع تأكل التبن وتصدر صهيلًا. رائحة الكحول المطبوخ تفوح من على العربات. أسراب الذباب تطير من حولها تحت أشعة الشمس التي تنشر البسمة والرخاء في كل أرجاء المنطقة.

دقت أجراس الكنيسة، فتجمع الناس من كل صوب يدخلون إلى الكنيسة التي لا تسعهم. بقي بعضهم في الخارج يقفون تحت أشجار الزيزفون مرتديين قبعاتهم أو أغطية على رؤوسهم وينظرون في ورع إلى أعلى، ويتلون الصلوات. وعندما دقت الأجراس سجدوا على الأرض يضربون على صدورهم. وهنا ساد الصمت. بدا مشهد الناس الساجدون أمام الكنيسة كالطعام العالق في فم كبير، لا يتحرك وظل مفتوحًا.

كان السيد شتالينا على عجلة من أمره، لذلك تمكن من أن يصل إلى جوقة المرتلين، حيث يقف هناك عادة دابغ الجلود السيد تروبك الذي رفع يده عند منبر الكنيسة ليريه أصابعه المتسخة، شاكيًا له من كثرة العمل. أما اليوم فالوقت لا يسمح بهذا! لذلك لم يضطر السيد شتالينا إلى أن يحذره من كثرة العمل، كذلك لم يبحث دابغ الجلود تروبك عن

شخص آخر. وقفوا جميعًا صامتون ينظرون أسفل الكنيسة إلى البشر الذي يموج، وعلت التقوى وجوههم، يسجدون ويخبطون على صدورهم.

في جانب الكنيسة وعلى مقعد عند المذبح جلست كاترينا زيمونوفا. عندما لمحها شتالينا، استدار بجسمه نحوها ولم يرفع عينيه عنها. غير معقول، غير معقول. . . يبدوا أنهم لا يقدمون لها في بيت زيمون طعامًا. بدت نحيفة وشاحبة، ظهرت على وجهها التجاعيد المبكرة. لم تكن تنشد الأغاني، بل تنظر أمامها وهى غارقة في أفكارها. عندما حركت شفتيها، فبدت وكأنها تسأل: أين ضاع شبابي!

هنا نزل الكاهن من على المنبر، وعلت الأصوات في الكنيسة، لكن سرعان ما هدأت. بدأت الموسيقى تعزف وبدءوا ينشدون. تملك الناس شعور بالرهبة، احمرت الوجوه ولمعت العيون وبدأ الجميع يشعر بالدفء. أخرج عمدة قرية مالاكوفا الذي يجلس الصف الأول منديلًا أحمرًا كبيرًا، وأخذ يجفف به جبينه، بجانبه وقف كروبا يفك أزرار معطفه. كان الجميع ينشد، يتردد صوتهم القوي خارج الكنيسة عاليًا ليصل إلا ما لم يصل إليه من قبل، مختلطًا بحرارة الشمس وبكاء الأطفال لتحمله الرياح إلى الحقول.

في هذا الغناء وجد شتالينا مصدرًا غنيًا بالانفعالات. وكأنه صار شابًا وامتلأ قوة. انفتح عقله واتضحت له أمور كانت غامضة عنه من قبل. تجسدت أما ناظريه كل ذنوبه التي لم يدركها بها من قبل. أراد أن يرفع صوته وينادي ليلقي في الجميع خطبة كبيرة عن الحق، أراد أن يهزهم

بخطبته، يدعوهم إلى القتال ليدافع عن الحقيقة بذراعيه. لكنه عندما نظر إلى كاترينا كاد يبكي، بل اغرورقت عيناه بالدموع، ولما لم يمسحها سالت على وجنتيه مثل قطرتان قذفتهما العاصفة في عينيه.

وقف أوندري زيمون أمام جوقة المرتلين. يتطلع إلى كل شيء، لكنه لم يشعر بشيء، كأنه لا يعي ما يدور من حوله. صمت سيطر على روحه، ولو اهتزت الكنيسة وسقطت فلن يفعل سوى أن ينصرف على مهل...

هو عائد من الكنيسة ذهب شتالينا نحو كاترينا التي كانت في عجلة من أمرها، لذلك لم تذهب لتشاهد ما في السوق وقال:

لما تسرعين هكذا؟

لقد تركت الطفل بالمنزل.

آها! وهل هو بخير؟

هزت رأسها بتكاسل وقالت:

بخير.

أراد شتالينا أن يقول لها قولا مرحًا وطيبًا، لكن كاترينا نظرت إليه نظرة مليئة بالألم جعلته يفقد رغبته هذه، وتملك الغضب فصاح:

أنت تتعذبين مع أوندري هذا، أليس كذلك؟

أجابته كاترينا وهي تفكر في سلوكه في الفترة الأخيرة وقالت:

لا أعرف، لكنه في الفترة الأخيرة ربما تحسن قليلًا، صار أكثر مرحًا.

اندهش شتالينا عند سماعه هذا، فهو لم يتمنى لأوندري أية صلاح.
سارا معا صامتين حتى وصلا عند الحانة. هناك وقف سيميك مع خادمه على درجات سلم الحانة ثم نادا عليهما:

تعالا إلى الحانة!

قالت كاترينا:

ليس عندي وقت.

انه يوم الغفران، والذهاب إلى الحانة مرة كل فترة لن يؤذي النساء.

لكن كاترينا أسرعت إلى البيت. رأى شتالينا أنه لم يحصل منها على أية معلومة، فضرب يده في الهواء وصعد درجات السلم.

تحسّن! – قال لنفسه غاضبًا وثائرًا.

ساد في الحانة جو من المرح. رائحة البيرة تفوح ممتزجة بدخان التبغ الذي يتلاشى على شكل خيوط رفيعة زرقاء تحت سقف الحانة. علت صيحات المرح والضحك في كل أرجاء الحانة: كروبا مع هرين ويان أولين مع ابنتيه جلسوا عند الطاولة، وعند طاولة أخرى جلس السيد بيل . هورني مع زوجته وبعض أهالي القرية والسيدة سكولنيتسا. احتل باقي الطاولات أهالي القرية مع أناس من القرى المجاورة. الغرباء عن القرية أخذوا يفكون أربطة ويسحبون منها خبز ولحم مملح.

قال شتالينا في نفسه: "تحسن"! ثم طلب كأسًا من البيرة. طلب الآخرون مختلف الشراب، وأخذ الجميع يشربون وهم يتحدثون في موضوعات مختلفة، أو يمازحون غيرهم ممن يجلسون على الطاولات الأخرى. لكن بيتر شتالينا لم يتحدث مع أحد. كان ينظر أمامه ويعلو وجهه الاكتئاب ويفكر:

تحسّن!

في نفس الوقت كان يتوافد على الحانة أناس جدد باستمرار، منهم من يقف عند الحائط لعدم وجود مقاعد تسعهم، ومنهم من وقف في وسط الحانة في جماعات يصيح كل منهم على الآخر. وبالطبع جاء أوندري زيمون. لم يجد له مكانًا. رأته السيدة شكولنيتسا فرفعت معطفها وصاحت:

أوندري! أوندري! تعال اجلس هنا معنا.

أجلسوه بينهم وطلبوا له بيرة وشربوا جميعًا.

غير أن عيني شتالينا برقت على غير العادة وقال في نفسه: "تحسّن"! ثم أمر بشراب. الجميع طلبوا كحولًا. الشباب يشربوه بدون مزج، والنساء يمزجونه بالبيرة. وهكذا ظلوا يشربوا وهم يمرحون سعداء. ضرب سيميك وهو ثملا بقبضته على الطاولة وصاح في زيمون:

أنت! أوندري! ماذا بك؟

كان الشمس قد مالت عند كبد السماء منذ فترة، وبدأت تتجه صوب الهضاب. وضع شتالينا الزجاجة جانبًا وقال:

أوندري ألن تذهب إلى البيت؟

احمر وجه زيمون. كان يعرف الخطوة التالية. شيء ما يهتز بداخله، لكنه صاح بقوة على الساقي وقال:

أنت! كأس آخر.

استفزه شتالينا وقال:

لكن كاترينا تنتظر.

دعها تنتظر.

هل صرت رجلًا؟

صرت!

يقال أنك تحسنت!

وبدلا من أن يرد، تناول أوندري زيمون الكأس مرة واحدة، ثم ابتسم لشتالينا وأخذ ينظر في عينيه.

اغتاظ شتالينا وقال:

إنك تحسن صنعًا في الواقع. زوجتك تنتظر في البيت، تتألم، وأنت تبدد أموالك في الحانات.

قال هذا بصوت حاد جعل كل من في الحانة، القريب والبعيد يصمت، ويوجه نظره صوب أوندري زيمون بفضول وترقب. أما شتالينا وكأنه كان يترقب هذه اللحظة استفزه مرة أخرى بعنف وقال:

لو كنت مكانك لخجلت من نفسي! لديك زوجة وطفل و... وتتصرف هكذا!!

سيطر على أوندري زيمون شعور بأنهم يحقنوه بسم قاتل. أراد أن ينهض وسط نظرات الحاضرين لكن خطر على باله أمرًا مرعبًا. بهت وجهه وبرزت عيناه ثم استند على الحائط بيأس وتسمر كالصنم. كان يعتقد انه سيقتله. حاول أن يضحك سخرية من الموقف، لكن البسمة تعثرت وتجمدت على شفتيه، فكاد يغمض عينية وكأنه في وهج الشمس وقال:

ربما تصبح كاهنًا جيدًا! ولو كان عندك ابن لكان أفضل...

وأخذ يثرثر، لكن... اشتدت واجتمعت كل حواسه على فكرة واحدة وهي أن يقوم ويقتله بضربة واحدة.

اكفهر وجه شتالينا وقال بحزن:

للأسف، لم يعد عندي ولد.

أتعرف لماذا...؟

كان سؤالًا رهيبًا. ما أن لفظه أوندري زيمون حتى رأي على الفور عالمًا جديدًا كبيرًا ينفتح أمامه. بحار هائجة، وسفن محطمة، ووجوه مكشوفة. صرخات وخوف وحياة مدمرة وعقد نفسية وليالي وقذارة فاحشة.

شعر كالمنتصر.

يكفيه جملة واحدة ويطرح عن نفسه عبء ثقيل، ويدفن الماضي، ويولد من جديد، نظيفًا كبيرًا...

ابتهجت روحه فأعاد السؤال:

أتعرف لماذا...؟

ساد الوجوم في الحانة. تسمرت عيونهم عليه. لكنه نهض وهو لا ينظر إلى أي شيء، ثم انحنى على الطاولة وأشار بإصبعه على نفسه:

لقد توليت أنا أمره!

ساد الصمت للحظة ثم انهالت الأسئلة:

حقا...؟ غير معقول! ماذا تقول...؟ كيف...؟ انطق...!

قال بهدوء:

لقد أطلقت عليه النار.

جاءت أصوات من أركان الحانة تقول:

مجنون! سكران!

فم شتالينا يهتز.

صاح زيمون ليغطي على أصوات الجميع:

أنا لست مجنونًا ولا ثملًا، لقد قتلت يانو شتالينا. وأقسم بالله على هذا!. . . إن كنتم لا تصدقوني، اذهبوا إلى منزلي. ستجدون في أرض الحظيرة مواسير وأقفال البندقية التي قتلته بها.

ثم جلس وأضاف:

كل شيء من أجل كاترينا، من أجل عشيقة ابن هذا الرجل...

وأشار على شتالينا.

انطلق طنين في كل الحانة، وكأنها قفص فقص في خلية نحل.

هدأ الضجيج، ثم بدأت السيدات تصرخ. شخص ما يقف في الشرفة يغطي فمه بيده صاح:

الشرطة، الشرطة!

ومن جديد صاحوا برعب وأطالوا الصيحة حتى اقشعرت لها الأبدان:

الشرطـــة!

جاء رجال الشرطة، وما أن حكوا لهم ما حدث، أوثقوه بالقيود. ذهب معهم دون مقاومة، وكأنه ذهب ليودعهم عند الباب وسيعود بعد قليل. ولأن الباب كان قصيرًا، فقد طأطأ رأسه.

في هذه اللحظة كانت الشمس تغيب في الأفق.

1926

ميلو أوربان (1904 – 1982)

ينحدر ميلو أوربان من أسرة ريفية من مقاطعة أورافا في شمال سلوفاكيا. أنهى تعليمة الأساسي في مدينة بولهور ثم درس المرحلة الثانوية (1915 – 1919) في مدينة ترستن ثم واصل تعليمه الجامعي حتى عام 1921 في مدينة روجمبرج. بعد وفاة أبيه في حادثة مفجعة وغرقه أثناء أحد الفيضانات، ونتيجة لخلاف مع مدرس اللغة الفرنسية قطع دراسته الجامعية. عمل كمساعد تحرير في جريدة سلوفاك. التحق في عام 1922 بالدراسة الجامعية في مدينة بانسكا شتيافنيتسا، وسرعان ما ترك الدراسة فيها لأسباب مالية. ثم عمل محررًا في جريدة الوطن السلوفاكي منذ عام 1924 لمدة عامين، ثم انخرط في حركة تعمل من أجل استقلال سلوفاكيا. في عام 1928 عمل محررًا في جريدة جارديستا اليومية؛ حيث كتب المقالات والتقارير والتعليقات المختلفة. كان من المعارضين لنشأة الدولة التشيكوسلوفاكية المشتركة، وكان على وشك أن يدخل السجن بسبب مقالة كتبها بعنوان احذر نشرها عام 1929. عين رئيس تحرير جريدة جارديستا في عام 1940، وعلى الرغم من ذلك تم حبسه بسبب مقالة بعنوان الخوف نشرت في الجريدة في عام 1940 وسرعان ما تم الإفراج عنه. في أكتوبر من عام 1944 اعتقلته السلطات الشيوعية لفترة قصيرة. سافر إلى النمسا قبل دخول القوات الروسية إلى سلوفاكيا، حيث لجأ إلى السفارة الأمريكية هناك وأقام في عدة معسكرات للهاربين. في حين اعتقلت زوجته وأبناءه الثلاث في أحد معسكرات الاعتقال الجماعية. نقل في عام 1947 إلى مدينة براغ ثم إلى براتسلافا حيث مثل أمام القضاء بتهمة نشاطه الصحفي في الفترة من عام

1940 – 1948 ومنع من الكتابة واعتبرته السلطات مواطنًا غير مرغوب فيه. عاش بعدها في عزلة في مدينة تبعد عن العاصمة براتسلافا حوالي 30 كيلو متر، ثم انتقل إلى براتسلافا منذ عام 1974. كرس حياته منذ الخمسينات للترجمة وكتابة القصص الأدبية.

بدأ ميلو أوربان في نشر نشاطه الأدبي وهو في سن السادسة عشر. هو راوي متفرد وكاتب قصة وأديب يمتلك ملكة سرد التفاصيل وتوظيفها في تطور وتصاعد الحدث. إن الحقيقة في أعمال أوربان ما هى إلا صورة أخرى من الواقع الصعب. إنها القانون القاسي الذي يجبر الإنسان على الكشف عن كل ما يستطيع لكي حتى يحافظ على نقاءه الأخلاقي. إن قانون الضمير عنده أسمى من القوانين المكتوبة والحقيقة هى التي تحرره. ذهب أوربان إلى أبعد من ذلك، فهو يكشف عن العالم الخفي لمرتكب الجريمة وما يعانيه من عذاب الضمير حتى يحرر نفسه. القربة عند أوربان هى مدرسة الأخلاق ومصدر النهضة الإجتماعية. الرغبة والشهوة والمرض والموت ما هى إلا عناصر للحياة الممتدة والأجيال التي تظهر على سطح هذه الحياة تكون سلسلة يشكل الفرد فيها حلقة لا أكثر.

لقد بلغ أوربان بتحليله النفسي العميق مستوى ديستايوفسكي. فقصصه جادة لدرجة التراجيديا. وتنتمي لتلك الأعمال التي يثار حولها دائمًا تساؤل: فيما يكمن سحر وقوة هذا الأعمال؟

نشر أولى قصصه (هذا الرقص) عام 1920 ثم نشر بعدها العديد من القصص القصيرة في المرحلة الأولى من إبداعه الأدبي (التعيس، فات الأوان،

في زحمة الحياة، عامل الطباعة، غيرها). هذه القصص القصيرة ليس لها سوى أهمية توثيقية.

شكلت أولى أعماله التي نشرت منفردة وهي قصة (ياشيك كولتياك) القواعد الأساسية التي كانت بمثابة الأساس التي بنيت عليه جميع أعماله فيما بعد. ظهر من خلال هذه القصة على أنه كاتبٍ موهوب، يستمد موضوعاته من الحقائق النفسية والاجتماعية الأساسية في تشكيل العادات والتقاليد في بلده.

أصدر أوربان بين عامي 1923 و 1924 سبعة قصص تحت عنوان (صرخات بلا صدى).

إن أعمال أوربان لا تمثل تعاليم أخلاقية وإصدار أحكام هنا وهناك بل هي محاولة للتغلغل إلى تفاعل القوى في داخل النفس البشرية وخارجها. تلك القوى التي ينتهي بها المطاف إلى لغز تراجيدي غير مفهوم يقرر مصيره بحيث يصير الإنسان مجرد جزء غير فاعل في الكون. ليس من وظيفة أبطال قصص وروايات أوربان أن يصفوا للعالم ما يحزنهم بل وظيفتهم أن يغوصوا في أعماق أنفسهم وفي بعض الحالات يقوموا بنقل قلقهم الداخلي إلى غيرهم.

تعد قصة خلف طاحونة الجبل (صدرت عام 1926) خلاصة الفكر القصصي عند أوربان. تحولت فيما بعد إلى عمل أوبرالي بعنوان (كروتنيافا). العمل التالي لأوربان هو مجموعة قصصية بعنوان من الجبهة الباردة 1932 ويضم ست قصص.

تعتبر أولى رواياته (السيف الحي – 1927) العامود الفقري في الأدب السلوفاكي. يدور موضوعها حول سنوات الحرب العالمية الأولى وتدور أحداثها في إحدى القرى السلوفاكية. استكمل الرواية برواية أخرى بعنوان ضباب الفجر ويكشف فيها عن ألاعيب السياسة واستغلالها للمشاعر القومية والدينية. محور الرواية ليس فقط أهل القرية لكن سكان المدينة وطبقة رجال الأعمال الصاعدة. في محور الرواية أيضا نجد أيضا المواطن السلوفاكي البسيط الذي يبحث عن مخرج من الفوضى التي سادت بعد الحرب. يدخل فيها أيضا إلى عالم الأغنياء والشركات المحدودة والدوائر المالية واستغلال النفوذ من قبل رجال السلطة في السنوات الأولى من تأثيث شيكوسلوفاكيا. قام بعد ذلك بتحليل المعايير الاجتماعية وكون بروايته الثالثة في الشراك ثلاثية. جاءت روايته التالية الأضواء المطفأة استكمالا للثلاثية بصورة حرة، تلتها روايتان هما من (يأخذ الرياح) و (بالحديد على الحديد) والتي صدرت بعد موته. في الرواية الأخيرة يصف تطور الأوضاع بعد انهيار الإتحاد التشيكوسلوفاكي في عام 1939. في عام 1995 صدرت له آخر كتبه وهو كتاب (الحرية ليست مزحة).

كان لأعماله وخاصة تلك التي كتبها في عشرينات القرن الماضي صدى واسع في مختلف أنحاء العالم، وترجمت إلى العديد من لغات العالم منها (البلغارية، الألمانية، البولندية، الرومانية، الروسية، الإيطالية، اليابانية، المجرية). كما حصل على جائزة الدولة في عام 1931 عن رواية ضباب الفجر وفي عام 1933 عن رواية السيف الحي.

نافذة على الأدب السلوفاكي

خلفية تاريخية وجغرافية عن سلوفاكيا

كانت سلوفاكيا منذ القرن الحادي عشر الميلادي جزءًا من الإمبراطورية النمساوية المجرية. ومنذ نهاية الحرب العالمية الأولى صارت جزء من جمهورية تشيكوسلوفاكيا الوليدة. وفي عام 1939 ومع انهيار جمهورية تشيكوسلوفاكيا بعد مؤتمر ميونخ تأسست جمهورية سلوفاكيا تحت الوصاية الألمانية. ثم عادت سلوفاكيا من جديد في عام 1945 إلى جمهورية تشيكوسلوفاكيا باستثناء إقليمها الشرقي الذي ضمه استالين إلي أوكرانيا.

ثم تكون اتحاد فيدرالي تشيكوسلوفاكي اشتراكي (وهو ما نتج عن الإصلاح السياسي في عام 1968). ولكن بنهاية عام 1992، وبعد قليل من انهيار النظام الشيوعي انهار الإتحاد الفيدرالي بين التشيك والسلوفاك تحت تأثير الظروف الاقتصادية والسياسية والسخط الاجتماعي، وظهرت إلى الوجود من جديد جمهورية سلوفاكيا المستقلة.

تضم هذه الجمهورية التي تقع شمال نهر الدانوب الأغلبية العظمى ممن يتحدثون اللغة السلوفاكية والتي لا تختلف كثيرًا عن اللغة التشيكية؛ حيث يتحدث مواطنو الدولتين مع بعضهم كلٌّ بلغته بدون أدنى مشكلة.

يوجد في جنوب سلوفاكيا أقلية مجرية بالإضافة إلى أقليات أخرى من الغجر والأوكرانيين.

يفصل سلوفاكيا من جهة الغرب عن التشيك جبال كرباتيا ونهر مورافا. يفصل بولندا عن سلوفاكيا مرتفعات تاترا في الشمال. يشكل نهر الدانوب حدود سلوفاكيا مع المجر ويتجه النهر ناحية الشرق ليلتقي مع نهر إيبل علي الحدود مع المجر.

براتسلافا في جنوب غرب البلاد هِي العاصمة، ويطلق عليها أحيانًا برسبرج. تقع العاصمة قريبة من العاصمة النمساوية فيينا، وهى من أكبر مدن سلوفاكيا. تعتبر مدينة كوشيتسا فى الشرق هى ثان أكبر مدن سلوفاكيا. من المدن الشهيرة الأخرى في سلوفاكيا وخاصة بآثارها القديمة مدينة نيترا التي تقع شرق براتسلافا، ومدينة جيلينا التي تقع شمال شرق العاصمة، ومدينة مارتن التي تضم واحدة من أقدم المؤسسات الثقافية في سلوفاكيا، تعود إلى عام 1863. إذا تحولنا من جديد صوب وسط سلوفاكيا نجد مدينة بانسكا بيستريتسا التى شهدت حركات المقاومة ضد النازيين في أغسطس عام 1944.

الحياة الأدبية منذ القرن الثامن الميلادي

يعرف التاريخ السياسي منذ العصور الوسطي وحتى القرن العشرين الميلادي على أن سلوفاكيا كانت جزءًا من المجر. وصلت القبائل السلافية إلى المنطقة في المدة من القرن الخامس وحتى القرن السادس الميلادي. ضمت الدولة الوليدة مورافيا العظمى الإقليم السلوفاكي إليها حوالي عام 833 وذلك بعد هزيمة الحاكم بريبينا علي يد مويمير ملك مورافيا وطرده

من نيترا. أرسلت الكنيسة البيزنطية منذ عام 863 كل من المبشرين كونستانتين وميتوديوس، وقاما بتأسيس قواعد الطقوس الدينية السلافية. وبعد عام 900 ومع وصول القبائل المجرية إلى سهل الدانوب أصبحت سلوفاكيا جزءا من المملكة المجرية. وبدءًا من حكم الملك ستيفان الأول (977 – 1038) صارت المجر تدور في فلك الكنيسة الغربية والثقافة اللاتينية. وقد تم العثور على نصوص أدبية مكتوبة باللغة اللاتينية، تضم أساطير القديس سوراد والقديس بناديكت، كتبها الراهب ماوروس (توفي عام 1007) وهو يمجد فيها حياة القديسين الدينية في مدينتي نيترا وزوبور وبالقرب من مدينة ترنشين شمال شرق سلوفاكيا.

نتيجة لنقص المراكز الحضرية الكبيرة التي تعمل علي إيجاد لغة سلوفاكية مكتوبة، ونتيجة أيضًا لقرب اللغة السلوفاكية من اللغة التشيكية تم تبني اللغة التشيكية المكتوبة بديلًا عن اللغة السلوفاكية بدون تعديل كبير فيها (وذلك جنبًا إلى جنب مع اللغة اللاتينية، والألمانية، والمجرية).

أسهمت هجرة السلوفاك إلى المدن التي يسيطر عليها الألمان الذين حكموا التشيك في ذلك الوقت في استخدام اللغة التشيكية، كما أسهم في ذلك أيضًا الارتباط التعليمي بجامعة الملك تشارلز في براغ، وكذلك الحركة الهوسيتية التشيكية. من الواضح أيضًا أن ملوك بوهيميا والمجر منذ القرن الخامس عشر كانوا يتبادلون الحكم المشترك. فُرضت اللغة التشيكية في القرن السادس عشر كلغة الإنجيل في سلوفاكيا وذلك بواسطة الحركة اللوثرية.

عام 1526 خضعت معظم أراضي المجر للحكم التركي بعد معركة موهاتش، ووقع ما تبقى ومنها مناطق سلوفاكيا الحالية تحت السيطرة الهابسبورجية. لجأ بعض المجريين إلى سلوفاكيا في ذلك الوقت هروبًا من الحكم العثماني الذي استمر حتى القرن السابع عشر.

تضم العينات التي تم فحصها لبعض الكتابات باللغة العامية وتعود للقرن الخامس عشر الميلادي، وثائق ونصوص دينية (منها على سبيل المثال كتاب مدينة جيلينا وصلوات سبيش من عام 1480). حدثت مرحلة من الازدهار للثقافة في إطار الاتجاه الإنساني في عام 1465 وذلك في عهد الملك ماتياس كورفينوس. تركزت في مدينة برسبورج (براتسلافا الحالية) في أكاديمية استروبوليتانا، لكنها لم تستمر طويلًا (تشكل مباني الأكاديمية جزءا من أكاديمية الفنون في المدينة).

بدأت الطباعة في فترة متأخرة من القرن السادس عشر حيث أسفر الاتجاه الإنساني اللاتيني عن ظهور عدد من الأدباء أمثال الشاعر مارتين راكوفسكي 1535 - 1579. مارس عدد من السلوفاك البارزين في القرنين السادس عشر والسابع عشر نشاطهم على الأراضي التشيكية من بينهم عالم الطب والفيلسوف يان ياسينيوس.

ولد ياسينيوس عام 1566 في مدينة فروتسلاف البولندية، ثم تلقى تعليمه في مدينة فيتنبرج الألمانية ثم في مدينة براغ بالجمهورية التشيكية، حيث أجرى أول عملية تشريح عامة. عالم آخر وهو فافرنتس بناديكتي، صاحب أول مؤلف عن قواعد اللغة التشيكية: قواعد لغة

بوهيميا -1603. ومن أصول سلوفاكية أيضا ينحدر مؤلفي الصلوات المسيحية كيرمازار الذي توفي في عام 1589، وجورج تيساك موشوفسكي الذي توفي في عام 1617 في مدينة براغ. ومن بين مجموعة الكتاب هذه أيضًا الأديب ياكوب يكوبيوس – 1591 – 1645. كان بروتستانتي تشيكي من مدينة كوتنا هورا، أقام في مدينة بريشوف شرق سلوفاكيا بعد عام 1620. تتناول مرثيته جينتيس سلافونيكا إرهاب الطاغية، والغزو التركي، والحرب، والكوارث الطبيعية، والطاعون.

يضم الإنتاج الأدبي الذي يعود إلى نفس الفترة أيضًا الأغاني الشعبية (التي تجد نظير لها في الأدب المجري) مثل أغنية قلعة موران للأديب مارتين بوشنياك (1549)؛ وهي شاهد عيان على استيلاء القوات الملكية على قلعة موران، وإعدام قائد اللصوص الذي احتلها. كذلك أغنية سيجت التي تعود إلى عام 1566. وهي تصف حصار الأتراك للمدينة وبسالة أهلها المدافعين عنها وموت زعيمهم ميكلوس زريني. ومن أغاني العشق أغنية نبيلين مجرين وابنة السلطان التركي – سيلادي وهادماجي والتي تدور حول أسر اثنين من النبلاء في القسطنطينية، تمكنا من الهرب بمساعدة ابنة السلطان التي هربت معه. ووقع كلاهما في حبها. هذا بالإضافة إلى بعض القصائد الغنائية التي تم العثور عليها وتعود إلى القرن السادس عشر. وقد سجلها جان يوب فانشالي في مدينة ليبتوف عام 1604. يرتبط بعضها بالشاعر المجري بالاسي أو قام بنظمها هو نفسه.

من الشعراء الدينيين يان سيلفان 1493 - 1573 وإلياش لاني 1570 - 1618. هناك أيضًا العديد من التراتيل الدينية الكاثوليكية والبروتستانتية. من أشرها مجموعة لوثر التي نشرت لأول مرة في مدينة ليفوتشا عام 1636 والتي يعرفها البروتستانت باسم ترانيسكيوس. مؤلفها هو البروتستانتي السلوفاكي ترشانوفسكي، أحد بروتستانت المهجر، عاد إلى سلوفاكيا بعد انهيار الكنيسة البروتسنتانية في بوهيميا عام 1620. قام في سلوفاكيا وعلى حذر بالدعوة إلى الكنيسة البروتستانتية.

من ناحية أخرى كانت مدينة ترنافا مركزًا كبيرًا للدعوة لإحياء المذهب الكاثوليكي والكتابة الباروكية (وهو تعبير فني سادَ في القرن الـ 17، وهو يتميز بدقة الزخرفة وغرابتها أحيانًا. وباصطناع الأشكال المنحرفة أو الملتوية في فنّ العمارة وبالتعقيد والصور الغريبة الغامضة في الأدب). تقع ترنافا على مسافة قريبة شمال شرق العاصمة براتسلافا. أقيمت في مدينة ترنافا أول جامعة يسوعية في عام 1635. تم صياغة الخطب والتراتيل الدينية باللغة العامية ووضعها في كتاب في القرنين السابع عشر والتاسع عشر. وقد نظم التراتيل والقصائد الدينية العديد من المؤلفين أمثال أوندري لوكاي. 1596 – 1673 ودانيال سينابيوس هورتشتشكا. 1640 – 1688. ظهرت أيضا التراجم الذاتية مثل قصة حياة بيلاريك شتبيان - 1666 وهي قصيدة وصفية كتبها ستيفان بيلاريك تصور حياته وهو أسير لدى الأتراك وحياته بعد إطلاق سراحه، كذلك قصة يان سيمونيدس وهي سيرة ذاتية للممثلي الكنيسة البروتستانتية أو يوميات دانيال كرمان (1709 – 1711) وهي تصور الأوضاع

في بولندا، وبروسيا، وليتوانيا، وبيلاروسيا، وأوكرانيا، ومولدافيا. وقد كان المؤلف على هزيمة السويديين في موقعة بولتافا عام 1709.

شهد القرن الثامن عشر على انتشار قصائد الغزل، ومؤلفوها في الغالب مجهولون. منها صورة السيدة الجميلة المرسومة بالقلم- 1701، ألفها طالب القانون ستيفان سلاتسكي بلغة أهل ترنافا. العمل الآخر الطويل نسبيًا ويضم 17 ألف سطر، وهو عبارة عن حكم أخلاقية كتبه فرانسيسكان هوجو لين جافلوفيتش تحت عنوان مدرسة فالاش – كنز الأخلاق في عام 1755. من العلماء النابغين في سلوفاكيا في ذلك الوقت كان ماتي بيل (1684 – 1749) وهو مؤلف كتاب الأهمية التاريخية والجغرافية للمجر الحديثة.

انتشرت في هذه الفترة الأغاني الفلكلورية والفن الشعبي بصفة عامة. من أهم هذه الأغاني الفلكلورية تلك التي تصور الأعمال الجريئة ليوراي يانوشيك (1688 – 1713) الذي ذاع صيته مثله مثل روبين هود، وهو في الأصل جندي في جيش الأمير راكوزي، وقاد مجموعة من اللصوص في شمال غرب ووسط سلوفاكيا في الفترة من 1711 وحتى 1713، ثم اعتُقل وسُجِن في قلعة فرانوف بالقرب من مدينة ليبتوفسكي ميكولاش ثم أعدم في ميدان المدينة. ثم صار فيما بعد مادة غنية لشعراء القرن التاسع عشر.

أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر

كان القرن الثامن عشر شاهدًا على ميلاد الروح الوطنية. بدأت الكتابة تتطور علي يد أدباء أمثال يوراي بابانك أو يوراي سكلينار، وبدأت سلوفاكيا

تظهر على أنها شريك مؤسس في الإمبراطورية النمساوية المجرية الوليدة التي ظهر السلوفاك فيها كلاعب أساسي،ن جنبًا إلى جنب مع المجريين الغزاة. بدأت الكتابات التي تسير في هذا النهج في تكوين أسس للأدباء السلوفاك في الفترة اللاحقة الذين كتبوا باللغة السلوفاكية.

شكل حكم الإمبراطور يوسف الثاني (1780 –1790) وأمه ماريا تيريزا (1780-1740) للإمبراطورية 'النمساوية المجرية حدًا فاصلًا، عمل على تحطيم نظام الحكم القديم (الحكم الإقطاعي الظالم)، وتأسيس لحقبة جديدة؛ وهي الحقبة الصناعية الرأسمالية.

أحد العلامات البارزة على ميلاد حقبة جديدة ارتبطت بالحياة الأدبية هي التوجه والسعي لخلق ارتباط بين المجتمع اللغوي والحدود السياسية. بدأت الطبقة العليا المجرية في التطلع إلى وحدة لغوية في إطار المجتمع السياسي وذلك بناء على رغبة الإمبراطورية في جعل اللغة الألمانية لغة رئيسية تحل محل اللغة اللاتينية. كما كان الإمبراطور يوسف الثاني أيضًا يميل إلى تشجيع اللغة المحلية لخدمة المتعلمين الأقل درجة.

وهكذا بدأ استعمال اللغة السلوفاكية بصورة رسمية في النصوص الدينية التي كانت تمارس باللغة التشيكية في مدينة ترنافا غرب سلوفاكيا وذلك خلال القرن الثامن عشر. استمرت هذه العملية بقيادة يوسف اجناك بَيْزَا (1836-1745)، وقام بتسجيل قدراته اللغوية في رواية فريدة تحمل اسم مغامرات وتجارب الشاب رينيه 1785-1783. وهي رواية تصور حياة المتشردين وتحمل في طياتها عناصر ساخرة، حيث يسافر البطل إلى

بلاد أجنبية والى سلوفاكيا أيضًا انطلاقا من فيينا وحتى حدود مدينة ترنافا يلاحظ خلال سفره حياة الناس في تلك البلاد.

أما البداية الحقيقية والمنظمة لوضع معايير اللغة السلوفاكية الفصحى المكتوبة كانت على يد الكاهن الكاثوليكيانتونين برنولاك (1762-1813). وهو أحد طلاب معهد يوسف العام الذي تأسس في قلعة برسبورج (براتسلافا حاليًا) والذي لم يستمر طويلًا. في عام 1787 وفي الخامسة والعشرين من عمره قدم برنولاك عمله الذي يهتم بتدقيق اللغة وضبطها. ثم أصدر في عام 179. قواعد اللغة السلوفاكية، وبعد وفاته وفي عام 1825 وحتى 1827 تم طباعة عمله الضخم في ستة مجلدات وهو معجم اللغة السلوفاكية، والتشيكية، واللاتينية، والألمانية، والمجرية.

لم تدم اللغة التي حاول برنولاك وضع معاييرها طويلًا. أول من بدأ في استعمال اللغة السلوفاكية في كتاباته بعد ذلك كان يوراي فاندلي وهو زميل برنولاك ومثقف بارز وأحد مؤسسين جمعية المجتمع السلوفاكي المتعلم (1790) ومقرها مدينة ترنافا. تم أيضًا ترجمة الإنجيل في الأعوام 1829-1832 لكن هذه المرة علي يد أحد أتباع برنولاك الكاهن يان هولي (1785– 1849). يعد هولي أبو الشعر السلوفاكي، وتوجد لمسات شعرية في مصطلحات اللغة السلوفاكية التي كتب بها.

لم يجز البروتستانت اللغة التي وضع معاييرها برنولاك. كما وضعف الدور الثقافي لمدينة ترنافا وذلك بعد نقل جامعتها إلى مدينة بودا (جزء من المجر في الوقت الحالي) في عام 1777.

كانت مدينة برسبورج (براتسلافا الحالية) المركز الرئيسي للمجمع البروتستانتي، حيث تأسس المركز التشيكوسلوفاكي عام 1803. وكان الولاء للنسخة التشيكية من الإنجيل عاملًا كبيرًا في الحفاظ علي التقاليد التشيكية قوية.

يان كولار هو أحد الشعراء التشيكيين البارزين (1793 – 1852) وهو ينحدر من أصل سلوفاكي. استقر هذا الشاعر في مدينة بست (بودابست الحالية)، وهو مؤلف لمجموعة من الترانيم الدينية الشهيرة إبنة السلاف في عامي 1824 و1832. حيث يمثل الحب والوطنية الموتيف الأساسي في العمل. أما موتيف الترحال فهو يعتبر خلفية للعديد من القيم التي ينادي بها الشاعر مثل الحب، والجمال، والأخلاق، والوطنية. عبر فيها الشاعر عن حبه الجياش لفتاة تدعى مينا، قدمها الشاعر علي أنها ابنة أحد آلهة السلاف، أما الترحال فكان عبر الأراضي السلافية ثم ينتهي به المطاف وعلى طريقة دانتي في الجنة السلافية، ثم الجحيم. كان كولار مؤيدًا وداعية كبيرًا لفكرة التعاون الثقافي الداخلي بين الشعوب السلافية، وكان واحدًا من أبرز المهتمين بالفلكلور الشعبي وجامعًا له.

بروتستانتي آخر وهو يان خالوبكا (1791 – 1871) عمل وزيرًا لسنوات عدة في (مدينة بريزنوا)، وكان أول كاتب دراما معروف. أشتهر بعمله الكوميدي (كوتسوركوفو 1830). هو عبارة عن عمل هجائي علي الطريقة الريفية، حيث يرفع فيه من شأن اللغة، ويسخر بشدة من انتشار اللغة اللاتينية والمجرية.

مجموعة شتور وظهور اللغة السلوفاكية الحديثة

بحلول عام 1840 ظهرت مجموعة لوثر التي تزعمها لودفيك شتور وقادت حركة تحرير لغة الأدب السلوفاكي (وقد عارضها بشدة حينئذ الشاعر كولار).

استقرت مجموعة (شتور) علي اعتبار لهجات وسط سلوفاكيا أساسًا تقوم علية اللغة السلوفاكية بدلًا من لغة غرب سلوفاكيا التي اقترحها (برنولاك). وهذه الصيغة اللغوية التي أسستها مجموعة شتور هي التي استمرت حتى وقتنا الحالي. من أبرز أعضاء مجموعة شتور الأدباء (ميلوسلاف هوربان وميلان هودجا). اتخذ القرار بشأن اللغة السلوفاكية في أحد الكنائس في مدينة (هلبوكا) بالقرب من مدينة (سينيتس) التي تقع شمال براتسلافا وذلك في عام 1843.

أصبح شتور الذي أصدر مجلة يومية عن اللغة السلوفاكية في عام 1845 عضوًا في مجلس العموم المجري في عام 1847. وأثناء الثورة السلوفاكية التي اندلعت في الفترة من عام 1848 – 1849 مطالبة بالاستقلال عن الإمبراطورية النمساوية المجرية شارك شتور في المؤتمر السلافي في براغ. إتخذ شتور موقفا مؤيدا لفيينا ضد المجر، ونظم المتطوعين للحرب علي أمل حصول سلوفاكيا عن استقلالها.

غير أن انتصار فيينا أسس لنظام مركزي، الأمر الذي دفع شتور للتحرك تجاه عقيدة الخلاص في روسيا القيصرية من أجل الحرية.

ركز شتور من الناحية الأدبية علي المحلية والخصوصية السلوفاكية متأثرًا ب(هردار). كان علي قناعة بأن الجنس السلافي جديرًا بأن يعطي شعرًا عظيمًا للحضارة البشرية. فالشعر الذي يعتبر أرقي إنتاج بشري يتخذ من التراث الشعبي نقطة انطلاق، ويمزج الروح بالجسد، ويدعو لقيم عليا. توفي شتور فجأة وفي سن صغير بعد حادثة صيد في عام 1856، إلا أن اللغة السلوفاكية التي وضع قواعدها بدأت تنتشر وتترسخ.

وجدت لغة شتور صداها عند الكتاب اللاحقين وخاصة الشعراء الذين أثروا سريعا في الحياة الأدبية السلوفاكية. من بين هؤلاء الشعراء (يانكوا كرال) و (أندري سلادكوفيتش) و (يان بوتو).

ذاع صيت الشاعر (يانكوا كرال 1822 – 1876) واشتهرت قصائده ومؤلفاته. إنخرط يانكوا كرال أيضًا في حركة الاستقلال، وقام بتقليب الفلاحين ضد الإقطاعيين. أعتُقل في مدينة شاهي السلوفاكية وفي بودابست، وشارك بعد الإفراج عنه في الحركات المعادية للسيطرة المجرية. وبعد هزيمة المجر شارك في أنشطة الحكومة وتوقف عمليًا عن الكتابة. من أهم قصائده مجموعة الأغاني الروائية التي يجمع فيها بين التراث الشعبي والشكل الرئيسي في الاتجاه الرومانسي وهي مجموعة يانكوا العجيب. وهو بطل يعيش في عزلة عما حوله، ويطمح إلى التحليق كالنسر في السماء حرًا طليقًا، لكنه ينتحر في نهاية مأساوية.

شاعر آخر لكنه أكثر تفاؤلا هو القس البروتستانتي (أندري سلادكوفيتش (1820 - 1872). من أشهر أعماله القصيدة المطولة (مارينا) التي كتبها علي

طريقة القصائد السونيتية الغنائية؛ حيث يتألف المقطع الشعري من عشرة أسطر. استلهم موضوع القصيدة من قصة حب غير ناجحة عاشها الشاعر لابنة أحد المواطنين العاديين وتسمي (بانسكا شتيفانيتسا). علي عكس (كولار) الذي يفصل بين الحب المصحوب بالغريزة الجنسية وبين الوطنية بشكل غير متكافئ أحيانًا، فإن سلادكوفيتش يجمع بينهما في تناغم كبير. فالحب عند سلادكوفيتش ليس مجرد نشوة عاطفية ومغامرة من مغامرات الشباب، بل هو هبة إلهية، تمكن الإنسان من السمو فوق الوجود الحسي، وقوة تمكنه من تأمل وتبني الحقيقة عن طريق الجمال، إنه يربط الجسد والعقل في تناغم جميل، ويربط العالم الحسي بالعالم الروحي. يضاف إلي هذا تبنية لرؤية هيجل للتقدم تجاه الحرية والتآلف. القصيدة الأخرى الشهيرة للشاعر سلادكوفيتش هى قصيدة ديتفان وقد تم نشرها في 1853. وهي تمجد سكان منطقة ديتفا التي تقع بالقرب من مدينة بوليانا في وسط سلوفاكيا. القصيدة عبارة عن رؤية للقوة البريئة الطاهرة.

أصغر هذا الثلاثي الشعري هو الشاعر (يان بوتو 1827 - 76) الذي اشتهر بقصيدته الشعرية المجازية موت يانوشيك (صدرت عام 1862 وأعيد طباعتها عام 1870). وهي تدور حول إعدام قاطع الطريق يانوشيك. تصور القصيدة حالة من التوتر بين رؤية لحكايات الجن (ممتزجة بروح دينية) وبين ما يشبه الواقعية المتشائمة. تتعرض القصيدة لمفهوم أن مبادئ الحرية توجد منعزلة عن العالم الحقيقي، وأن هناك

فجوة بين عالم الأحلام الذي يمثله يانوشيك وبين صورة الرجل القروي السلوفاكي المذعن (أي بين عالم المثل والواقع).

تلا أفضل سنوات الدعم الثقافي والتعليمي للغة السلوفاكية سقوط نظام باخ في فيينا. صارت اللغة السلوفاكية التي وضع قواعدها شتور تدرس في المدارس الابتدائية، كما ظهرت المدارس الثانوية التي تدرس اللغة السلوفاكية في مدينة فيلكا رافوتسا ومارتن وكلاشتر بود زنيفوم في الأعوام 1962 – 1766. كما مثّل تأسيس المعهد الثقافي السلوفاكي ماتيتسا سلوفاكيا في مدينة مارتن في عام 1863 منعطف كبير في تطور اللغة السلوفاكية الحديثة. ثم أغلقت هذه المدارس وكذلك معهد ماتيتسا سلوفاكيا في عام 1875 بعد اعتماد اللغة المجرية كلغة رسمية وحيدة في كل الأراضي الخاضعة للحكم المجري ومنها سلوفاكيا، حتى أعيد افتتاحها في عام 1919.

كانت الرواية السلوفاكية تتواجد بشكل ظاهري من خلال الشعر. ويمكن أن نذكر هنا علي الأقل واحدا من الروائيين البارزين في هذه الفترة وهو يان كالينتشيك (1822 – 1871)، أهم أعماله الإصلاح والتي صدرت عام 1860. تصور الرواية بطريقة روائية ساخرة خلفيات الانتخابات المجرية التي أجريت في الفترة قبل عام 1848.

النغمة السائدة في الرواية هي السخرية وعدم التحيز في قالب غير سياسي. لكن يظهر في الرواية هجوم علي أسطورة الطبقة الأرستقراطية السلوفاكية لإجبارها علي الانخراط في القضية القومية. استغل الكاتب موضوع الرواية لخلق عمل أدبي ساخر، ووسيلة لإبداع تحفة أدبية من

الناحية الأسلوبية، تنطوي على تصوير واضح وغني بالصور والمفاهيم. يمكن رؤية العمل ككل علي أنه تجسيد للغة وتقنية العمل القصصي.

من أشهر المهتمين بتجميع الحكايات الشعبية كان الأديب (بافول دوبشينسكي 1828 - 1895) ونقلت إلي اللغة الإنجليزية العديد من حكاياته التي نشرت في العمل (حكايات سلوفاكية 1880 - 1883).

من الواقعية إلى الحداثة

من رواد الأدب الذين برزوا في العقود الثلاث التالية كان الشاعر بافول أورساك هفيازدو سلاف (1849 - 1921). عمل كمحامي وقضي معظم حياته في مدينة دولني كوبين الواقعة شرق مدينة مارتين. من أشهر قصائده قصيدة زوجة الغفير (1884 - 1886). يدور موضوع القصيدة حول حارس القرية المسمي مايكل تشايكا وزوجته هانكا. حيث يقتل تشايكا أحد الارستقراطيين المنحليين أخلاقيا أرتوش فيلاني الذي اتهمه باغتصاب زوجته. محور القصيدة هو تصوير حياة القرية وتمجيد حريتها. في القصيدة صور محلية وتصوير للأنشطة البشرية التي تتكامل مع الحياة في الغابة (جلب الماء، سقوط الأشجار، جمع ثمار التوت، صيد حيوان الأيل، النجوم، السيول في الغابة، تداخل السلاسل الجبلية المتماسكة الحرة التي لا تقيدها أغلال ولا تخيفها أشباح، السلاسل الجبلية الشامة كالنسر). يظهر هفيازدو سلاف علي أنه شاعر عالمي يتخطى سلوفاكيا. لكن أسلوبه بصفة عامة يمتاز بثراء اللغة الشعرية

ومزجها بتعابير اللهجات المحلية والألفاظ المستحدثة والتراكيب البليغة التي تتسم أحيانًا بالغموض. تصور مجموعته الشعرية قصائد دموية (1919) المرارة والحزن من ويلات الحروب التي تسحق كل تفاؤل وأمل. يشكك الشاعر فيها في مصير البشرية وعدالة القدر، غير أنه ينهي مجموعته بشيء من التفاؤل.

شاعر آخر هو الشاعر سفياتوزار هوربان فايانسكي (1847 - 1916) وهو صديق هفيازدو سلاف، كان والده يوسف ميلوسلاف هوربان كاتبًا، ورمزًا وطنيًا سلوفاكيًا. عمل هو الآخر محاميا ثم محررا في الجريدة القومية. تعرض للسجن مرتان بسبب مقالاته. أثارت مجموعته الشعرية الأولي تاترا والجبل 1879 السلطات العسكرية في البلقان أثناء احتلال البوسنة والهرسج. تضمنت كتاباته أيضًا بعض القصص الأدبية مثل الظل الطائر 1883 ورواية الغصن الجاف 1884. عبر فايانسكي عن إيمانه بأن أعضاء الطبقة الأرستقراطية السفلى سوف ينخرطون في الوطن السلوفاكي وأن المستقبل يكمن في إتحاد هذه الطبقة مع طبقة المفكرين ذات الأصول الريفية. كان أيضا متحمسًا لفكرة تحرير سلوفاكيا بالجيوش الروسية. رغم انشغاله برسم صورة للحياة الاجتماعية فقد كان في الوقت نفسه كاتبًا رومانسيًا مثاليًا. كتب في عام 1883: لا يوجد ظلام حقيقي فينا، فكل ما نحمله من ضعف وغرابة ونقص ليس سوي ظلال. فوق هذه الظلال يسود صفاء المثل العليا أبديًا صامتًا.. رباه! ليكن قدرنا في هذه المثل العليا ونورها. رسم الكاتب صورة لحياة الطبقة السلوفاكية الوسطى، وجسد أمل الغالبية منهم، أمل

الضعفاء المشتتين الذين يسعون إلي تدبر قوت يومهم من خلال امرأة علي حافة الجنون وشباب متعلمين أوفياء بالعهد لجذورهم يتطلعون إلى خدمة القضية السلوفاكية.

بلغ الأدب القصصي أوجه في أعمال الكاتب مارتين كوكوتشين (1860 - 1928). كان كاتبًا مفعمًا بالعواطف، يعتمد علي التجربة. عالجت أولى مجموعاته القصصية صور القرية التي نشأ فيها ياسينوفا في إقليم أورافا. وربما من أفضل أعماله التي تعتبر أكثر من مجرد دراسة نفسية هي رواية النائم - 1886، تدور حول راعي الإوز المختل عقليا. من أكثر قصصه شهرة لما تتضمنه من عناصر قصصية بالمعنى الكامل للقصة هي قصة بيت علي جانب التل 1903 - 1904 وهي صورة متكاملة للحياة الريفية منذ نهاية القرن التاسع عشر في جزيرة براتش (جزء من كرواتيا الحالية) الذي عاش فيها الكاتب لمدة 13 عشر عامًا، وذلك من خلال عاشقين ينتمي كل منهما إلى طبقة اجتماعية مختلفة. ونظرًا لأن أبطال الرواية يتخطون حدود قريتهم وعالمهم ويمثلون حَمَلَةَ الصراع القصصي، فإن الرواية بهذا تأخذ طابع الرواية المفتوحة.

شهدت بداية القرن العشرين مجموعة من الكتابات النسائية. ربما من أشهرهم الكاتبة بوجينا سلانتشيكوفا التي عرفت باسم تيمرافا (1861 – 1951). لم تتعاطف مطلقا مع حياة القرية التي صورها كوكوتشين، رفضت كل الصيغ العاطفية المبتذلة التي تصور فشل قصص الغرام واعتداد الطبقة الوسطى بنفسها.

تميزت السنوات الأخيرة السابقة للحرب العالمية الأولى بمجموعة من الأدباء السلوفاك المعروفين بأدباء الحداثة السلوفاكيين. وهو الاتجاه الذي ارتبط بالرمزية الأوروبية والذي يحمل في طياته تركيز خفيف واستعارات بصرية ضمنية وسوداوية ساخرة وله طابع شخصي.

من شعراء الحداثة في ذلك الوقت كان الشاعر إيفان كراسكو (1876 - 1958). ويعد من مؤسسين الشعر الغنائي السلوفاكي الحديث ورائد اتجاه الحداثة والرمزية السلوفاكية. اشتهر بمجموعتيه الصغيرتين الليل والوحدة (1909) ومقاطع شعرية (1912). كتب معظم أشعاره في بوهيميا بالقرب من براغ. يتصف شعر كراسكو بنغمة موسيقية، هادئة ظاهريًا (ومبهمة في الوقت نفسه). يعبر فيها عن حالة نفسية من الوحدة والكآبة والتردد التشاؤم وذلك في أشعار غنائية (جنسية في الغالب) تعارض الأشكال الخريفية التقليدية الغامضة. فهي مجموعة من الأشعار التي تصور الحنين إلى الماضي وشعارات التقاليد وانهيار القيم.

الأدب بين الحربين

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، ومن أجل إعطاء جمهورية تشيكوسلوفاكيا التي تأسست في 28 أكتوبر 1918 صبغة قومية موحدة تأسس الدستور على أساس اللغة القومية الواحدة التي توجد في صيغتين (اللغة التشيكية والسلوفاكية). عمليًا أصبحت اللغة السلوفاكية اللغة الرسمية لسلوفاكيا. تم تأسيس جامعة كومانسكي في

براتسلافا عام 1919 والمسرح السلوفاكي القومي الذي افتتح عام 1920. وحتى لا تصبح برسبورج (براتسلافا الحالية) جزءًا من المجر أو ألمانيا تم تسكين علي عجلة العديد من السلوفاك فيها وبصورة مطردة. وانتقل المركز الثقافي إلى براتسلافا تدريجيًا، وعاد إلي الوجود من جديد المعهد الثقافي (ماتيتسا سلوفاكيا) في مدينة مارتين.

أدي الاقتصاد التشيكوسلوفاكي المشترك، ووجود مركزين ثقافيين مختلفين، وكذلك الفشل في احتواء الاستياء السلوفاكي الناجم عن اعتلاء النخبة التشيكية المراكز الحيوية والمؤثرة في التعليم والحكومة لتحل بذلك محل النخبة المجرية المطرودة، أدى إلى إضعاف الإتحاد الوليد وبمساعدة هتلر بعد معاهدة ميونخ في عام 1938 تأسست دولة سلوفاكية التي كانت بمثابة ألعوبة في أيدي الآخرين وبخاصة الألمان النازيين.

أرّخت كتابات الأديب يانكوا ياسانسكي (1874 - 1945)، أحد أعضاء مجموعة الحداثة السلوفاكية للفترة السابقة لعام 1918 وما بعدها. تعد كاتباته امتداد للواقعية الاجتماعية الناقدة وخاصة في روايته الديمقراطيون (1934- 37)، حيث يرسم فيها صورة ساخرة للممارسة الديمقراطية في الواقع منطوية علي دعابة، يسخر من حياة الطبقة الوسطي العامة والخاصة ومن الموظفين الحكوميين.

انفتح الأدب السلوفاكي في هذه الفترة علي العالم، سواء من ناحية الطوبوغرافيا أو الموضوعات. اهتم الأدباء بالكتابات التاريخية وبتحليل

الطبيعة البشرية. من بين هؤلاء الأدباء لاديسلاف ناداجي يجا (1866 – 1949) في رواية آدم شنجالا (1923).

تضم الكتابات التي تهتم بقضايا أكثر شمولية وذات صبغة عالمية طموحة العديد من الأدباء أمثال: يان هروشوفسكي (1892 -1975) الذي أصدر مجموعة قصصية عن روما في كتابه بومبيليوس مادونا 1923، وكتاب رجل بقلب صناعي 1925. وهي قصة ساخرة عن الحرب العالمية الأولى لرجل يعيش بقلب صناعي (نقل الأعضاء هو موتيف سائد في مذهب الحداثة يعبر عن نقطة الضعف)، وحائر بين امرأتين وقع في حبهما. أديب آخر وهو تيدوا جاشبار (1893 - 1972). هو كاتب لمجموعة قصص عاطفية، تعكس الأوضاع السائدة في ذلك الوقت انطلاقًا من تجربته كموظف في البحرية.

إيفان هورفات (1904- 1960) هو كاتب من دعاة المذهب الحيوي ومن كُتّاب الأدب الشامل. كتب مثلًا عن باريس، وعن فترة دراسته للحقوق وهو في العشرينات. سُجن بتهمة الخيانة العظمي وهو في الخمسين، لكنه واصل الكتابة بعد خروجه من السجن.

في الحياة الأدبية السلوفاكية في تلك الفترة تواجد كتاب يهتمون بالقضايا المحلية الاجتماعية كمركز رئيسي لكتاباتهم من بينهم ميلو أوربان (1904-1982). اشتهر بصفة خاصة بروايته السوط الحي 1927. هي رواية شاملة مليئة بمواقف الرثاء الخيالية من آلام وقت الحرب في قرية خيالية تحولت من السلبية إلي العنف الثوري. أصدر في الفترة من 1940

و 1945 جريدة يومية. أما رواياته الأخرى ذات الصبغة التاريخية التي صدرت منذ الثلاثينات وحتى الخمسينات وتؤرخ لسلوفاكيا حتى عام 1945 فليست لها أهمية كبيرة.

صارت صورة معاناة الطبقة الوسطي واستخدام أسلوب الواقعية الاشتراكية الترويجية والأسلوب الصحفي الهدف الرئيسي للكتاب أمثال بيتر يلامنتسكي (1901 - 1949)، ومن أعماله الأرض البكر 1932 والأديب فرنيوا كرال، ومن أعماله الطريق المسدود 1934.

ومن الأدباء المثيرين للجدل جايزة فاموش 1901-1956. هو ابن لرجل يهودي مجري الأصل كان يعمل موظفًا في السكة الحديد. درس الطب ومارسه في براغ في بداية الأمر، ثم عمل في سلوفاكيا في مدينة المصحات بيشتاني. أصدر في عام 1928 مجموعة قصص قصيرة بعنوان عيون أديتا، يصور فيها قسوة البشر والغرائز الإنسانية المختلفة. تزخر روايته ذرات إلهية 1928 بالعديد من التعليقات الساخرة. يواصل فيها علي الطريقة الطبية كتابة ما يشبه سيرته الذاتية. تدور الرواية حول طبيب يعمل في براغ في إحدى المستشفيات، ثم يصاب بمرض أثناء إجراءه إحدى التجارب. وتصاب كذلك صديقته التي اغتصبها أحد المنحرفين وينتحرا معًا. وفي روايته الغصن المكسور 1934 يرسم صورة للمجتمع اليهودي الذي ينتمي إليه حول مدينة نيترا. سافر فاموش إلي الصين وتايوان في عام 1939 بصفته يهوديً، ثم استقر في البرازيل حيث مات هناك.

من الأدباء السلوفاك القلائل الذين ترجمت أعمالهم إلي اللغة الإنجليزية الكاتب يوسف سيجار هرونسكي (1896 – 1961) تقوم طريقته القصصية علي الجمع بين التصوير الواقعي لحياة القرية من ناحية وبين التصوير العاطفي القائم علي التكامل بين الإنسان والطبيعة من ناحية أخرى. تصور روايته يوسف ماك 1933 الفترة السابقة لاندلاع الحرب العالمية. يصور العالم الداخلي لعامل فاشل في السكة الحديد وموظف في إحدى دور العرض حيث يمثل ماك السلبية المعتادة، وكذلك سرعة التكيف كالعشب الذي يحارب من أجل البقاء.

شهدت نهاية الثلاثينات من القرن الماضي وصول تيار جديد في الكتابة النثرية يعرف علي انه تيار النثر الطبيعي أو الغنائي الذي ضعف في فترة الأربعينات، وهي فترة ظهور الجمهورية السلوفاكية المستقلة. فبدلا من تحليل المتغيرات في الريف السلوفاكي حدث تحول حتى عن تناول حالات القلق في المدينة إلي معالجة مسألة الحرية والعزلة والعودة إلي الطبيعة، مستثمرة قوالب القَصَص الشعبي. ظهر في هذه الفترة التأثير الكبير للأدب الفرنسي تشارلز فرديناند راموز وجان جيونو علي كتابات الأدباء السلوفاك. من الأسماء التي لمعت في هذه الفترة خروباك وفيجولي وشفانتنير، إلا أنه لم يُترجم سوي القليل من أعمال هؤلاء الكتاب.

يُعرف الأديب دوبروسلاف خروباك علي أنه من كتاب التقليدية الحديثة. بعد دراسته لكلية الهندسة الكهربائية في براغ عمل في إذاعة براتسلافا. إلى بجانب ذلك أصدر مجموعة قصصية بعنوان صديقي

ياشيك 1937. ومن أعماله الرئيسية رواية عودة التنين 1943، وهي تدور حول عامل الخزف مارتين والمسمي التنين الذي يتعرض للرفض من قبل أهل قريته لأنه لقيط ويرتدي ملابس غير ملابسهم. يصور خروباك في الرواية التوتر في المعايير الأخلاقية، وذلك عندما يقوم التنين مع غريمه في الحب بحماية جمهور الفلاحين الذين يتعرضون لخطر الحريق الذي شب في الغابة، الأمر الذي جعله مقبولًا بينهم.

ولدت الكاتبة **مارجيتا فيجولي** (1909– 1995) في مدينة فيشني كوبين. بدأت حياتها الأدبية بمجوعة قصص قصيرة بعنوان إغراء 1937. يدور موضوعها بصفة عامة عن الحب والمشاعر في حياة امرأة شابة. استوحت موضوع روايتها التالية ثلاثة أحصنة كستنائية اللون 1940 من حياة الريف في بلدتها أورافا. أبطال الرواية ثلاث شخصيات محورية هم بيتر الشاب البسيط، ماجدولينا الحبيبة وجان . مهرب الخيول الغني. تصور فيها انتصار الشاب النقي الأمين بيتر علي الإقطاعي الغني ومهرب الخيول جان، الذي لقي حتفه تحت أقدام حصان هائج، الأمر الذي جعلماجدولينا زوجته والتي كانبيتر قد تقدم لطلب يدها أن تتعاطف مع الأخير. يتصاعد الجو العاطفي للرواية من خلال الثلاثي الرمزي، وهو الخيول الثلاث والحب والشجاعة. وفي النهاية ينتصر الخير علي الشر في عالمها القصصي بقوانينه الخاصة. في الرواية نجد رموزًا دينية، كأسماء أبطال الرواية والأرض الموعودة، وتجوال بيتر في البلاد ليعود إلى ماجدولينا منتصرًا. تحولت الأديبة بعد ذلك إلى الكتابة التاريخية

فأصدرت رواية بابل 1947. تصور فيها سقوط وانهيار إمبراطورية الكلدانيين علي يد الفاتحين الفرس.

ينتمي إلى مجموعة الأدباء هذه الأديب الشاب فرانتيشك شفانتنير (1912 - 1950). استلهم الأديب موضوعات قصصه من البيئة في الإقليم الجبلي في جبال تاترا السفلى وكذلك من قصص الفنتازية. يقدم في مجموعته القصصية مالكا 1942 تسع قصص علي شكل قصائد غنائية عن الحب والجزاء. أتبَع هذه المجموعة بقصة عروس الريف 1947. وهي قصة تتناوب فيها موضوعاته المفضلة حول الطبيعة البشرية بكل ما فيها من شيطانية وبدائية وموت وحب...

الشعر السلوفاكي منذ عشرينات القرن العشرين

إميل لوكاش (1900 - 1979): هو قس بروتستانتي ونائب في البرلمان السلوفاكي. طور الفكر الرومانسي الحديث. تحول عن الأسلوب الرمزي الذي ستخدمه في مجموعة الشعرية الدانوب وساينا 1925 إلي الشعر الإنعكاسي العاطفي في مجموعة عن حب الكراهية 1928 و مجموعة تقاطعات 1929 وواصل حتى بدأ في معالجة القضايا الاجتماعية والوطنية في مجموعة اكسلير 1934، وملاخ 1938، أو في مجموعة بابل 1940. وبعد فترة من الصمت المرغم استطاع مواصلة نشر أعماله منذ منتصف الستينات.

يان سمريك (1898 - 1982): عاش كطفل في ملجأ أطفال في مدينة مودرا. عمل كصحفي، ثم محرر في إحدى دور نشر. بعد ذلك أسس مجلة

أدبية سلوفاكية شهرية في مدينة براغ تسمي إيلان عام 1931. صار بعد نشر مجموعته القصصية أيام الغَدْو 1925 شاعرًا سلوفاكيًا من شعراء المذهب الحيوي وبصفة عامة صار شاعرًا اتسم بالتفاؤل في أشعاره. تغير هذا المنهج المتفائل في فترة الحرب العالمية الثانية. يتبنى الشاعر سمريك في مجموعته الشعرية الكبيرة الشاعر والمرأة 1923 – 1934 الحب كأعلى قيمة إنسانية في الحياة. وهي قصة شعرية كتبت علي شكل حوار بين الشاعر وامرأة مجهولة تقابلا صدفة. تتصاعد فصول القصة الشعرية في الفصول الأربع وتنهي في الخريف حيث تهجره المرأة لقناعتها بان الشاعر شخصية مميزة وأن الزواج يعني نهايته كشاعر.

فالانتين بينياك (1894 - 1973): ينحدر من أسرة موفورة الحال تسكن قرب مدينة توبوليتشاني في وسط سلوفاكيا. عمل لاحقًا موظفًا في براتسلافا. تعتبر لغة بينياك أكثر غموضًا وخصوصية من لغة سمريك ولوكاتش. تضمنت مجموعاته الشعرية بدأ من عام 1928 مشاكل صعوبة الحياة الريفية والتقاليد والجمال، وتنافر الوجود وموضوعات من البيئة الفرنسية والإيطالية، فضلا عن رؤية خاصة عن الحروب. تشرّب الشاعر تأثير الاتجاهات الشعرية المختلفة مثل الرمزية والسريالية والفلكلور الشعبي. ظهر أوج تألقه أعماله بدأ من صوفيا 1941 و رماد 1942. منع بسببها من الكتابة ثم باشر نشر أعماله منذ منتصف الستينات.

من شعراء المذهب السريالي في فترة ما بعد الحرب **رودلف فابري** 1915 - 1982 الذي اشتهر بالخيال الواسع الذي يبدوا جليًا في أعماله

مثل أياد مقطوعة 1935، و ساعة مائية من الرمل 1938، و أنا لست أنا 1946. وسرعان ما تحولت اللغة السريالية والتي عرفت بالسريالية السلوفاكية أو السريالية المتطرفة إلي لغة تستخدم في التعبير عن نبذ الفاشية ورفض تسييس المجتمع.

تتضمن قائمة الشعراء في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية أسماء كبيرة مثل الشاعر **ميروسلاف فالِك** 1927 - 1991، والشاعر المعاصر **ميلان روفوس**. نشر روفوس أولى أعماله في عام 1944 في مجلة برامين، وآخر أعمالة التي صدرت هذا العام 2007 بعنوان مجموعة الوفاء. يعد روفوس من أشهر الشعراء السلوفاك المعاصرين وأكثرهم إسهامًا في تطور الشعر منذ منتصف الخمسينات وحتى الآن. جبنًا إلى جنب مع روفوس عمل فالك على إيجاد موضوعات جديدة في الشعر السلوفاكي، حاول في أثناء ذلك التوغل إلي الخصوصية البشرية منطلقًا من أحاسيس إنسان القرن العشرين.

تشمل هذه القائمة علي أسماء الكثير من الشعراء الذين لا يتسع المجال للحديث عنهم وغالبيتهم من الشعراء المعاصرين.

الكتابة النثرية في فترة ما بعد الحرب

من الموضوعات المفضلة لدي الأدباء في فترة ما بعد الحرب هي حكايات المحاربين وأحداث الثورة السلوفاكية في عام 1944 التي فشلت مع تقدم قوات الجيش الأحمر وتم إخمادها قبل تحقيق غرضها. أصبح النظام الاشتراكي في سلوفاكيا شأنها شأن باقي الدول التي خضعت لحكم

ستالين هو النظام الرسمي الذي ترسخت أسسه بمرور الوقت. لم تظهر الحركات المعادية للنظام لشيوعي إلا في عام 1954 بدأ من الكاتب الفونس بدنار 1914 - 1989 في رواية قمة الزجاج 1954 التي تصور الحكم الاستبدادي الشيوعي والفساد الذي حل معه وثورة العنف البشري الذي جسده في مجموعة قصصية أخري بعنوان ساعات ودقائق1960. هذان العملان من العلامات الفارقة في الرواية السلوفاكية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

من الأعمال النثرية الأخرى في هذه الفترة رواية النبيذ الأحمر 1948 للكاتب فرانتيشك هيتشكو هي تأريخ لبلدة اشتهرت بإنتاج النبيذ، وكذلك رواية ميدان القديسة إليزابيث 1958 للأديب رودلف ياشيك 1919-1960. وهي تصوير نفسي للحب وحالة المدينة أثناء الحرب ومصير يهود سلوفاكيا الذين نقلوا إلي المعسكرات النازية.

وضع الكاتب الشيوعي دومينيك تاتاركا 1913- 1989 بروايته شيطان الخضوع 1956 - 1963 أسس اعتماده ككاتب مناهض للنظرية الإستالينية. وبعد الاجتياح السوفيتي في عام 1968 رفض تاتاركا التكيف مع النظام وأصبح من أول الكتاب السلوفاك الخارجين علي النظام الشيوعي.

من الكتاب الشيوعيين الذين تحولوا عن الشيوعية ومن أكثر الأدباء الذين ترجمة أعمالهم هو لاديسلاف منياتشكو 1919 - 1994 الذي عاش بعد تحوله في النمسا. وصف الكاتب الاضطهاد الذي تعرض له في كتابه تقارير متأخرة 1963. يقول الكاتب عن هذا العمل: لقد كتبته لكي أوثق ما ارتكبته من خطايا

في هذه الأحداث. تؤرخ روايته طعم القوة 1967 سيرة حياة أحد السياسيين الشيوعيين البارزين الذين مارسوا الفساد انطلاقًا من سلطتهم.

كاتبة أخري من كتاب الرواية البارزين الذين ترجمة أعمالهم إلي اللغات الأجنبية هي الأديبة كلارا يارونكوفا 1922 - 2005، تتميز كتاباتها بسحر فريد وإحساس مرهف. بدأت حياتها الأدبية بالكتابة للشباب، ومن أول هذه الأعمال قصة مذكرات بطل 1960. وواصلت هذا التوجه في أعمالها التالية ومنها: الوحيدة 1963، الشارد 1973. تجنبت يارونكوفا استخدام اللهجات المحلية في كتاباتها للشباب، على عكس الاتجاه الذي كان سائدًا في مثل هذه الأعمال الأدبية في ذلك الوقت.

تمتلأ الساحة الأدبية السلوفاكية بالعديد من الأدباء الذين لمع نجمهم خاصة في فترة السبعينات. من بينهم فينتسنت شيكولا 1936 - 2001 الذي لفت انتباه النقاد إليه من خلال ثلاثيته التي تصف الثورة السلوفاكية في الأجواء الريفية الأساتذة 1976-1979.

من هؤلاء الكتاب أيضًا الأديب لاديسلاف بالك 1941 – وهو كاتب مرموق، تؤرخ رواياته للأحداث في بلدته السلوفاكية شاهي القريبة من الحدود المجرية منذ عام 1945. من بين هذه الأعمال رواية المساعد 1977 والأقاقيا 1981 ومسرح الغابة 1987.

المترجم

الفهرس

قصص من الأدب السلوفاكي



...اتجه يمينًا فوجد شجرة، يسارًا فوجد أيضًا شجرة. لم يكن خائفًا، فهو لم يؤمن يومًا بالعفاريت. لكن قشعريرة سرت في جسده من رأسه حتى عقبه. على يمينه وشماله غابة ساكنة، شاهقة وسط الظلام، تسكنها أسرار الليالي التي لا يعرفها أحد، ولم يطلع عليها حتى الآن. رياح عالقة تهب على قممٍ أشجار ثقيلة تئن كرجل عجوز، وشجرتان تتوكأن على بعضيهما وتصدران خفيفًا معلولاً. لا مخرج له مما حوله. غابة يسكنها الظلام، تكونت فيها متاهة تفوح فيها رائحة أشجار الصنوبر، ورائحة الأخشاب المتعفنة، والجذور المتحللة.في هذه الغابة قبل نصف عام... أخذ يفكر في أمر مرعب، أصابه بالشللِ. إنه لا يؤمن بأن الأموات يظهرون، ورغم ذلك التفت حوله في كل الجهات خائفًا. لكنها ليست إلا غابة بكماء صماء من حوله. وما هو إلا صوت رياح تهب بين الحين والآخر، وتهز قطرات المطر فتسقط على الأرض، ثم يسود الصمت من جديد. بدا له في هذا الصمت أن الأشجار قد دبت فيها الحياة، وتحولت إلى أجسام بشرية، تتحرك من مكان إلى آخر في صمت وهدوء. وعبثا حاول أن يتحلى بالشجاعة. لم تلمسه الأشجار، لكنها أنزلت الرعب في قلبه حتى انتصب شعر رأسه من الخوف.



60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
Email: alarabi5@link.net

ISBN 978-977-319-157-3



تصميم الغلاف: محمد سيد